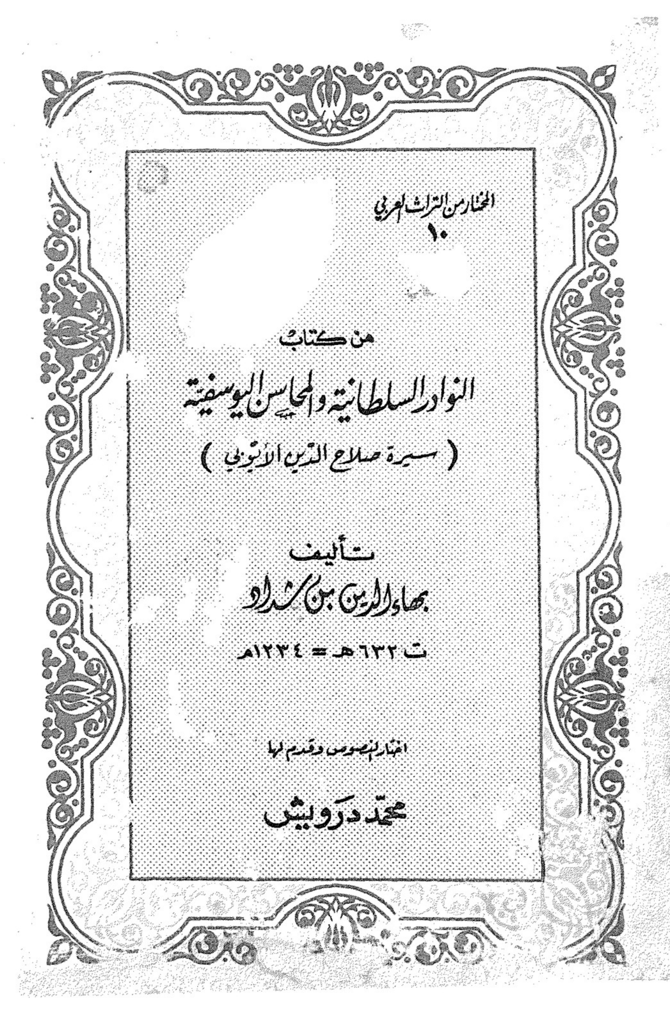


المختار من التراث العربي
١٠

من كتاب

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

(سيرة صلاح الدين الأيوبي)

تأليف

بهاء الدين بن شداد

ت ٦٣٢ هـ = ١٢٣٤ م

اختار النصوص وقدم لها

محمد درويش



المختار من التراث العربي
١٠

من كتاب

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

تأليف

بهاء الدين بن شداد

ت ٦٣٢ هـ = ١٢٣٤م

اختار النصوص وقدم لها

محمد درويش

منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي

دمشق - ١٩٧٩

تمهيد

عانت امتنا من غزو الفرنج للمنطقة العربية اخطارا هددت وجودها بعد أن توالت انتصاراتهم فاحتلوا ثغورا وبلادا هامة من هذه المنطقة فأصبحت لهم مراكز جدوا في تحصينها وتعزيزها بالرجال وآلات الحرب ، واتخذوا منها منطلقات للاغارة والغزو محاولين الاتيان على المنطقة كلها احتلالا واستعماراً .

حتى كان النصف الثاني من القرن السادس للهجرة اي اواخر القرن الثاني عشر للميلاد حيث غمرة الصراع وحدة شرة الفرنج ظهر السلطان صلاح الدين الايوبي على مسرح الحوادث ، فكان به جمع كلمة المسلمين بعد فرقة وشتات ، وبه الاعداد الضخم لمناجزة الغزاة ودك حصونهم ، فاستنفر قوى الامة ، واستنهض عزائم ابنائها بالحض على الجهاد المقدس ، وبالانفاق السخي على تحصين الثغور وتقوية الاساطيل وتجهيز الجيوش ، فكان لذلك اثره البعيد في ظهور بطولات خارقة في المعارك التي استمر اوارها بين المسلمين

وبين الغزاة الفرنج الآتين من وراء البحار ، وكانت نتــائج ذلك كله استرداد عدد كبير من المدن والثغور والقلاع والحصون التي احتلها الافرنج او اقاموها في المنطقة العربية . وكان ذلك أيضا ارهاصات وتباشير بانحسار الغزاة ومن ثم تمام دحرهم وردهم الى حيث جاءوا فيما بعد .

وبذلك تثبت هذه الامة جدارتها في المحافظة على وجودها تحمل رسالتها الانسانية في الحرية والعطاء الحضاري .

وعاش ابن شداد صاحب كتاب (النوادر السلطانيــة والمحاسن اليوسفية) مع صلاح الدين قائد هذه المرحلــة المضيئة من تاريخ الامة ، فترك لنا سجلا حافلا ببطــولاته وحنكته وحكمته . اخترنا منه نصوصا هي معالم تنهض شواهد وتنتصب أعلاما على طريق النضال المجيد لهذه الامة العظيمــة .



بهاء الدين بن شداد

في عام تسعة وثلاثين وخمسمائة من الهجرة ، وهو العام الذي يوافق سنة خمس واربعين ومائة والف من الميلاد ؛ ولد في الموصل مؤرخ السلطان صلاح الدين الايوبي القاضي يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد والملقب بهاء الدين والمكنى بأبي المحاسن . واتجه نحو العلوم الشرعية التي ترمقها إنظار ابناء عصره بالتجلة والاحترام فأخذ عن شيوخه في الموصل علوم القرآن والتفسير وعلوم الحديث الشريف كما درس الفقه ولم يغفل الادب بل يذكر انه قد درسه في صباه ، كما يذكر بعض من قابلوه بعدئذ انه يحب الادب ويستشهد بالشعر(١) .

واذا اردنا ان ندقق في ثقافته نرجح ان ابرز اركانها كان الفقه والحديث الشريف ، دلتنا على ذلك أسماء كتبه التي هي : اما ان تتناول الاقضية والاحكام ، او تذكر الاحاديث المتعلقة بجانب من جوانب الحياة كالجهاد مثلا وقد تجمع بين الحديث والفقه .

---

(١) وفيات الاعيان ، لابن خلكان .

ولهذا تعد ثقافته الادبية جانبية بالقياس الى تكوين شخصيته العلمية جملة ، فهو ممن يهتمون بالمضمون اكثر من الاهتمام بالصيغة والشكل ، وقد دون سيرة صلاح الدين التي نقدم لها الآن بأسلوب بسيط خال من الاساليب الادبية التي تقربه من كبار الادباء ، بل لعل اسلوبه يقترب في كثير من الاحيان من العامية العادية ، نجد في كتابه مثلا : « ... ولقد قلب في خزانته كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس ، فما عمل بالنواب شيئا سوى أن صرفهم من عملهم لا غير » ، « ... واظهر أن سبب ذلك شدة حمو الزمان والفرار من وخم المرج » . « ... وهو صابر على شدة الالم وقوة ضربان الدمامل » .

واذا لم نعتبره أديبا كبيرا ، فهذا لا يعني اننا ننكر مشاركاته الثقافية والسياسية فليس الادب كل شيء في ميدان النشاط الانساني ، فقد رشحته ثقافته الى أن يصبح معيدا في أشهر مدرسة من مدارس بغداد يومئذ ان لم تكن اشهر مدرسة من مدارس العالم في عصرها وهي المدرسة النظامية وكان ذلك في سنة ٥٦٦ هـ = ١١٧١ م ، وبقي عاملا في رتبة الاعادة مدة أربع سنوات ثم عاد الى مسقط راسه الموصل . وقد امتلأ اطلاعا على الجوانب النظرية والعملية المهمة عند مثقفي عصره واصحاب النشاط العام فيه ، وعمل

في مجاله الطبيعي وهو التدريس فعلم في المدرسة التي انشاها في الموصل القاضي كمال الدين ابو الفضل محمد بن الشهرزوري .

وقد اصبح ابو المحاسن شخصية مرموقة في المجتمع الموصلي نظرا لعلمه وحنكته وتدبيره ، فلا نستغرب اذا راينا مواطنيه يعتمدون عليه في المهام التي تحتاج الى اصحاب البصائر .

ولا نعجب اذا رأيناه مكلفا من قبل حكام الموصل بالمهام الدبلوماسية الحساسة لدى منافسيهم او محالفيهم من حكام المناطق الاخرى التي توزع اليها العالم العربي يومئذ توزعا غير ثابت الحدود والمعالم . وقد كانت بعض هذه المهام سببا للقائه بصلاح الدين الايوبي ومعرفة صلاح الدين منزلته وقدره ، لانه كما يذكر كلف اكثر من مرة ان يكون في وفد المفاوضة لدى صلاح الدين حين كان حكام الموصل في اخذ ورد معه .

وقد كانت العوامل النشيطة في مجتمع ذلك العصر هي العصبية اولا التي تجعل من قادتها حكاما للدول والممالك كما تحدث ابن خلدون(1) ، وهي ايضا العلم وبشكل خاص

(1) المختار من مقدمة ابن خلدون . السياسة والاقتصاد اعداد سهيل عثمان ومحمد درويش ص ٦٠ – ٨٢ .

العلم بالامور الدينية الشرعية التي تقوم عليها معاملات الناس وانظمتهم ، وتسعى كل دولة من دول العصبيات العربية وغير العربية يومئذ الى أن تتختم بها وتنتسب اليها وتنعت بأوصافها . ولهذا فاذا كانت العصبية تفرز مقاتلين يخوضون الصراعات الدموية ويحكمون أو يحكّمون قياداتهم اذا انتصروا ، فان العالم مطلوب مرغوب من قبل الحكام لكي يدلهم على الطريق المؤديه . ى اضفاء الصبغة الدينية على حكمهم ، ولكي يوجه معاملاتهم وعلاقاتهم توجيها تفوح منه رائحة الدين والتراث المجيد بقدر الامكان ، ويستنزل على أبنيتهم السياسية والادارية مظاهر العصر الذهبي الذي كان الناس يحنون اليه ويفتخرون بذكراه .

وقد كان بعض هؤلاء الحكام اكثر اخلاصا من سواهم في السعي الى احتواء المضمون المثالي الذي تتضمنه الصبغة الدينية الضرورية في عصرهم ، ومن هؤلاء الحكام كان صلاح الدين الايوبي الذي اراد حقا أن يتشبه بافذاذ عصر الرسالة عدالة ورحمة وبسالة وتفانيا وبعد نظر . ومثل هذا القائد المتفاني في سبيل المثل العليا ــ كما يفهمها على الاقل ــ يعمل على ايجاد مستشار أو هيئة من المستشارين تقف الى جانبه وتزوده بنور المعرفة المناسبة لما يعرض له من المواقف . وتدله على ·· ـ ـلول الى الشريعة للمشكلات التي تواجهه ،

فضلا عن فهمها لما يريد وشرحها لآرائه وحملها لرسائله بحكمة، واعطاء دُولته السمعة التي يستحقها صاحبها وبانيها ، ومن اجل ذلك نجد حول صلاح الدين كثيراً من المثقفين البارزين في عصره مثل القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني وعماد الدين الكاتب الاصفهاني ومؤرخه وكاتب سيرته أبي المحاسن بهاء الدين بن شداد ، فحين كان ابن شداد عائدا من اداء فريضة الحج في عام ٥٨٣ هـ = ١١٨٨ م مر بدمشق وكان قاصداً زيارة بيت المقدس ، سمع به صلاح الدين الذي كان على اسوار كوكب محاصرا لها ، فاستدعاه وآنسه وعند خروجه كلف العماد الاصفهاني أن يسأله الاتصال به حين يعود ، وقد تم ذلك والتحق ابن شداد بعد ذلك في شهر جمادى الاولى سنة ٥٨٤ هـ بخدمة السلطان . ومن خلال ذكرياته نجده قاضي عسكره وأول قاض لبيت المقدس المستعاد مع نظارة اوقافه ، ثم هو احد اصفياء صلاح الدين في ليله ونهاره وموضع سره ، رافقه من يومها في اغلب معاركه ، وشهد انتصاراته وكبواته وحمد الله معه عند النصر ، وواساه وشجعه عند المحن ، كما نجده أشبه شيء بشيخه ، يتلو عليه الاحاديث النبوية والآيات المشجعة مع الادعية والابتهالات عند المعارك والشدائد .

ومما يلفت النظر أن ابن شداد لم يكن كثير الاندفاع في

طموحه السياسي مثل المتنبي ومثل ابن خلدون ــ في فترته الاولى على الاقل ــ ، بل قنع بأن يبقى الى جانب سلطانه المحبوب من غير ان يفكر في ان يصبح سلطانا أو واليا ، ولم يثلم حده بمنافسة الانداد على المنصب او المكانة ، بل كان يثبت جدارته فينال ما يستحقه بهدوء ويصعد الى المقامات التي يرشحه لها عقله وعلمه واتزانه باطراد ، وهو عارف بانه ليس بذي عصبية او شوكة عسكرية . وقد وصل في اواخر حياة السلطان صلاح الدين الى ذروة الحظوة عنده حتى انه والقاضي الفاضل كانا آخر من يبقى عنده كل ليلة من ليالي مرضه الاخير ، كما أنه عمل بعد وفاة صلاح الدين على التقريب بين ابنائه دلالة على المكانة الرفيعة التي كان يحظى بها لدى ابرز امراء البيت الايوبي .

وبعد وفاة السلطان . عينه ملك حلب الظاهر بن صلاح الدين قاضيا فيها وناظرا لاوقافها ، وفي هذه المرحلة لم يكن ابن شداد قاضيا عاديا بل كان ركنا من أركان الدولة يقوم بمهمات تتجاوز حدود منصبه الاصلي ، ويسافر الى مصر عدة مرات وينشىء المدارس في حلب فيرفع ذكرها في المحافل العلمية بعد خمود . فقد انشأ مدرسة يدرس فيها ويساعده في ذلك المعيدون ، وانشأ بجوارها دارا للحديث ، ورتب لهما اوقافا ، وعين مدفنه بينهما ، وهو لم ينس التدريس

كل حياته حتى انه كان يدرس عندما يحط الرحال في مصر وان كانت اقامته فيها غير طويلة ، وكان يحتضن أهل العلم ويرعاهم بعلومه وماله وجاهه ، حتى اصبح مقصودا للعلم والمنفعة . وبفضله وعن طريقه كان طلاب العلم يجالسون رجالات الدولة ويجدون لمواهبهم مجالات للتفتح والفاعلية .

ومات الملك الظاهر بن صلاح الدين وخلفه على العرش ابنه الصغير الملك العزيز فحكم عنه بالنيابة ريثما يرشد قائد جنده الطواشي شهاب الدين ابو سعيد طغرل . فكان شديد الاعتماد على ابن شداد في تسيير دفة الامور ، حتى ان الحكم كان يعد بينهما على السواء ، وحين عزم العزيز على الزواج بقريبته ابنة الكامل ملك مصر يومئذ ارسل ابن شداد ليأتي بالعروس وقد تجاوز عمره الثمانين عاما ، وفي أثناء غيبته بلغ العزيز سن الرشد وتسلم سلطانه من قائد الجند طغرل واصبح الحكم تابعا لرايه وراي بطانته من اترابه ، وعاد القاضي بالعروس ليجد منصبه القضائي في انتظاره ولكن ليجد في الوقت نفسه، ان الحاكم الجديد ليس في حاجة الى مشورته وآرائه ، فتضاءل منذ ذلك الحين نشاطه السياسي والاداري واقتصر على عمله الرسمي وعلى مجالسته اهل العلم بعد ان منعه التقدم في السن واعتلال الصحةمن ممارسة التدريس الفعلي .

ويموت ابن شداد في عام ٦٣٢ للهجرة عن عمر يناهز الثلاثة والتسعين عاما ، واذا كان قد خلف المناصب وقرب السلاطين وراءه فهو قد خلف ايضا الذكر الحميد يسعى امامه والمؤلفات الكثيرة التي تطيل عمره . واذا كانت مؤلفاته عديدة فان اقربها الى الخلود هو المؤلف الذي نقدم له ، فهو يتناول سيرة البطل الخالد في تاريخنا وتاريخ العالم صلاح الدين الايوبي .

اما مؤلفاته الاخرى فهي :

١ ـ دلائل الاحكام « في الاحاديث التي استنبطت منها الاحكام » .

٢ ـ ملجأ الحكام عند التباس الاحكام « في الاقضية » .

٣ ـ دروس في الحديث .

٤ ـ كتاب العصا (المقصود موسى وفرعون) .

٥ ـ فضائل الجهاد .

٦ ـ أسماء الرجال الذين في المهذب للشيرازي .

٧ ـ « الموجز الباهر » في الفقه .

٨ ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (المعروف بسيرة صلاح الدين) .

* * *

النوادر السلطانية

ونعود لنقف عند كتابنا هذا الذي وضعه مؤلفنا القاضي ابن شداد سجلا لسيرة صلاح الدين مبتغيا بذلك رد بعض الجميل الى هذا الانسان النبيل ، وكشفا للحق وايضاحا للجوانب الغامضة التي يستطيع ايضاحها من سيرته . وذلك أن موفد حكومة الموصل السابق لاستعداء مركز الخلافة العباسية على صلاح الدين ومرتب الصلح بين صلاح الدين وحكومة الموصل مع تكليف الاول بأن يحلف اغلظ الايمان على الصدق وهو ابن شداد ، هذا الدبلوماسي العالم الذي لم يكن في صفوف الصلاحيين اصبح منذ مطلع جمادى الاولى من عام ٥٨٤ هـ من اقرب المقربين مكانا ومكانة الى صلاح الدين ، وشهد معه أكثر الوقائع التي شهدها منذئذ ، كما اطلع على أكثر ما يجري في بلاط السلطان الايوبي ، فأصبح جديرا بأن يؤرخ له فوضع هذا الكتاب وجعله من قسمين :

اولهما : منذ ولادة صلاح الدين حتى التحاق ابن شداد بالبلاط الصلاحي الذي لم يكن أكثر من مخيم حرب .

وثانيهما : يبدأ بهذا الالتحاق وينتهي بوفاة السلطان عام ٥٨٩ هـ .

وابن شداد في القسم الاول ناقل عن سواه ، ولكنه يحاول أن يأخذ بأصح الروايات حسب الوسائل المتاحة له يقول : « وجميع ما حكيته قبلُ انما هو روايتي عمن اثق به ممن شاهده » ، وأما اغلب القسم الثاني ، فابن شداد فيه شاهد عيان يسجل ما يشاهد بل وما يعاني في كثير من الاحيان فيقول : « ومن هذا التاريخ ما اسطر الا ما شاهدته أو اخبرني به من أثق به خبرا يقارب العيان » ، وحين تقع حادثة في غيابه ينص على ذلك صراحة مما يؤكد امانته العلمية ويدل على انه يعي قيمة حضور الشاهد .

ويبدو أن مؤرخنا قد وضع مسودات كتابه على شكل يوميات أو عن طريق التدوين القريب العهد بالحادثة التي يريد التأريخ لها ، يدل على ذلك ذكره لكثير من التفصيلات حول اعداد الناس والخيل ، ووصف العدد والآلات وهيئات الاشخاص ، وذكر الاسماء والاسعار والايام ، ولكن من الملاحظ في الوقت نفسه انه قد جمع الحوادث ورتب الكتاب في وقت متأخر عن وفاة صلاح الدين، يدل على ذلك ترحمه عليه كلما ذكره ، وذكره بعض البلدان التي افتتحها صلاح الدين نهائيا في حياته على انها عادت الى يد الصليبيين ، وهي لم تعد الا بعد وفاة صلاح الدين ، وكذلك ترحمه على بعض الذين ماتوا بعد صلاح الدين .

واسلوب الكتاب بشكل عام بسيط ، فعند السرد يخلو من السجع والمحسنات البديعية ، حتى يبدو كتقرير يضعه كاتب ديواني عادي مرافق للجيش ، ويقترب من العامية أحيانا لشدة بساطته ويستخدم المؤلف المصطلحات العربية كما يستخدم المصطلحات الاعجمية وبخاصة في أسماء العدد والادوات الحربيـة مثل « الخركاة واليزك ، والجـاليش والزنبورك » .

على ان اسلوب الكتاب يرتفع بارتفاع حدة الانفعال فنجده عند وصف المعارك ومعارك الظفر بشكل خاص يعمد الى السجع كما يستشهد أحيانا بأبيات من الشعر العربي . واما استشهاده بالآيات الكريمة والاحاديث الشريفة فاكثر طبعا من استشهاده بالشعر .

وللمؤلف ثوابت لا يستغني عنها ، فهو كلما ذكر صلاح الدين ترحّم عليه وقدّس روحه. واسترضى الله عليه . وكلما ذكر المتوفين من اهل الفضـل تـرحّم عليهـم . وكلمـا ذكـر القتـلى من الاعـداء لعنهـم وكلمـا ذكـر مدينـة مهـددة يقـول « حفظهـا اللـه » وكلمـا ذكـر مدينـة محتلة يقول : « يسر الله فتحها » . وقد يصف المدينة بانها محروسة اذا كانت من المدن الهامة في يد المسلمين كدمشق

وحلب والقاهرة ، وقد يقع هذا الوصف قبل اسم المدينة وقد يقع العكس .

والمؤلف متعاطف مع صلاح الدين ولايخفي ذلك فترحمه عليه ودفاعه عن اجتهاداته وتسويغه عدم ادائه فريضة الحج واظهار فضائله اظهارا ساطعا وبيان الفرق في الجدارة الانسانية بينه وبين من حوله ، كل ذلك يدل على مقدار الحب والاعجاب اللذين يكنهما المؤرخ لسلطانه .

والمؤلف ايضا ملتزم بأمته وحقوقها ، ولكنه يعترف للاعداء بما يظهرونه من بعض الفضائل البشرية وبشكل خاص الشجاعة : « ولقد شاهدتهم ، وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه » وأما المزايا الانسانية الاخرى كالتسامح والعفو عند المقدرة فيبدو انه لا مجال للمقارنة عنده حولها بين المعسكرين .

* * *

السمات الرئيسة لشخصية صلاح الدين الايوبي من خلال الكتاب :

صلاح الدين ـ كما فهمه ابن شداد ـ بطل حكيم ، ولد في بيت قيادة ، فكان ابوه ايوب بن شاذي اثناء ولادته عام ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ م من القادة المعروفين في دولته . انتقل مع والده من قلعة تكريت محل ولادته الى الموصل ثم الى بعلبك التي اصبح الوالد واليا عليها .

وقد اجتمعت عناصر عدة في تربيته ، لعل ابرزها الجانب العسكري الذي كان ضروريا اكثر من سواه في تلك المرحلة التي كانت منطقتنا تعاني اثناءها من غزو الفرنج . وتظهر روحه العسكرية طيلة حياته فكان بمضي السنوات تلو السنوات متنقلا من معركة الى معركة ، لا يعرف البيت المستقر المشيد الاركان ، يريح سواه من القتال وهو لا يستريح . يعطي قواده وجنوده دستورا او اجازة ويبقى حيث هو ينتظر عودتهم لمتابعة الحرب والقتال .

ولكن التمرس العسكري ليس هو كل ما تلقاه صلاح الدين اثناء نشأته ، بل درس العلوم الدينية ، حتى انتظمت عقيدته الدينية انتظاما واضح الرؤية ، قائما على الدليل مع قرن للنظر بالعمل .

ويبين ابن شداد انه كان يستطيع البحث في الامور الدينية وان لم يستخدم مصطلحات الفقهاء . يقول فيه : « وكان ــ رحمة الله عليه ــ حسن العقيدة ، كثير الذكر لله تعالى ، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم واكابر الفقهاء ، وتفهم من ذلك ما يحتاج الى تفهمه . بحيث كان اذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولا حسنا وان لم يكن بعبارة الفقهاء » . وعلى كل حال فقد تشرب صلاح الدين حب الدين وقيمه . وكان التدين في تلك الايام يقتضي العناية بمهبط الوحي الاسلامي وهو المجتمع العربي . ولهذا اطلع صلاح الدين على انساب العرب وانساب خيلهم وأدبهم وايامهم . وكان يتمثل احيانا بأبيات من شعرهم ، وعرف قيمهم واعتز بها كما يعتزون : « وكان حسن العشرة ، لطيف الاخلاق ، طيب الفكاهة . حافظا لانساب العرب ووقائعهم ، عارفا بسيرهم واحوالهم ، حافظا لانساب خيلهم ، عالما بعجائب الدنيا ونوادرها » .

ونترك صلاح الدين الناشىء الذي كانت تعده الثقافة والاطلاع على أحوال عصره لمستقبل مجيد ، الى صلاح الدين الشاب المكتمل الذي رافق عمه أسد الدين شيركوه الى مصر ، ثم أصبح حاكمها من بعده عام ٥٦٤ للهجرة ليتابع بعد المهمات الجسام التي ندب نفسه لها ، فنجده انسانا متصفا بمزايا اخلاقية عالية ، ابرزها : الشجاعة اذ لم يجرؤ أحد غيره على اعتقال شاور الوزير الفاطمي ، يقول ابن شداد : « فلم يتجاسر على قبضه من الجماعة الا السلطان بنفسه » .

وهو في الحروب القدوة الرابطة الجاش الراسخة القدم الذي يثبت عند هزيمة جنده ويثبتهم بنداءاته ، ويتابع عودتهم الى القتال بنفسه : « ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الاكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ، ووقع الكوس والعلم ، وهو ــ رضي الله عنه ــ ثابت القدم في نفر يسير ، قد انحاز الى الجبل يجمع الناس ويردهم ، ويخجلهم حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى نصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم » .

وكان كريما بل متلافاً ، ويكفي دليلا على كرمه انه ــ وهو السلطان المطلق ــ مات ولم يخلف دارا ولا مزرعة ولا بستانا ولا ضيعة ، ولم يكن في خزانته الاسبعة واربعون درهما ناصرية ودينار صوري واحد : « فانه ملك ما ملك ومات ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة الا سبعةوأربعين درهما ناصرية، وجرما واحداً ذهبا صوريا ، ولم يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئا من انواع الاملاك » . ولم يملك طيلة حياته مالاً يحول عليه الحول فتجب عليه الزكاة : « فانه مات ــ رحمه الله تعالى ــ ولم يحفظ ما وجبت به عليه الزكاة » . وما اكثر ما كان يأتيه من مال عن طريق الجبايات المعتادة وعن طريق الغنائم والهدايا وافتداء أسرى الافرنج ، فكان يعمد الى إنفاقها على الوجوه المجدية في الدولة أو يوزعها على القادة والعلماء : « واقام عليه ــ رحمه الله ــ يجمع الاموال ويفرقها على الامراء والعلماء » ، ولعله

كان يفطن الى ان هذا التوزيع هو ايضا في سبيل الجدوى وحسن سير الامور .

وكان طيب النفس ، حتى انه يستطيع ان ينزل عن بعض المقاطعات لسواه اذا رجاه في ذلك واذا اعتقد في قرارة نفسه ان هذا التنازل يجعل الموهوب اكثر اخلاصا او اقل تمردا : « وكان ـ رحمه الله ـ يهب الاقاليم . وفتح آمد ، وطلبها منه ابن قره ارسلان فأعطاه اياه » .

وصفوة القول ان نفسه لم تكن من النفوس المتشبثة بما تملك ، بل كانت من النفوس السخية السمحة التي يسهل عليها العطاء ، ولعل هذه الطبيعة السخية كانت مفيدة جدا لمشاريعه فضلا عن سموها الاخلاقي .

وكان عادلا بل قمة في العدالة ، حتى ان قارىء سيرته هذه التي تقدم لها لا يشبهه الا الفاروق ابن الخطاب وعمر ابن عبد العزيز . اذ كان يجلس للمظالم يومي الاثنين والخميس لا يثنيه عن ذلك حل او ترحال : « ولقد كان ـ رحمه الله ـ عادلا .... وكان يجلس للعدل في يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل اليه كل احد .... وكان يفعل ذلك سفرا وحضرا » ، وكان يطلع على كتب التظلم المرفوعة اليه بنفسه ، ويأمر كتابه بالتعليمات التي ينبغي ان يدونوها عليها تمهيدا لتوقعها ، بل لقد بلغ مرتبة سامية بين الحكام حين جلس مع متظلم عليه على قدم المساواة امام القاضي :

« .... ثم انعزل من طراحته حتى ساواه .... » ، وكان قضاته يطلبون من اقاربه واقطاب دولته أن يخضعوا للحق خضوعه وان ينحنوا له انحناءه ، يشجعهم على ذلك كله سلوكه النموذجي هذا : « وكان تقي الدين من أعز الناس عليه واعظمهم عنده ، ولكنه لم يحابه في الحق ».

وكان متصفا بسعة الصدر وما يتبع ذلك من حلم واناة وتفضيل للحسنى وايثار للسلم اذا حقق الاهداف بدلا من الحرب مع قدرة لا تجارى على المحاربة عند اللزوم ، فقد كان محاطا ببطانة من الامراء الاقطاعيين وكبار الاعوان المحاربين ، لم يكن أعضاؤها دائما مثالا للاخلاق الحميدة واللطف والانصياع الى العقل والحق ، بل كانوا كثيرا ما يختلفون فيما بينهم ، بل قد يختلفون معه ويتلكؤون في تنفيذ تعليماته ، وقد يتطاولون عليه بالكلام : « فأجابه بعض الاكراد الامراء بكلام فيه خشونة حاصله تعتب لعدم التوفير في اقطاعه » ، أو يتمرد احدهم تمردا بعيد المدى أو ضيقه ، ويقف صلاح الدين بينهم هادئا وديعا مترفقا بهم مكرما اياهم ، يسدي اليهم النصح والارشاد ، ويتلطف في توجيههم ويحقق ما يستطيع تحقيقه من مطالبهم .

وكثيرا ما كان يمنع اصحابه ان يصلوا الى المطلب بالعنف والتمرد ثم يمنحهم اياه ببساطة عن طريق اللين والتفاهم والتفكير السليم حين يؤون الأوان ، ويوحي ابن شداد بأن ملازمة صلاح الدين والقرب منه فيهما تربية مستمرة يتعلم

من خلالهما القائد اخلاق القيادة التي هي عقل وحكمة وفضيلة وليست حمقا وتعاليا .

وكان يستشير اصحابه ، فكثيرا ما جمع مجلس قادته وطرح عليهم المشكلات التي تواجهه ، ويتركهم يتناقشون ويبدون آراءهم التي قد تكون مخالفة لرأيه : « ولما وصلت هذه الرسالة شاور السلطان ــ قدس الله روحه ــ الجماعة في الجواب . » ، « جمع السلطان الامراء والاكابر وارباب المشورة » ، « فعقد السلطان ــ قدس الله روحه ــ مشورة »، « فلما سمع السلطان هذه الرسالة جمع ارباب الراي واصحاب مشورته » ، وقد لا يصدر بعض القواد دائما في اجتهاداتهم عن عامل المصلحة العامة ، بل قد تكون المصلحة الخاصة هي الموجهة لهم ، فيصبر صلاح الدين ويحترم آراءهم ، وقد ينزل على راي المجموع المخالف له احيانا ويترك الامور للزمن الذي كثيرا ما اثبت صحة اجتهاده هو ، كما وقع عند بداية الدفاع عن عكا ، اذ كان صلاح الدين يريدها معركة حاسمة سريعة قبل ان يتمركز العدو تمركزا راسخ القدم حول اسوارها ، فخالفه اكثر اصحابه ، فكانت النتيجة ان وقع ما توقعه صلاح الدين .

وكان صاحب مروءة يهتم بالطفلة الافرنجية الاسيرة التي استغاثت به والدتها لانقاذها ، فلم يهدأ له بال حتى عثر عليها واعادها الى امها .

كما كان يحسن معاملة الاسرى ويخص البارزين منهم بحسن المعيشة وخلع الثياب : « فأحضر الناس اسراهم ، وكنت حاضرا ذلك المجلس ، ولقد اكرم ــ رحمة الله عليه ــ المقدمين منهم ، واخلع على مقدم عسكر الافرنسيس فروة خاصة ، وأمر لكل واحد من الباقين بفروة خرجية ، فان البرد كان شديدا » .

وحين تنتهي معركة أو حصار باستسلام الطرف الآخر ، كان ينفذ شروط الاستسلام بدقة بل قد ينفذها وفقا لمصلحة المستسلمين اكثر مما تتطلبه الشروط احيانا ، وحين يدفع الأسرى فداءهم يرسل من يحرسهم حتى يصلوا الى مأمنهم : «.... وايصال من دفع قطيعته منهم الى مأمنه وهو صور».

ومن أهم صفاته الصبر ، فكثير من شؤون عصره لايمايشها الا الصبور . ان احتماله خلافات قادته وانشقاقات أمته صبر ، وان هدوءه وكياسته تجاه الخلافة العباسية يومئذ صبر أيضا، فضلا عن استمراره في بذل الجهد بشكل متواصل منذ توليه الامر في مصر عام ٥٦٤هـ حتى وفاته في دمشق عام ٥٨٩هـ ١١٩٣م ، حتى لا يكاد الباحث يجد فترة يهدأ فيها هذا المقاتل او يستريح ، فهو في حركة مستمرة من بلد الى بلد ومن قلعة الى قلعة ، قلما سكن تحت سقف بل كان ينصب مخيمه السلطاني العسكري حيث تقتضي ضرورات

المعارك ، ولا يمنعه المرض متابعة العمل ؛ بل قد يركب الخيل ويوجه الجند وهو مريض أو منحرف الصحة : « وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار الى صلاة الظهر يطوف على الاطلاب . ومن العصر الى صلاة المغرب وهو صابر على شدة الالم وقوة ضربان الدمامل » . فصلاح الدين ليس من الجبابرة الجسمانيين بل من جبابرة الارادة التي تتعب الجسم في مراسها ان كان يرضى تواضعه أن يوصف بالجبروت .

ومع انه ترك اللهو البتة وانصرف الى الجد منذ توليه القيادة في مصر عام ٥٦٤هـ : « واعرض عن أسباب اللهو وتقمص بلباس الجد والاجتهاد . وما عاد عنه ولا ازداد الا جدا الى أن توفاه الله » . فقد ظل حسن العشرة حاضر الفكاهة يؤنس جليسه وينجذب سامعه اليه . يخشع عند تلاوة القرآن ويرق قلبه عند سماعها حتى يبكي احانا كما يبكي في المواقف العاطفية فهو اب حقيقي وديع أكثر منه ملكا أو قائدا ؛ ومع ذلك أو نتيجة لذلك فقد حقق لامته ما لم يحققه أصحاب العنفوان من السلاطين وكبار الحكام .

وقد اندمجت أخلاقه باسلوبه السياسي او اندمج بها ؛ فقد كان التكامل واضحا بين هذين الجانبين النيرين لشخصيته . وقد جعلته أخلاقه النادرة محلا لثقة الصديق والعدو ، واعجب به القريب والغريب ، فتمكن من تصريف الامور تصريفا دؤوبا متدرجا ينتهي الى انقاذ هذا البلد .

لقد ابتدأ صلاح الدين بعد توليه الزمام في مصر بتوحيد المنطقة غير المحتلة المواجهة للعدو ، فانتقل من مصر الى بلاد الشام ، وأخـذ يضم الى دولته دويلات المناطق العسكرية العشائرية مثل حلب ، وسنجار ، وميافارقين ، وحارم ، بعد ان احسنت دمشق استقباله .

وكان يتبع خطة ثابتة ومرنة في الوقت نفسه ، فهو مثلا يعمل علىّ توحيد المنطقة ولكنه لا يصرف كل طاقته في سبيل حلقة من حلقاتها ، فحينما حاول ضم الموصل واستعصت عليه أكثر من مرة ، وخشي أن يكون خلافه مع امرائها سببا لاستنجادهم بالعدو أو مصرفا لطاقة لا نهاية لها ، قبل منهم الصلح وحلف لهم على الشروط التي طلبوها ، فانقلبوا حلفاء له يرسلون كتائبهم للقتال الى جانبه في معاركه .

وقد برزت مزاياه الانسانية في معارك التوحيد ، فهو يؤثر الاتحاد السلمي على غيره ، حتى اذا شذ اقطاعي في احدى القلاع أو المدن حاربه ريثما يقنعه بأن لافائدة ترجى من المقاومة ، فاذا عاد الى الحق وتخلى عن عناده وجنح الى السلم رحب بعودته واحسن معاملته وجعله يشعر بأن السير مع الجماعة خير له من الانفراد والشذوذ .

وبعد أن وحد ما اعتبره حدا لطاقته التوحيدية ، ومنبعا لقدرة كافية ، اتجه الى محاربة الغزاة الفرنج الذين كانوا

يحتلون الساحل السوري وقسما لا بأس به من الداخل ، وبخاصة في المنطقة الفلسطينية والجبلية بشكل عام . وكان في حربه هذه مثالا للقائد المحنك الثاقب النظر الحسن التدبير، يبدأ بالنقاط الضعيفة فيكسبها ويثق جنده به وبأنفسهم ، ثم يصعّد كفاحه فيستعيد القلاع القوية والمدن العظيمة . ويهتم بالمعنويات اهتمامه بالغذاء والعتاد ، فكان كلما جاءه مدد استعرضه على مرأى من العدو ليخيفه ويضعف من معنوياته ويرفع بالمقابل من معنويات جنده واصحابه .

وقد أعطى للحرب حقها كما أعطى للمروءة كل حقوقها . فهو صاحب جهاز مخابرات فعال ينقل اليه اخبار العدو ويصل حتى الى نواياه ، وهو صاحب عصابات تتغلغل في معسكرات العدو فتزعجه بالقتل والاختطاف والاتلاف وغنم العتاد والادوات .

وكان لايجد فرصة يضعف بها العدو الا انتهزها ، فهو يستغل الخلافات بين حكام القسطنطينية وقادة الغزاة الافرنج، فيقيم العلاقات مع الاولين ليضعف ويخيف بها الآخرين ، واذا ما اطلع على خلاف بين قادة الافرنج انفسهم واستعان به احد الاطراف شجعه وأعانه لعلمه أن النتيجة لن تكون الا في صالحه سواء ظلوا على اختلافهم فاضعفوا جندهم أم انتصر الطرف الذي يدعمه فحقق اهدافه ، واذا فشل ذلك الحليف

فلن يخسر صلاح الدين كثيرا لانــه يكون قد ضرب أعداءه بأيديهم .

وكان يكره المعارك الجانبية ويركز الطاقة على الهدف الرئيس والاساسي ، وقد ساعدته طبيعته السمحة الحليمة فتلافت كثيرا من عوامل الخلاف بين قوم لا يخلون من خشونة ومن فردية تتجاوز الحد أحيانا .

ومن ابرز مواقفه الحكيمة النابعة من تكوينه موقفه من الخلافة العباسية في بغداد يومئذ ، فقد كانت ضعيفة منشغلة بصغائر الامور فهي تعاتبه مثلا لانه قد عزل فلانا أو فلانا من الامراء او اخذ من هذا الامير او ذاك اقطاعه ، فيجيب الديوان العزيز في بغداد بهدوء وكياسة من غير عنف أو انفعال وهو يعلم ان ذلك لا يصدر عنها لمصلحة عامة وانما لصلات خاصة تربطها بهذا او ذاك . كمـا احتمل تقصيرها أيضا : فكان يستقبل معوناتها التافهة بالشكر ويعتذر عما يربكها ويربكه أيضا . فقد ارسلت اليه مرة حملين من النفط مع نِفاطيهما واذنا بأن يستدين على اسمها من التجار مبلغ عشرين الف دينار ، فقبل النفط واعتذر بلباقة عن القرض . ومع هذا التقصير أو التدخل البعيد عن الشعور بالمسؤولية ظـل صلاح الدين متواضعا لها ليركز طاقته على الهدف الاساسي ويبقي العلم واحدا .

ولم يعرف اليأس سبيلا الى قلب صلاح الدين في احلك الظروف واصعبها ، حتى انه اذا ماخسر معركة عـاد الـى الحرب اقوى مما كان ، وقد يخسر منطقة واسعة ذات خطر وشأن ، ولكن خسارته هذه لاتثنيه عن الدفاع عن بقعـة صغيرة وقليلة الاهمية بالقياس الى ماضاع ، وبهذه الهمـة الصامدة كان يعوض خسارته ، وينتصب امام العدو كابوسا ثقيلا مع احترام له واعجاب بمناقبه .

وحين تقرر مبادىء العلم العسكري القيام باجراء قاس فانه لايتردد في القيام به وان عز عليه وجرح قلبه ، كما فعل لما اقتضت الظروف ان يهدم قلعة عسقلان فلم يتردد واقدم وهو يعلم قيمة مايهدم . ولكنه يعلم ايضا ان الغزاة الافرنج ربما عادوا الى التمركز فيها فالتخلص منها ضرورة لا بد منها .

بمثل هذه الاخلاق وهذا الاسلوب في التعامل استطاع صلاح الدين ان يفجر في نفوس اصحابه ينابيع الطيبةوالاقدام ومتابعة الاهداف السامية حتى يصل بهم الامر في كثير من الاحيان الى الاقدام على التضحية بالارواح والنفوس مطمئنة ويكفي استبسـال افراد حامية عكا في وجه حصار الفرنج المعزز برا وبحرا ، ويكفي انهم حتى آخر لحظة لم يكونوا يفوتون من ايديهم فرصة من الفرص لالحاق الضعف بالعدو وتكبيده المزيدمن الخسـائر وازهاق الارواح . ويصل الامر بحارة

احد مراكب المؤونة والذخيرة انهم حين شعروا بأن العدو قد احاط بهم ولا سبيل الى الخلاص اعملوا المعاول والفؤوس في سفينتهم مؤثرين الغرق والهلاك على ان يذهب ما فيها من متاع وعتاد الى أيدي العدو .

ويبدو أن المرحلة التاريخية وشخصية صلاح الدين قد انجبتا بعض المساعدين الاكفاء لهذا الرجل مثل اخيه الملك العادل الذي يبدو في الكتاب متفهما لخلجات نفسه متجاوبا معه حين يقاتل وحين يناور وحين يحاور ، ومثل ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر صاحب حماة الذي كان خير سند له في الملمات .

وهكذا 'قيض لهذه الامة بعد كوارثها على يد الغزاةالافرنج هذا الانسان العظيم الذي يحيط بالامور ويستوعبها بعقله وقلبه ويعالجها حتى تأخذ مجراها الصحيح المنتج عن طريق تفجير طاقة الشعب الطيبة .

* * *

وهذه نصوص مختارة من « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » تنهض ادلة وشواهد على ما أوجزناه من سيرة صلاح‌الدين في هذه المقدمةالمقتضبة. اعتمدنا في اختيارهاطبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م بتحقيق جمال الدين الشيال ، وافدنا من تعليقاته القيمة وشروحه التي اثبتها في هوامشه ،

واستأنسنا بالطبعة الاخرى التي سبقتها وطبعت سنة ١٣١٧ هـ في القاهرة ايضا في أشياء رأيناها تقيم بعض النصوص وزدنا على الطبعتين تعليقات وشروحا كان لابد منها اثبتناها في حواشي النصوص المختارة قد تفيد في توضيح بعض المغلقات وشرح بعض مصطلحات ابن شداد علها تنير ما يستغلق على القارىء من مضامين تلك النصوص.

وارى من الحق علي ان انوه بفضل الاستاذ سهيل عثمان في اسدائه الي يدأ كريمة بَصَّرتني سبل التهدي الى اخراج هذا العمل واعانتني عليه ، وأرجو ان اكون قد وفقت الى ذلك .

محمد درويش

النصوص المختارة

سيرة صلاح الدين الايوبي

— ١ —

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي منّ علينا بالاسلام ، وهدانا للايمان ، الجاري على أحسن نظام ، وأنعم علينا بشفاعة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام . وجعل سير الاولين عبرة لأولي الأفهام . وتقلبات الاحوال قاضية على كل أمر حادث بالانصرام . كيلا يغتر ذو حال حسن . ولا ييأس من لعبت بأحواله أكف السقام .

وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له . شهادة تشفي القلوب من لظى الأوام .

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله . الذي فتح للهداية أبوابا يلج فيها المستفتحون لها بمفاتيح الانقياد والاستسلام ، صلى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة باقية ببقاء الأيام .

وبعـــد :

فاني لما رأيت أيام مولانا السلطان ، الملك الناصر جامع كلمة الايمان . قامع عبدة الصلبان ، رافع علم العـدل والاحسان . صلاح الدنيا والـدين . سلطان الاسـلام والمسلمين . منقذ بيت المقدس من أيدي المشركين . خادم الحرمين الشريفين . أبي المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي ـ سقى الله ضريحه صوب الرضوان . وأذاقه في مقـر رحمته حلاوة نتيجة الايمان ـ . قد صدقت من أخبار الاولين ما كذبه الاستبعاد ، وشهدت بالصحة لما روى من نوادر الكرام الاجواد . وحققت وقعات شجعان مالكها ما قدحت فيه الشكوك من أخبار الشجعان . وأرت العيان من الصبر على المكاره في ذات الله ما قوى بهـا الايمان . وعظمت عجائبها عن أن يحويها خاطر أو يجنها جنان . وجلّت نوادرها عن أن تحد ببيان لسان . أو أن تسطر في طرس بنـان .

وكانت ـ مع ذلك ـ من قبيل مالا يمكن الخبير بها اخفاؤها . وما لا يسع المطّلع عليها الا أن تروى عنـه أخبارها وأنباؤها . ومسّني من رق نعمتها ، وحق صحبتها

وواجب خدمتها ، ما تعين علي به ابداء ما تحققته من حسناتها ، ورواية ما علمته من محاسن صفاتها :

رأيت أن أختصر من ذلك على ما أملاه علي العيان ، أو الخبر الذي يقارب مظنونه درجة الايقان ، وذلك جزء من كل ، وقل من جل ، ليستدل بالقليل على الكثير ، وبالشعاع على المستطيل بعد المستطير .

وأسميتُ هذا المختصر من تاريخها :

« النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية »

وجعلته قسمين :

أحدهما : في مولده ــ رحمه الله ــ ومنشئه ، وخصائصه ، وأوصافه ، وأخلاقه المرضية ، وشمائله الراجحة في نظر الشرع الوفية .

والقسم الثاني : في تقلبات الاحوال به ، ووقائعه وفتوحه ، وتواريخ ذلك الى آخر حياته ، قدّس الله روحه .

والله المستعان في الصيانة عن هفوات اللسان والقلم ، وجريان الخاطر بما فيه مزلة القدم ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

القسم الأول

في ذكر

مولده وخصائصه وأوصافه وشمائله وخلاله

رحمة الله عليه

ذكر مولده

رحمة الله عليه

كان مولده ــ رحمه الله ــ على ما بلغنا على ألسنة ثقات تتبعوه حتى بنوا عليه تسيير مولده على ما تقتضيه صناعة التنجيم ــ في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ؛ وذلك بقلعة تكريت .

وكان والده أيوب بن شاذي ــ رحمه الله تعالى ــ والياً بها ؛ كريما أريحيا حليما حسن الاخلاق ؛ مولده بدوين[1] ، ثم اتفق له الانتقال من تكريت الى محروسة الموصل ، وانتقل ولده المذكور معه ، وأقام بها الى أن ترعرع ، وكان والده محترما مقدما هو وأخوه أسد الدين شيركوه عند أتابك زنكي .

واتفق لوالده الانتقال الى الشام ــ حرسه الله تعالى ــ

---

(1) بلدة في اذربيجان .

وأعطي بعلبك ، وأقام بها مدة ، ونقل ولده المذكــور ــ رحمهما الله تعالى ــ الى بعلبك المحروسة ، وأقــام بها في خدمة والده يتربى تحت حجره ، ويرتضع ثــدي محاسن أخلاقه ، حتى بدت منه أمارات السعادة ، ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة ، فقدمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي ــ رحمه الله تعالى ــ وعوّل عليه ، ونظر اليه ، وقربه وخصصه ، ولم يزل كلما تقدم قدما تبدو منه أسباب تقتضي تقديمه الى ما هو أعلى ، حتى اتفق لعمه أسد الدين ــ رحمه الله ــ الحركة الى محروسة مصر والنهوض اليها .

وسيأتي ذكر ذلك مفصلا مبينا في موضعه ان شاء الله تعالى .



ذكر عدله

رحمة الله عليه

روى أبو بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال :

« الوالي العادل ظلّ الله في أرضه ورمحه ، فمن نصحه في نفسه أو في عباد الله أظله الله تحت عرشه يوم

لا ظل الا ظله ، ومن خانه في نفسه أو في عباد الله خذله الله يوم القيامة ، يرفع للوالي العادل في كل يوم عمل ستين صدّيقا كلهم عابد مجتهد لنفسه » •

ولقد كان ــ رحمه الله ــ عادلا ، رؤوفا ، رحيما ، ناصرا للضعيف على القوي •

وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام ، يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل اليه كل أحد ، من كبير وصغير ، وعجوز هرمة ، وشيخ كبير ، وكان يفعل ذلك سفرا وحضرا •

على أنه كان في جميع أزمانه قابلا لما يعرض عليه من القصص[1] ، كاشفا لما ينتهي اليه من المظالم ، وكان يجمع القصص في كل يوم ، ويفتح باب العدل ، ولم يرد قاصدا للحوادث والحكومات ، ثم يجلس مع الكاتب ساعة ، اما في الليل أو النهار ، ويوقع على كل قصة بما يطلق الله على قلبه ، ولم يرد قاصدا أبدا ولا منتحلا ولا طالب حاجة ، وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة ، رحمة الله عليه •

---

(١) جمع قصة . وهي ورقة يكتب فيها الشاكي شكواه ، وتشبه ما يسمى اليوم بالعريضة .

ولقد كان رؤوفا بالرعية ، ناصرا للدين ، مواظبا على تلاوة القرآن العزيز ، عالما بما فيه ، عاملا به ، لا يعـدوه أبدا ، رحمة الله عليه .

وما استغاث إليه أحد" إلا وقف وسمع قضيته ، وكشف ظلامته ، وأخذ قصته ، ولقد رأيته وقد استغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له : ابن زهير على تقي الدين ــ ابن أخيه ــ ، فأنفذ إليه ليحضره إلى مجلس الحكم ، فما خلّصه إلا أن أشهد عليه شاهدين معروفين مقبولي القول أنه وكّل القاضي أبا القاسم أمين الدين ــ قاضي حماة ــ في المخاصمة والمنازعة ، فحضر الشاهدان ، وأقاما الشهادة عندي في مجلسه ــ رضي الله عنه ــ بعد دعوى الوكيل الوكالة الصحيحة ، وإنكار الخصم ، فلما ثبتت الوكالة أمرت أبا القاسم بمساواة الخصم ، فساواه ــ وكان من خواص السلطان ــ رحمه الله ــ ، ثم جرت المحاكمة بينهما، واتجهت اليمين على تقي الدين ، وانقضى المجلس على ذلك، وقطعنا عن إحضاره دخول الليل ، وكان تقي الدين من أعز الناس عليه ، وأعظمهم عنده ، ولكنه لم يُحَابه في الحق .

وأعظم من هذه الحكاية مما يدل على عدله ـ رحمه الله ـ قضية جرت له مع إنسان تاجر يُدعى عمر الخلاطي ، وذلك أني كنتُ يوماً في مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل عليّ شيخٌ حسن تاجرٌ معروف . يسمى « عمر الخلاطي » . معه كتاب حكمي سأل فَتْحه . فسألتهُ :

ـ « مَنْ خصمُك ؟ » .

فقال :

ـ « خصمي السلطان ، وهذا بساطُ الشرع ، وقد سمعنا أنك لا تحابي » .

فقلتُ :

ـ « وفي أي قضية هو خصمُك ؟ » .

فقال :

ـ « إن سُنْقُر الخلاطي كان مملوكي ، ولم يزل على ملكي إلى أن مات ، وكان في يده أموالٌ عظيمة كلها لي . ومات عنها ، واستولى عليها السلطان ، وأنا مطالبُه بها » .

فقلتُ له :

ـ « يا شيخ، وما أقعدك إلى هذه الغاية ؟ » .

فقال :

ــ « الحقوق لا تبطل بالتأخير . وهذا الكتاب الحكمي ينطق بأنه لم يزل في ملكي إلى أن مات » .

فأخذتُ الكتاب منه . وتصفحت مضمونه . فوجدته يتضمن حِلْيَةَ سُنْقُر الخلاطي ، وأنه قد اشتراه من فلان التاجر بأرجيش ، في اليوم الفلاني ، من شهر كذا ، من سنة كذا ، وأنه لم يزل في ملكه إلى أن شذَّ عن يده في سنة كذا . وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجهٍ ما ، وتمم الشرط إلى آخره .

فتعجبتُ من هذه القضية ، وقلتُ للرجل :

« لا يسعني سماع الدعوى مع وجود الخصم وأنا أعرِّفه وأعرِّفك ما عنده في ذلك » .

فرضي الرجلُ بذلك . واندفع . فلما اتفق المثول بين يديه في بقية ذلك اليوم عرَّفْته القضية . فاستبعد ذلك استبعادا عظيما ، وقال :

ــ « كنتَ نظرتَ في الكتاب ؟ » .

فقلتُ :

ــ « نظرت فيه ، ورأيته متصل الورود والقبول إلى

دمشق . وقد كُتب عليه : كتاب" حكمي من دمشق . وشهد به على يد قاضي دمشق شهود" معروفون » .

فقال :

ــ « مبارك . نحضر الرجل ونحاكمه . ونعمل في القضية ما يقتضيه الشرع » .

ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معي خلوة . فقلتُ له :

ــ « وهذا الخصم يتردد . ولابد وأن نسمع دعواه ».

فقال :

ــ « أقم عني وكيلا يسمع الدعوى . ثم يقيم الشهودُ شهادتهم . وأخِّر فتح الكتاب إلى حين حضور الرجل ها هنا » .

ففعلتُ ذلك . ثم أحضر الرجل عنده . واستدناه حتى جلس بين يدي . وكنتُ إلى جانبه . ثم انعزل من طُراحته حتى ساواه وقال :

ــ « إن كان لك دعوى فاذكرها » .

فحرّر الرجل الدعوى على معنى ما شرح أولاً . فأجابه السلطان :

ــ « إن سُنْقُر هذا كان مسلوكي . ولم يزل ملكي حتى أعتقته . وتوفي وخلّف ما خلفه لورثته » .

فقال الرجل :

ــ « لي بَيِّنة » بما ادّعيتُه » .

ثم سأل فتح كتابه ، ففتحتُه ، فوجدته كما شرحته ، فلما سمع السلطان التاريخ ، قال :

ــ « عندي من يشهد أن هذا سُنْقُر في هذا التاريخ كان في ملكي وفي يدي بمصر ، وأني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة ، وأنه لم يزل في يدي وملكي إلى أن أعتقته » .

ثم استحضر جماعة من أعيان الأمراء المجاهدين،فشهدوا بذلك ، وحكموا القضية كما ذكرها ، وذكروا التاريخ كما ادعاه ، فأبلس الرجل ، فقلتُ له :

ــ « يا مولاي ، هــذا الرجل ما فعل ذلــك إلا طلباً لمراحم السلطان ، وقد حضر بين يدي مولانا ، وما يحسن أن يرجع خائب القصد » ، فقال :

ــ « هذا باب آخر » .

وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة ، قد شذّ عني مقدارها .

فانظر إلى مافي طيّ هــذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة ، مــن التواضع ، والانقياد إلى الحق ، وإرغام النفس ، والكرم في موضع المؤاخذة ، مع القدرة التامة ، رحمه الله رحمة واسعة .



ذكر طرف من كرمه
رحمه الله

قال — صلى الله عليه وسلم — :

« إذا عثر الكريم فإنّ الله آخذٌ بيده » .

وفي الكرم أحاديث .

وكرمه — قدّس الله روحه — كان أظهر من أن يسطّر، وأشهر من أن يذكر ، لكن نُنبّه عليه جملةً ، وذلك أنه ملك ما ملك ومات ، ولم يوجد في خزانته من الفضة إلا سبعة وأربعون درهما ناصرية ، ومن الذهب إلا جرم واحدٌ صوري ، ما علمتُ وزنه .

وكان — رحمه الله — يهب الأقاليم . وفتح آمد ، وطلبها منه ابن قره أرسلان ، فأعطاه إياه .

ورأيته قد اجتمع عنده جمعٌ من الوفود بالقدس الشريف ، وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق ، ولم يكن في الخزانة ما يعطي الوفود ، فلم أزل أخاطبه في معناهم حتى باع قرية من بيت المال ، وفضضنا ثمنها عليهم ، ولم يفضل منه درهم واحد .

وكان ــ رحمه الله ــ يعطي في وقت الضائقة كما يعطي في حال السعة ، وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال ، حذراً أن يفاجئهم مُهِمٌّ ، لعلمهم أنه متى علم به أخرجه .

وسمعته يوماً يقول في معرض حديث جرى :

ــ « يمكن أن يكون في الناس مَنْ ينظر إلى المال كمن ينظر إلى التراب » .

فكأنه أراد بذلك نفسَه ، رحمه الله تعالى .

وكان يعطي فوق ما يؤمِّل الطالبُ ، وما سمعته قط يقول : « أعطينا لفلان » وكان يعطي الكثير ، ويبسط وجهه للمعْطى بسط من لم يُعْطِه شيئاً .

وكان ــ رحمه الله ــ يعطي ، ويكرم أكثر مما يعطى ، وكان قد عرفه الناس ، فكانوا يستزيدونه في كل وقت ، وما سمعته قط يقول : « قد زدتُ مراراً ، فكم أزيد ؟ » .

وأكثر الرسائل كانت تكون في ذلك على لساني ويدي، وكنت أخجل من كثرة ما يطلبون ، ولا أخجل منه من كثير ما أطلبه لهم ، لعلمي بعدم مؤاخذته في ذلك ، وما خدمه قطُّ أحد إلا وأغناه عن سؤال غيره .

وأما تعداد عطاياه وتعداد صنوفها فلا تطمع فيه أصلاً حقيقة ، ولقد سمعتُ من صاحب ديوانه يقول لي وقد تجارينا عطاياه .

« حصرنا عدد ما وهب من الخيل بمرج عكا لاغير فكان عشرة آلاف فرس » .

ومن شاهد عطاياه يستقل هذا القدر .



ذكر شجاعته

قدَّس الله روحه

روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال :

« إنَّ الله يُحبُّ الشَّجاعة ولوْ على قَتْلِ حيَّة » .

ولقد كان ـ رحمه الله تعالى ـ من عظماء الشجعان ، قويَّ النفس ، شديد البأس ، عظيم الثبات ، لا يهوله أمر ، ولقد رأيته ـ رحمه الله ـ مرابطاً في مقابلة عدة عظيمة من الفرنج ، ونَجَدُهم تتواصل ، وعساكرهم تتواتر ، وهو لا يزداد إلا قوة نفس وصبر ، ولقد وصل في ليلةٍ واحدةٍ منهم نيّف وسبعون مركباً على عكا ، وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس ، وهو لا يزداد إلا قوة

نفس ، ولقد كان ــ حمه الله ــ يعطي دستوراً[1] في أوائل الشتاء ، ويبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة .

....

وكان لابد له من أن يطوف حول العدو في كل يوم مرةً أو مرتين إذا كنا قريباً منهم .

وكان ــ رحمه الله تعالى ــ إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد وعلى يده جنيب[2] ، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ، ويرتب الأطلاب ، ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها ، وكان يشارف العدو ويجاوره ، رحمه الله .

ولقد قرىء عليه جزء من الحديث بين الصفين ، وذلك أني قلت له :

ــ « قد سُمع الحديث في جميع المواطن الشريفة ، ولم يُنْقل أنه سُمع بين الصفين ، فإن رأى المولى أن يُؤثَر عنه ذلك كانَ حسناً » .

فأذن في ذلك ، فأحضر جزء ، وهناك أحضر مَنْ له به

---

(١) الدستور : الإذن . والكلمة فارسية .

(٢) الجنيب : هو الفرس الذي يقاد خلف السلطان وليس عليه راكب .

سماع،فقرِيء عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين، نمشي تارة ، ونقف أخرى .

وما رأيته استكثر العدو أصلاً ، ولا استعظم أمرهم قط ، وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير ، يذكر بين يديه الأقسام كلها ، ويرتب على كل قسم مقتضاه من غير حدة ، ولا غضب يعتريه . رحمه الله .

ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ، ووقع الكوس[1] والعلم ، وهو ــ رضي الله عنه ــ ثابت القدم في نفر يسير ، قد انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردهم ، ويخجلهم حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى نصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم، وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس ، ولم يزل ــ رحمه الله ــ مصابراً لهم ، وهم في العدة الوافرة إلى أن ظهر له ضعف المسلمين ، فصالح وهو مسؤول من جانبهم ، فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ، ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة ، ونحن لا نتوقعها ، وكانت المصلحة في الصلح ، وظهر ذلك لما أبدت الأقضية والأقدار ما كان في مكنونها .

---

(١) الكؤس او الكوسات : صنوج كالترس من النحاس يدق عليه بايقاع موسيقي .

وكان ــ رحمه الله ــ يمرض ويصح ، وتعتريه أحوال مهولة وهو مصابر مرابط ، وتتراءى الناران ، ونسمع منهم صوت الناقوس ، ويسمعون منا صوت الأذان ، إلى أن انقضت الوقعة على أحسن حال وأيسره ، قدّس الله روحه ، ونوّر ضريحه •



ذكر
اهتمامه بامر الجهاد

قال الله سبحانه وتعالى :

« والذين جاهدوا فينا لنَهدينَّهُم سُبُلنا ، وان الله لمع المحسنين » •

ونصوص الجهاد فيها كثرة •

ولقد كان رحمه الله شديد المواظبة عليه ، عظيم الاهتمام به ، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه الى الجهاد دينارا ولا درهما الا في الجهاد أو في الارفاد ، لصدق وبر في يمينه •

ولقد كان الجهاد وحبه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما ، بحيث ما كان له

حديث الا فيه ، ولا نظر الا في آلته ، ولا اهتمام الا برجاله، ولا ميل الا الى من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة ، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحة على مرج عكا ، فلو لم يكن في البرج والا لقتلته[1] ، ولا يزيده ذلك الا رغبة ومصابرة واهتماما .

وكان الرجل اذا أراد أن يتقرب اليه يحثه على الجهاد أو يذكر شيئا من أخبار الجهاد ، ولقد ألف له كتب عدة في الجهاد ، وأنا ممن جمع له فيه كتابا ، جمعت فيه آدابه ، وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روي فيه ، وشرحت غريبها ، وكان ـ رحمه الله ـ كثيرا ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الافضل .

ولأحكين عنه ما سمعته منه :

وذلك أنه كان قد أخذ كوكب في ذي القعدة سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، وأعطى العساكر دستورا ، وأخذ

(1) في الأصل قتلته ، وقد اعتمدنا نسخة القاهرة .

عسكر مصر في العود الى مصر ، وكان مقدمه أخاه الملك العادل ــ رحمه الله ــ فسار معه ليودعه ويحظى بصلاة العيد في القدس الشريف ــ حرسه الله تعالى ــ وسرنا في خدمته ؛ ولما صلى العيد في القدس وقع له أن يمضي[1] الى عسقلان ، ويودعهم بعسقلان ، ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية الى عكا ، ويرتب أحوالها ، فأشاروا عليه أن لا يفعل ، فان العساكر اذا فارقتنا نبقى في عدة يسيرة ، والفرنج كلهم بصور وهذه مخاطرة عظيمة ، فلم يلتفت ــ رحمه الله ــ وودع أخاه والعسكر بعسقلان .

ثم سرنا في خدمته على الساحل طالبين عكا،وكان الزمان شتاء عظيما والبحر هائجا هيجانا شديدا ، وموجه كالجبال كما قال الله تعالى،وكنت حديث عهد برؤية البحر.فعظم أمر البحر عندي حتى خيل الي أنني لو قال لي قادر ان جزت في البحر ميلا واحدا ملكتك الدنيا ، لما كنت أفعل ، واستسخفت رأي من ركب البحر رجاء لكسب دينار أو درهم ، واستحسنت رأي من لا يقبل شهادة راكب بحر .

(1) في الاصل « انه مضى معهم إلى » ، وقد اعتمدنا نسخة القاهرة .

هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموجه ، فبينا أنا في ذلك اذ التفت الي رحمه الله وقال :

ـ « أما أحكي لك شيئا ؟ قلت : بلى ، قال : في نفسي، أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد ، وأوصيت وودعت ، وركبت هذا البحـر الى جزائرهم ، أتتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الارض من يكفر بالله أو أموت » .

فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان يخطر لي ، وقلت له :

ـ « ليس في الارض أشجع نفسا من المولى ، ولا أقوى نية منه في نصرة دين الله » .

فقال : وكيف ؟

فقلت : أما الشجاعة فلأن مولانا ما يهوله أمر هـذا البحر وهوله ، وأما نصرة دين الله فهو أن المولى ما يقنع بقلع أعداء الله من موضع مخصوص في الارض حتى تطهر جميع الارض منهم .

واستأذنت في أن أحكي له ما كان يخطر لي ، فأذن ،

فحكيت له ثم قلت : ما هذه الا نية جميلة ، ولكن المولى يسير في البحر العساكر ، وهو سور الاسلام ومنعته ، لا ينبغي له أن يخاطر بنفسه .

فقال : أنا أستفتيك : ما أشرف الميتات ؟

فقلت : الموت في سبيل الله .

فقال : غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات .

فانظر الى هذه الطوية ما أطهرها ، والى هذه النفس ما أشجعها وأجسرها ، رحمة الله عليه .

★ ★ ★

ذكر

طرف من صبره واحتسابه

رحمة الله عليه

قال الله سبحانه وتعالى :

«ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم».

ولقد رأيته ــ رحمه الله ــ بمرج عكا ، وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل ، كانت ظهرت عليه من وسطه الى ركبتيه ، بحيث لا يستطيع الجلوس ، وانما يكون متكئا على جانبه اذا كان في الخيمة ، وامتنع من مد

الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس ، وكان يأمر أن يفرق على الناس ، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريبا من العدو ، وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلبا تعبية القتال، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار الى صلاة الظهر يطوفه على الاطلاب[1] ، ومن العصر الى صلاة المغرب وهو صابر على شدة الالم وقوة ضربان الدمامل ، وأنا أتعجب من ذلك ، فيقول : اذا ركبت يزول عني ألمها حتى أنزل ، وهذه عناية ربانية .

ولقد مرض — رحمه الله — ونحن على الخروبة ، وكان قد تأخر عن تل الحجل بسبب مرضه ، فبلغ الفرنج ذلك ، فخرجوا طمعا في أن ينالوا من المسلمين شيئا — بسبب مرضه — رحمه الله — ، وهي نوبة النهر ، فخرجوا في مرحلة الى الآبار التي تحت التل ، فأمر هو — رحمه الله — بالثقل[2] حتى تجهز للرحيل ، والتأخر الى جهة الناصرة ؛ وكان عماد الدين — صاحب سنجار — متمرضا أيضا ،

(١) الطلاب جمع طلب وهو في الاصل لفظ كردي يعني امير المائتين أو المائة ثم اطلق على الكتيبة نفسها .

(٢) الثقل : حوائج الجيش من متاع ومؤنة .

فأذن له حتى يتأخر مع الثقل ، وأقام هو ، ثم رحل العدو في اليوم الثاني يطلبنا ، فركب على مضض ، ورتب العسكر للقاء القوم تعبية الحرب ، وجعل طرف الميمنة الملك العادل، وطرف الميسرة تقي الدين ، وجعل ولده الملك الظاهر في القلب والملك الافضل ، ونزل هو وراء القوم بطلبه ، وأول ما نزل من التل أحضر بين يديه افرنجي قد أسر من القوم ، فأمر بضرب عنقه فضرب عنقه بين يديه ، بعد عرض الاسلام عليه واباته عنه ، وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو يستدير الى ورائهم ، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم ، وهو يسير ساعة ثم ينزل يستريح ، ويتظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس عليه ، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفا .

ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ، ونزل هو قبالتهم على تل مطل عليهم الى أن دخل الليل ، ثم أمر العساكر المنصورة أن عادت الى مجال المصابرة ، وأن يبيتوا تحت السلاح ، وتأخر هو ، ونحن فيخدمته ، الى قمة الجبل، فضربت له خيمة لطيفة ، وبت تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشاغله ، وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى ، حتى

لاح الصباح ، ثم ضرب البوق ، وركب هو ، وركبت العساكر ، وأحدقت بالعدو ، ورحل العدو عائدا الى خيامهم من الجانب الغربي من النهر ، وضايقه المسلمون في ذلك اليوم مضايقة شنيعة .

وفي ذلك اليوم قدم أولاده بين يديه احتسابا الملك الظاهر والملك الافضل والملك الظافر ، وجميع من حضر منهم ، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده الا أنا والطبيب ، وعارض الجيش ، والغلمان بأيديهم الاعلام والبيارق لا غير ، فيظن الرائي لها عن بعد أن تحتها خلقا عظيما ، وليس تحتها الا واحد يعد بخلق عظيم ، ولم يزل العدو سائرا والقتل يعمل فيهم ، وكلما قتل منهم شخص دفنوه ، وكلما جرح منهم رجل حملوه ، حتى لا يبقى بعدهم من يعلم قتله وجرحه ، وهم سائرون ونحن نشاهدهم ، حتى اشتد بهم الامر ، ونزلوا عند الجسر ، وكان الافرنج متى ما نزلوا الى الارض أيس المسلمون من بلوغ غرض منهم ، لأنهم يحتمون في حالة النزول حماية عظيمة .

وبقي — رحمه الله — في موضعه ، والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو الى آخر النهار ، ثم أمرهم أن يبيتوا

على مثل ما باتوا عليه بارحتهم ، وعدنا إلى منزلنا في الليلة الماضية ، فبتنا على مابتنا عليه إلى الصباح من مضايقة العدو، ورحل العدو ، وسار على مضض من القتل والقتال ، حتى دنا إلى خيامه ، وخرج إليه منها مَن أنجده حتى وصلوا إلى خيامهم .....

ولقد رأيته ــ رحمه الله تعالى ــ وقد جاءه خبر وفاة ولدٍ له بالغ أومراهق يسمى إسماعيل ، فوقف على الكتاب ولم يعرّف أحداً ، ولم نعرف حتى سمعناه من غيره ، ولم يظهر عليه شيءٌ من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعتْ عينُه .

ولقد رأيته ليلةً على صَفَد وهو يحاصرها ، وقد قال : « لا ننام الليلة حتى تُنصب لنا خمسة مناجيق » ، ورتّب لكل منجنيق قوماً يتولون نصبه ، وكنا طول الليل في خدمته ــ قدّس الله روحه ــ في ألذ فكاهة وأرغد عيشة، والرسل تتواصل فتخبره بأن قد نُصب من المنجنيق الفلاني كذا ، ومن المنجنيق الفلاني كذا حتى أتى الصباح وقد فُرغ منها ، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها عليها ، وكانت من أطول الليالي وأشدّها برداً ومطراً .

ولقد رأيته وقد وصل إليه خبر وفاة تقي الدين عمر ــ ابن أخيه ــ ونحن في مقابلة الافرنج جريدة على الرملة ، وفي كل ليلة تقع الصيحة فتقلع الخيام والناس تقف على ظهر إلى الصباح ونحن بالرملة والعدو بيازور ، بيننا وبينها شوْطُ فَرَس لا غير ، فأحضر الملكَ العادلَ ، وعَلَمَ الدين سليمان بن جندر وسابق الدين بن الداية ، وعزَّ الدين بن المقدم ؛ وأمر بالناس فطُرِدوا من قريب من الخيمة،بحيث لم يبقَ حولها أحدٌ زيادةً عن غلْوةِ سَهْمٍ، ثم أظهر الكتاب ، ووقف عليه ، وبكى بكاءً شديداً حتى أبكانا ، من غير أن نعلم السبب ، ثم قال ــ رحمه الله ــ والعَبْرَةُ تخنقه : توفي تقي الدين .

فاشتد بكاؤه وبكاء الجماعة ، ثم عدتُ إلى نفسي فقلتُ : استغفروا الله تعالى من هذه الحالة ، وانظروا أين أنتم ، وفيمَ أنتم ، وأعرضوا عما سواه .

فقال ــ رحمه الله ــ : نعم، استغفر الله، وأخذ يكررها، ثم قال : لا يعلم بهذا أحد .

واستدعى بشيء من الماورد فغسل عينيه ، ثم استحضر

الطعام ، وحضر الناس ، ولم يعلم بذلك أحد حتى عاد العدو إلى يافا ، وعدنا نحن إلى النطرون ، وهو مقر ثقلنا .

وكان ــ رحمه الله ــ شديد الشوق والشغف بأولاده الصغار ، وهو صابرٌ على مفارقتهم ، راضٍ ببعدهم عنه ، وكان صابراً على مُرِّ العيش وخشونته ، مع القدرة التامة على غير ذلك ، احتساباً لله تعالى .



ذكر نبذٍ من حلمه وعفوه

رحمه الله

قال الله سبحانه وتعالى :

«والعافينَ عنِ النّاسِ ،واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ» .

ولقد كانَ حليما متجاوزاً قليل الغضب . .

ولقد كنتُ في خدمته بمرج عيون قبل خروج الافرنج إلى عكا ــ يسَّر اللهُ فتحها ــ . وكان من عادته أنه يركب في وقت الركوب . ثم ينزل ، فيمد الطعام ، ويأكل مع الناس ثم ينهض إلى خيمة خاصة له ينام فيها ، ثم يستيقظ من منامه . ويصلي . ويجلس خلوة وأنا في خدمته . نقرأ

شيئاً من الحديث أو شيئاً من الفقه ، ولقد قرأ عليَّ كتاباً مختصراً لسليم الرازي يشتمل على الأرباع الأربعة في الفقه.

فنزل يوماً على عادته ، ومُدَّ الطعام بين يديه ، ثم عزم على النهوض ، فقيل له : إن وقت الصلاة قد قرب ، فعاد إلى الجلوس . وقال : نصلي وننام . ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أخلى المكان إلا ممن لزم ، فتقدم إليه مملوك كبير محترم عنـده ، وعرض عليه قصـةً لبعض المجاهدين ، فقال له : أنا الآن ضجران ، أخِّرها ساعة .

فلم يفعل ، وقدَّم القصة إلى قريب من وجهه الكريم بيده ، وفتحها بحيث يقرأها ، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه ، فقال : رجل مستحق . فقال : يوقع له المولى ها هي . فقال : ليست الدواة حاضرة الآن .

وكان ـ رحمه الله ـ جالساً في باب الخركاة[1] بحيث لا يستطيع أحد الدخول إليها، والدواة في صدرها، والخركاة كبيرة ، فقال له المخاطب . هذه الدواة في صدر الخركاة .

---

(1) الخركاة : جمع خركاوات كلمة فارسية تدل على خيمة من الخشب واللبد .

وليس لهذا معنى إلا أمره إياه بإحضار الدواة لا غير ؛ فالتفت ــ رحمه الله ــ فرأى الدواة، فقال: والله لقد صدق.

ثم امتد على يده اليسرى ، ومدَّ يده اليمنى فأحضرها ، ووقَّع له ، فقلتُ : « قال الله تعالى في نبيه ــ صلى الله عليه وسلم » ــ : « وإنَكَ لعلَى خُلقٍ عَظيم » ، وما أرى المولى إلاَّ قد شاركه في هذا الخلق ، فقال : ما ضرَّنا شيء ، قضينا حاجته ، وحصل الثواب .

ولقد كانت طراحتُه تُداس عند التزاحم عليه لعرض القصص وهو لا يتأثر لذلك .

ولقد نفرتْ يوماً بغلتي من الجمال وأنا راكب في خدمته، فزحمت وركه حتى آلمته وهو يبتسم ــ رحمه الله ــ .

ولقد دخلتُ بين يديه في يوم ريح مطير إلى القدس الشريف وهو كثير الوحل ، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أهلكت جميع ما كان عليه وهو يبتسم ، وأردت التأخر عنه بسبب ذلك ، فما تركني .

ولقد كان يسمع من المستغيثين إليه والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ، ويلقى ذلك بالبشر والقبول ....

★ ★ ★

ذكر محافظته على اسباب المروءة

قدس الله روحه

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارِمَ الأخْلاق .

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا صافحه الرجل لا يترك يده حتى يكون الرجل هو التارك الذي يبدأ بذلك.

ولقد كان السلطان كثير المروءة ، نديُّ الوجه ، كثير الحياء ، مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف ، لا يرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده ، ولا يخاطبه في شيء إلا وينجزه ....

ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صيدا بالناصرة ، فاحترمه وأكرمه ، وأكل معه الطعام ، ومع ذلك عرض عليه الإسلام ، فذكر له طرفاً من محاسنه ، وحثّه عليه .

وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار ، وكان يوصينا بأن لا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده ، وينالهم من إحسانه .

ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير أفرنجي وقد هابه ، بحيث ظهرت عليه أمارات الخوف والجزع ، فقال له الترجمان : من أي شيء تخاف ؟ فأجرى الله على لسانه أن قال : كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه ، فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه، أيقنت أني ما أرى الا الخير. فرق له ، ومن عليه ، وأطلقه .

ولقد كنت راكباً في خدمته في بعض الأيام قبالة الافرنج وقد وصل بعض اليزكية[1] ، ومعه امرأة شديدة التحرق، كثيرة البكاء ، متواترة الدق على صدرها ، فقال اليزكي : إن هذه خرجت من عند الفرنج ، وسألت الحضور بين يديك، وقد أتينا بها . فأمر الترجمان أن يسألها عن قضيتها ، فقالت: إن اللصوص[2] المسلمين دخلوا البارحة إلى خيمتي،وسرقوا ابنتي ، وبت البارحة أستغيث إلى بكرة النهار ، فقيل لي : الملك هو رحيم،ونحن نخرجك إليه تطلبين ابنتك،فأخرجوني، وما أعرف ابنتي إلا منك .

---

(١) اليزك : لفظ فارسي معناه : طلائع الجيش .

(٢) اللصوص في لغة ابن شداد كثيرا ما تدل على أفراد حرب العصابات التي تشن بين صفوف جيش العدو أو خلفه .

فرقٌ لها ، ودمعت عينه ، وحركته مروءته ، وأمر مَنْ ذهب إلى سوق العسكر،يسأل عن الصغيرة : مَنْ اشتراها، ويدفع له ثمنها ، ويحضرها وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه ، فما مضتْ ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه ، فما كان إلا أن وقع نظرها عليها ، فخرّت إلى الأرض تعفّر وجهها في التراب ، والناس يبكون على ما نالها ، وترفع طرفها إلى السماء ، ولا نعلم ما تقول ، فسُلّمت ابنتُها إليها ، وحُملت حتى أعيدت إلى عسكرهم .

وكان ـ رحمه الله ـ لا يرى الإساءة إلى من صحبه وإن أفرط في الخيانة ، ولقد قلّب في خزانته كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس ، فما عمل بالنواب شيئاً سوى أن صرفهم من عملهم ، لا غير .

ولقد دخل عليه البرنس أرناط[1] ـ صاحب الكرك ـ مع ملك الافرنج بالساحل لما أسرهما في وقعة حطين في شهور

(١) هكذا ترسمه المراجع العربية ، وهو
Leprince Arnould de carac

وكان اسمه قبل مجيئه الى الشام : . Renaid de chatillon

سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، والواقعة مشهورة تجيء مشروحة في موضعها ــ إن شاء الله تعالى ــ وكان قد أمر بإحضارهما ، وكان هــذا أرناط اللعين كافراً لعيناً جباراً شديداً ، وكان قد اجتازت به قافلة من مصر ــ حرسها الله تعالى ــ حين كان بــين المسلمين وبينهم هدنة ــ فغدرها وأخذهــا ، ونكّل بهم ، وعذّبهم ، وأسكنهم المطامــير والحبوس الحرجة وأذكروه حديث الهدنة ، فقال : قولوا لمحمدكم يخلصكم .

فلما بلغه ــ رحمه الله ــ ذلك عنه ، نذر أنه متى أظفره الله به قتله بنفسه ؛ فلما مكن الله منه في ذلك اليوم ، قوّي عزمه على قتله وفاءً بنذره فأحضره مــع الملك ، فشكا الملك العطش ، فأحضر له قدحاً من شراب ، فشرب منه ، ثم ناوله أرناط ، فقال السلطان للترجمان :

قل للملك : أنت الذي سقيته ، وأما أنا فما أسقيه من شرابي ولا أطعمه من طعامي .

فقصد ــ رحمه الله ــ أن من أكل من طعامي فالمروءة تقتضي أن لا أوذيه .

ثم ضرب عنقه بيده وفاءً بنذره . وأخـذ عكـا ، وأخرج الأسرى كلهم من ضيق الأسر ، وكانوا زهاء أربعة آلاف أسير ، وأعطى كلاً منهم نفقة توصله إلى بلده وأهله.

هكذا بلغني على ألسنة جماعة ، فإنني لم أحضر هذه الواقعة .

وكان حسن العشرة ، لطيف الأخلاق ، طيِّب الفكاهة ، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم ، عارفاً بسيرهم وأحوالهم ، حافظاً لأنساب خيلهم ، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها ، بحيث كان يستفيد محاضرُه منه مالا يسمع من غيره .

وكان حسن الخلق يسأل الواحدَ منـا عـن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه ، وتقلبات أحواله .

وكان طاهر المجلس ، لا يذكر بين يديه أحد إلا بالخير ، وطاهر السمع ، فلا يحب أن يسمع عن أحد إلا الخير ، وطاهر اللسان ، فما رأيته ولع بشتم قط ؛ وطاهر القلم ، فما كتب بقلمه إيذاء مسلم قط .

وكان حسن العهد والوفاء ، فما أحضر بين يديه يتيم إلا وترحّم على مخلفيه ، وجبر قلبه ، وأعطاه خبز[1] مخلفه؛ وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلّمه إليه ، وإلا أبقى له من الخبز ما يكفي حاجته ، وسلّمه إلى من يكفله ويعتني بتربيته .

وكان ما يرى شيخاً إلا ويرقّ له ويعطيه ويحسن إليه ، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله إلى مقارّ رحمته ومحالّ رضوانه ....

وحيث نجز هذا القسم ، نشرع الآن في القسم الثاني ، وهو قسم تقلبات الأحوال به ووقائعه وفتوحاته ، قدّس الله روحه .



(1) الخبز ههنا يعني الراتب والمعاش .

القسم الثاني من الكتاب
في تقلبات أحواله ووقائعه وفتوحاته في تواريخها

قدس الله روحه
ونور بنور رحمته ضريحه

ذكر حركته إلى مصر في الدفعة الأولى

صحبة عمه أسد الدين

وكان سبب ذلك أن شاور ـ وزير المصريين ـ كان قد خرج عليه إنسان يقال له الضرغام ، وكان يروم منصبه ومكانه ، فجمع له جموعاً كثيرة لم يكن له بها قِبَلٌ ، وغلب عليه ، وأخرجه من القاهرة ، وقتل ولده ، واستولى على المكان ، وولي الوزارة ....

فلما قُهر شاور وأُخرج من القاهرة ، اشتد في طلب الشام قاصداً خدمة نور الدين بن زنكي ، مستصرخاً به مستنصراً على أعدائه بعسكره ، فتقدم نور الدين إلى أسد الدين شيركوه بالخروج إلى محروسة مصر قضاءً لحق الوافد المستصرخ ، وجسّاً للبلاد وتطلعاً على أحوالها ، وذلك في شهور سنة ثمانٍ وخمسين وخمسمائة ، وتأهب أسد الدين شيركوه وسار إلى مصر ، فاستصحبه معه ـ

رحمه الله ـ عن كراهية منه لذلك ، لمكان افتقاره إليه ، وجعله مقدم عسكره ، وصاحب رأيه ، وساروا حتى وصلوا إلى محروسة مصر ، وشاور معهم ، في الثاني من جمادى الآخرة سنة ثمانٍ المذكورة .

وكان لوصولهم إلى مصر موقع عظيم ، وخافه أهل مصر ، ونَصَرَ شاور على خصمه ، وأعاده إلى منصبه ومرتبته ، وقرَّر قواعده ، واستقر أمره وشاهد البلادَ وعرف أحوالها ....

وكان ابتداء رحيله عنها متوجهاً إلى الشام في السابع من ذي الحجة سنة ثمانٍ المذكورة ، وكان لا يفصل أمراً ، ولا يقرِّر حالاً إلا بمشورته ورأيه ، لما لاح له منه من آثار الإقبال والسعادة والفكرة الصحيحة ، واقتران النصر بحركاته وسكناته ، فأقام بالشام مدبراً لأمره ، مفكراً في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية ، محدثاً بذلك نفسه ، مقرراً لقواعد ذلك مع الملك العادل نور الدين ـ رحمه الله ـ إلى سنة اثنتين وستين وخمسمائة .



ذكر عوده إلى مصر في الدفعة الثانية

وسبب ذلك

وهي المعروفة بوقعة البابين(١)

ولم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور ذلك ، وداخله الخوفُ على البلاد من الأتراك ، وعلم أن أسد الدين قد طمع في البلاد . وأنه لابد له من قصدها ، فكاتب الافرنج ، وقرّر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنونه فيها تمكينا كلياً ، ويعينونه على استئصال أعدائه ، بحيث يستقر قلبه فيها ، وبلغ ذلك أسدَ الدين والملكَ العادلَ نورَ الدين ، فاشتد خوفهم على مصر أن يملكها الكفار ، فيستولوا على البلاد كلها ، فتجهز أسد الدين ، وأنفذ معه الملك العادل نور الدين العساكرَ ، وألزم السلطانَ - رحمه الله - بالمسير معه ، على كراهيةٍ منه لذلك .

(١) البابين : قرية كانت تقع جنوبي مدينة المنيا في مصر .

وكان توجههم في أثناء ربيع الأول من شهور سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، وكان وصولهم إلى البلاد المصرية مقارناً لوصول الافرنج إليها .

واتفق شاور مع الافرنج على أسد الدين ، والمصريون بأسرهم،وجرت بينهم حروب كثيرة ووقعات شديدة وانفصل الافرنج عن الديار المصرية ، وانفصل أسد الدين ....

وعاد إلى الشام في بقية السنة وقد انضم إلى قوة الطمع في البلاد شدةُ الخوف عليها من الفرنج ، لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها ، وعرفوها من الوجه الذي عرفها ، فأقام في الشام على مضض وقلبه مقلقل ، والقضاء يجرّه إلى شيء قد قُدّر لغيره ، وهو لا يشعر بذلك .



ذكر

عودهم إلى مصر في الدفعة الثالثة وهي التي ملكوها فيها

وجرى ما جرى وذلك في شهور سنة اربع وستين وخمسمائة

وكان سببُ ذلك أن الافرنج ـ خذلهم الله ـ جمعوا راجلَهم وفارسَهم ، وخرجوا يريدون الديار المصرية ، ناكثين لجميع ما استقر مع المصريين وأسد الدين من الصلح والقواعد ، طمعاً في البلاد .

فلما بلغ ذلك نور الدين وأسد الدين لم يسعهما الصبر دون أن سارعا إلى قصد البلد .

أمـا نور الدين فبالمال والرجال ، ولم يَسِرْ بنفسه خوفاً على البلاد من الفرنج ....

وأما أسد الدين فبنفسه وماله وأهله ورجاله ؛ ولقد قال لي السلطان ـ قدّس الله روحه ـ : « كنتُ أكرهَ الناس للخروج في هذه الدفعة ، وما خرجتُ مـع عمي باختياري » ؛ وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى :

« وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » .

وكان شاور لما أحسَّ بخروج الافرنج إلى مصر على تلك القاعدة أنفذ إلى أسد الدين يستصرخه ويستنجده ، فخرج مسرعاً ؛ وكان وصولهم إلى محروسة مصر في أثناء ربيع الأول من سنة أربع وستين وخمسمائة ....

ولما علم الافرنج وصول أسد الدين الى مصر عن اتفاق بينه وبين أهلها رحلوا راجعين ، وعلى أعقابهم ناكصين ، وأقام أسد الدين بها ، يتردد اليه شاور في الاحيان ؛ وكان وعدهم بمال في مقابلة ما خسروه من النفقة ، فلم يوصل اليهم شيئا ، وعلقت مخاليب أسد الدين في البلاد ، وعلموا أن الافرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد ، وأن ترددهم اليها في كل وقت لا يفيد ، وأن شاور يلعب بهم تارة ، وبالافرنج تارة أخرى ، وملاكها قد كانوا على البدعة المشهورة عنهم ، وعلموا أنه لا سبيل الى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور ، فأجمعوا أمرهم على قبضه اذا خرج اليهم ، وكانوا هم يترددون الى خدمته دون أسد الدين ، وهو يخرج في بعض الاحيان الى أسد الدين يجتمع به .

وكان شاور يركب على قاعدة وزرائهم ـ بالطبل والبوق والعلم ـ فلم يتجاسر على قبضه من الجماعة الا السلطان بنفسه : وذلك أنه لما سار اليهم تلقاه راكبا ، وسار الى جانبه ، وأخذ بتلابيبه ، وأمر العسكر أن خذوا على أصحابه ، ففروا ونهبهم العسكر ، وقبض على شاور ، وأنزل الى خيمة مفردة .

وفي الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول : لا بد من رأسه . يقول : جرياً على عادتهم في وزرائهم في تقرير قاعدة من قوي منهم على صاحبه ، فجزت رقبته ، وأنفذ رأسه اليهم .

وأنفذ الى أسد الدين خلعة الوزارة ، فلبسها وسار ودخل القصر ، وترتب وزيرا ، وذلك في سابع عشر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة . ودام آمراً ناهيا ، والسلطان ـ رحمه الله ـ مباشر الامور ، مقرر لها ، وزمام الامر والنهي مفوض اليه لمكان كفايته ودرايته وحسن تأتيه وسياسته الى الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة .



ذكر وفاة اسد الدين
رحمه الله
ومصير الامر إلى السلطان

وذلك أن أسد الدين كان كثير الاكل ، شديد المواظبة على أكل اللحوم الغليظة ، وتتواتر عليه التخم والخوانيق ، وينجو منها بعد معاناة شدة عظيمة ، فأخذه مرض شديد واعتراه خانوق عظيم ، فقتله في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة في السنة المذكورة، وفوّض الامر بعده الى السلطان، واستقرّت القواعد ، واستتبت الأحوال على أحسن نظام ؛ وبذل المالَ وملك الرجالَ ، وهانت عنده الدنيا فملكها ، وشكر نعمةَ الله عليه ، فتاب عن الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو وتقمّص بلباس الجد والاجتهاد ، وما عاد عنه ، ولا ازداد إلا جداً إلى أن توفاه الله إلى رحمته .

ولقد سمعتُ منه يقول : « لما يَسَّر الله لي الديار المصرية علمتُ أنه أراد فَتْحَ الساحل ، لأنه أوقع ذلك في نفسي » . ومن حين استتب له الأمر ما زال يشنُّ الغارات على الافرنج إلى الكَرَك والشوْبك وبلادهما ، وغشي الناس من سحائب الافضال والنعم ما لم يؤرخ عن غير تلك الأيام ....



ذكر قصد الافرنج دمياط

حرسها الله تعالى

ولما علم الافرنج ما جرى على المسلمين وعساكرهم ، وما تمَّ للسلطان من استقامة الأمر في الديار المصرية علموا أنه يملك بلادهم ويخرِّب ديارَهم ، ويقلع آثارهم ، لِمَا حدث له من القوة والملك ؛ فاجتمع الافرنج والروم جميعاً ، وحدَّثوا أنفسهم بقصد الديار المصرية ، والاستيلاء عليها ومُلْكها ورأوا قَصْدَ دمياط ، لتمكن القاصد لها من البرِّ والبحر،ولعلمهم أنها إنحصلت لهمحصل لهم مَغْرَسُ قَدَم يأوون إليه فاستصحبوا المنجنيقات والدبابات[1] ، والجروخ[2] ، وآلات الحصار ، وغير ذلك .

ولما سمع الافرنج بالشام ذلك ، اشتد أمرهم ، فسرقوا حصن عكا من المسلمين ، وأسروا صاحبها ــ وكان مملوكاً لنور الدين يسمى ختلخ العلَم دار ــ وذلك في ربيع الآخر منها ....

---

(1) الدبابة : آلة من خشب مغطى بالجلد تدفع على عجلات ، يدخل فيها من ينقب سور العدو .

(2) الجرخ : كلمة فارسية تعني نوعا من الاقواس ترمى بها السهام أو النفط .

ولما رأى نور الدين ظهور أمر الافرنج ، وبلغه نزولهم على دمياط ، قصـد شَغْل قلوبهم ، فنزل على الكَرَك محاصراً لها في شعبان مـن هـذه السنة ، فقصده افرنج الساحل ، فرحل عنها ، وقصد لقاءهم ، فلم يقفوا له ....

ولما علم السلطان شدة قصد العدو دمياط أنفذ إلى البلد ، وأودعه من الرجال وأبطال الفرسان والميرة والآلات والسلاح ما أمن معه عليه ، ووعد المقيمين فيه بإمدادهم بالعساكر والآلات وإزعاج العدو عنهم إن نزل عليهم وبالغ في العطايا والهبات ، وكان وزيراً متحكماً لا يُردُّ أمره في شيء ثم نزل الافرنج عليها في التاريخ المتقدم المذكور ، واشتد زحفهم عليها وقتالهم لها ، وهو يشنُّ الغارات عليهم من خارج ، والعساكر تقاتلهم من داخل .... حتى بان لهم الخسران وظهر على الكفر الإيمانُ ، ورأوا أنهم ينجون برؤوسهم ، ويسلمون بنفوسهم ، فرحلوا خائبين خاسرين ، فحُرِّقت مناجيقهم ونُهبت آلاتهم ، وقُتل منهم خلقٌ عظيم ، وسلم البلد بحمد الله ومنّه عن قصدهم ، وظهر بتوفيق الله فلُّ حدهم ، واستقرت قواعد السلطان .

★ ★ ★

ذكر موت العاضد

وكان موته في يوم الاثنين العاشر من المحرم من شهور سنة سبع وستين وخمسمائة ، واستقر المُلْكُ للسلطان ، وكان خَطَبَ لبني العباس في أواخر أمر العاضد وهو حيٌ ، وكانت الخطبة في ابتدائها للمستضيء بأمر الله ، واستمرت القواعد على الاستقامة ، وهو كلما استولى على خزانة مال وهبها ، وكلما فُتح له خزائن مُلْكٍ أنهبها ، ولا يُبقي لنفسه شيئاً ، وشرع في التأهب للغزاة ، وقصد بلاد العدو وتعبية الأمر لذلك ، وتقرير قواعده .

وأما نور الدين فإنه عزم على الغزاة ، واستدعى صاحبَ الموصل ابن أخيه ، فوصل بالعساكر إلى خدمته ، وكانت غزوة عرقا وأخذها نور الدين ومعه ابن أخيه في المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة .



ذكر اول غزوة غزاها من الديار المصرية

ولم يزل على بسط العدل ونشر الإحسان وإفاضة الإنعام على الناس إلى سنة ثمان وستين وخمسمائة ، فعند ذلك خرج بالعساكر يريد بلاد الكَرَك والشوْبك وإنما بدأ بها لأنها كانت أقرب إليه ، وكانت في الطريق تمنع مَنْ يقصد الديارَ المصرية ، وكان لا يمكن أن تصلَ قافلةٌ حتى يخرج هو بنفسه يُعَبِّرها بلادَ العدو ، فأراد توسيع الطريق وتسهيلَه لتتصل البلادُ بعضُها ببعض ، وتسهل على السابلة ، فخرج قاصداً لها في أثناء سنة ثمان وستين وخمسمائة فحاصرها ، وجرى بينه وبين الافرنج وقعات ، وعاد عنها ولم يظفر منها بشيء في تلك الدفعة ، وحصل ثواب القصد .

وأما نورُ الدين فإنه فتح مَرْعَش في ذي القعدة من هذه السنة ، وأخذ بهسنا في ذي الحجة منها .

★ ★ ★

ذكر فتح اليمن

ولما كانت سنة تسع وستين رأى قوة عسكره وكثرة عدد إخوته وقوة بأسهم ، وكان بلغه أن باليمن إنساناً استولى عليها وملك حصونها ، وهو يخطب لنفسه ، يُسمى بعبد النبي بن مهدي ، ويزعم أن ينتشر مُلْكُه إلى الأرض كلها ، واستتب أمره ، فرأى أن يسيّر إليها أخاه الأكبر شمس الدولة الملك المعظم تورانشاه ، وكان كريماً أرْيحياً حسن الأخلاق ، سمعتُ منه — رحمه الله — الثناءَ على كرمه ومحاسن أخلاقه وترجيحه إياه على نفسه .

وكان توجهه إليها في أثناء رجب سنة تسع وستين ، فمضى إليها ، وفتح الله على يديه ، وقتل الخارجي الذي كان بها ، واستولى على معظمها ، وأعطى وأغنى خلقاً كثيراً .



ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكي

رحمه الله

وكانت وفاته بسبب خوانيق اعترته أيضاً ، عجز الأطباء عن علاجها ، وتوفي يوم الأربعاء حادي عشر من شوال من سنة تسع وستين وخمسمائة ، وذلك في قلعة دمشق ، وقام مقامه ولدُه الملكُ الصالحُ إسماعيلُ .

ولقد حكى لي السلطان قال : « كان بلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية ، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن يكاشف ويخالف ويشقّ عصاه ، ويلقى عسكره بمصافٍ يرده إذا تحقق قصده ، وكنت وحدي أخالفهم ، وأقول : لا يجوز أن يُقال شيء من ذلك ، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبرُ بوفاته » .



ذكر

قصد الافرنج ثغر الاسكندرية

حرسها الله تعالى

وذلك أن الافرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ لما علموا تغيرات الأحوال بالديار المصرية ، وتقلبات الدول بها داخلهم الطمعُ في البلاد ، وجرّدوا عساكرهم في البحر ، وكانوا في ستمائة قطعة ما بين شيني[1] وطرّادة[2] وبُطْسة[3] وغير ذلك ؛ وكانوا في ثلاثين ألفاً على ما ذُكر ، ونازلوا الثغر المحروس ، وذلك في أثناء شهر صفر في السابع منه من هذه السنة وهي سنة سبعين ، فأمدّه السلطان بالعساكر المنصورة ، وتحرك ، وأدخل الله في قلوبهم من الخوف والرعب مالا يمكنهم الصبر

(١) الشيني او الشونة : جمع شواني ، نوع كبير من المراكب الحربية.

(٢) الطريدة او الطرادة او الطراد او التطريدة : نوع من المراكب الحربية الصغيرة كانت معدة لحمل الخيول واحيانا لركوب الناس .

(٣) البطسة والبطشة والبسطة : سفينة حربية كبيرة وقد تستخدم في التجارة .

معه ، وعادوا خائبين خاسرين بعد أن ضايقوا الثغر ، وزحفوا عليه ثلاثة أيام ، وقاتلوه قتالاً شديداً ، وعصمه الله منهم .

ولما أحسّوا بحركة السلطان نحوهم ما لبثوا أن خلّفوا مناجيقهم وراءهم وآلتهم ، فخرج أهـل البلد إلى نَهبْها وإحراقها ، وكان من أعظم النعم من الله تعالى على المسلمين وأمارة كل سعادة ونجاح ، ولله الحمد والمنة .

وأما نور الدين ـ رحمه الله ـ فإنه خلّف ولده الملكَ الصالحَ إسماعيل وكان بدمشق ؛ وكان بقلعة حلب ابنُ الداية شمسُ الدين علي وشاذبخت ؛ وكان عليٌ قد حدث نفسَه بأمور ، فسار الملكُ الصالحُ من دمشق إلى حلب ، فوصل ظاهرها ثاني المحرم ومعه سابقُ الدين ، فخرج بدر الدين حسن للقائه ، فقبض عليه سابق الدين ؛ ولما دخل الملكُ الصالح القلعةَ قبض على شمس الدين وأخيه حسن، وأودع الثلاثةَ السجن ؛ وفي ذلك اليوم قُتل ابنُ الخشاب أبو الفضل لفتنةٍ جرت بحلب ، ذكروا أنه قُتل قبل امساك أولاد الداية بيوم ، لأنهم تولوا ذلك .



ذكر خروج السلطان

رحمة الله عليه إلى الشام ، واخذه لدمشق المحروسة

ولما تحقّق السلطان وفاة نور الدين ، وكون ولده طفلاً لا ينهض بأعباء الملك ، ولا يستقل بدفع عدو الله عن البلاد ، تجهّز للخروج إلى الشام ، إذ هو أصل بلاد الإسلام ، فتجهّز بجمع كثير من العساكر ، وخلّف في الديار المصرية مَنْ يستقل بحفظها وحراستها ، ونظْم أمورها وسياستها ، وخرج هو سائراً مع جمع من أهله وأقاربه ، وهو يكاتب أهل البلاد وأمراءها ، واختلفت كلمةُ أصحاب الملك الصالح ، واختلت تدابيرهم ، وخاف بعضهم من بعض ، وقبض البعض على جماعة منهم ، وكان ذلك سبب خوف الباقين من فعل ذلك ، وسبباً لتنفير قلوب الناس عن الصبي؛ فاقتضى الحال أن كاتب شمسُ الدين بن المقدّم السلطانَ، ووصل السلطان البلاد مطالباً بالملك الصالح ، ليكون هو الذي يتولى أمرَه ويربّ حاله ، ويقوم له ما اعوجّ من أمره ، فوصل محروسة دمشق ، ولم يشقّ عليه عصا ، ودخلها بالتسليم في يوم الثلاثاء سَلْخ ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة ، وتسلّم قلعتها .

وكان أول دخوله إلى دار أبيه ، واجتمع الناس إليه وفرحوا به ، وأنفق في ذلك اليوم في الناس مالاً طائلاً ، وأظهر الفرح والسرور بالدمشقيين ، وأظهروا الفرح به ، وصعد القلعة ، واستقرَّ قدمُه في مُلْكها ، فلم يلبث أن سار في طلب حلب ، فنازلَ حمص ، وأخذ مدينتها في جمادى الأولى سنةَ سبعين ، ولم يشتغل بقلعتها ، وسار حتى أتى حلب ، ونازلها في يوم الجمعة سلخ جمادى الأولى من السنة المذكورة ، وهي الدفعة الأولى .



ذكر تسيير سيف الدين اخاه عزَّ الدين إلى لقائه

ولما أحسَّ سيفُ الدين ــ صاحبُ الموصل ــ بما جرى ، علم أن الرجل قد استفحل أمرُه ، وعظم شأنُه ، وعلت كلمتُه ، وخاف أنه إن غفل عنه استحوذ على البلاد ، واستقر قدمه في الملك ، وتعدّى الأمر إليه ، فجهّز عسكراً وافراً وجيشاً عظيماً ، وقدّم عليه أخاه عزَّ الدين مسعودا ، وساروا يريدون لقاء السلطان وضرْبَ المصاف معه وردّه عن البلاد .

ولما بلغ السلطانَ ذلك رحل عن حلب مستهل رجب من السنة المذكورة عائداً إلى حماة ، وسار إلى حمص فاشتغل بأخذ قلعتها ، فأخذها ، ثم وصل عز الدين إلى محروسة حلب ، وانضم إليه مَنْ كان بها من العسكر وخرجوا بجمع عظيم .

ولما عرف هو بمسيرهم سار حتى وافاهم في قرون حماة، وراسلهم وراسلوه ، واجتهد أن يصالحوه ، فما صالحوه ورأوا أن المصاف ربما نالوا به الغرض الأكبر ، والمقصود الأوفر ، والقضاء يجرُّ إلى أمور ، وهم بها لا يشعرون .

وقام المصاف بين العسكرين فقضى الله أن انكسروا بين يديه ، وأسر جماعة منهم ، ومنَّ عليهم وأطلقهم وذلك عند قرون حماة في تاسع عشر رمضان سنة سبعين وخمسمائة .

ثم سار عقيب انكسارهم ، ونزل على حلب ، وهي الدفعة الثانية ، وصالحوه على أن أخذ المعرّة وكفرطاب وأخذ بارين ، وذلك في أواخر سنة سبعين وخمسمائة .

★ ★ ★

ذكر مسير سيف الدين بنفسه

ولما وقعت هذه الواقعة كان سيف الدين على سِنْجار يحاصر بها أخاه عماد الدين ويقصد أخذها منه ، ودخوله في طاعته ، وكان قد أظهر أخوه الانتماء إلى السلطان ، واعتصم بذلك،واشتد سيف الدين في حصار المكان وضرْبه بالمنجنيق حتى انهدم من سوره ثُلَمٌ كثيرة . وأشرف على الأخذ ، فبلغه وقوع هذه الوقعة فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشتد أمره ويقوى جأشه ، فراسله إلى الصلح فصالحه .

ثم سار من وقته إلى نصيبين ، واهتم بجمع العساكر والإنفاق فيها ، وسار حتى أتى الفرات وعبر بالبيرة ، وخيّم على جانب الفرات الشامي ، وراسل كُمُشْتِكين والملك الصالح حتى تستقر قاعدةٌ يصل عليها إليهم ، ووصل كُمُشْتِكين إليه ، وجرت مراجعات كثيرة ، عزم فيها على العود مراراً حتى استقرُّ اجتماعه بالملك الصالح ، وسمحوا به ، وسار ووصل محروسة حلب ، وخرج الملك الصالح إلى لقائه بنفسه ، فالتقاه قريب القلعة ، واعتنقه وضمه إليه

وبكى ، ثم أمره بالعود إلى القلعة فعاد إليها ، وسار هو حتى نزل بعين المباركة ، وأقام بها مدة ، وعسكرُ حلب يخرج إلى خدمته في كل يوم .

وصعد القلعة جريدةً ، وأكل فيها خبزاً ونزل ، وسار راحلاً إلى تل السلطان ومعه الدياربكرية وجمعٌ كثير ، والسلطانُ قد أنفذ في طلب العساكر من مصر ، وهو يترقب وصولها ، وهؤلاء يتأخرون في أمورهم وتدابيرهم ، وهم لا يشعرون أن في التأخير تدبيراً ، حتى وصل عسكر مصر ، فسار — رحمه الله — حتى أتى قرون حماة ، فبلغهم أنه قد قارب عسكره ، فأخرجوا اليزَك ، وجهّزوا مَنْ كشف الأخبار ، فوجدوه قد وصل جريدة إلى جباب التركمان ، وتفرّق عسكره يسقي ، فلو أراد الله نصرتهم لقصدوه في تلك الساعة ، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، فصبروا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره ، واجتمعوا ، وتعبّوا تعبية القتال .

وأصبح القوم على مصاف ، وذلك في بكرة الخميس

العاشر من شوال سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، فالتقى العسكران وتصادما ، وجرى قتال عظيم ، انكسرت ميسرة السلطان بابن زين الدين مظفر الدين ، فإنه كان في ميمنة سيف الدين وحمل السلطان بنفسه فانكسر القوم ، وأسر منهم جمعاً عظيماً من كبار الأمراء ، منهم فخر الدين عبد المسيح فمنّ عليهم وأطلقهم .

وعاد سيف الدين إلى حلب المحروسة ، فأخذ منها خزائنه ، وسار حتى عبر الفرات ، وعاد إلى بلاده .

وأمسك هو — رحمه الله — عن تتبع العسكر ، ونزل في بقية ذلك اليوم في خيم القوم ، فإنهم كانوا قد أبقوا الثقل على ما كان عليه ، والمطابخ قد عملت ، ففرّق الاصطبلات ، ووهب الخزائن وأعطى خيمة سيف الدين عز الدين فرّوخشاه ، وسار إلى محروسة منبج فتسلمها في بقية الشهر المذكور .

وسار حتى نزل على قلعة أعزاز يحاصرها ، وذلك رابع ذي القعدة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة.....وأقام عليها

حتى أخذها ، وذلك في رابع عشر ذي الحجة مــن السنة المذكورة وسار حتى نزل على حلب المحروسة في سادس عشر منه ، فأقام مدة ، ثم سار عنها ، فأخرجوا إليه ابنة لنور الدين صغيرة ، وسألت منه أعزاز فوهبها إياها .

وفي بقية الشهر أيضا وصل شمس الدولة أخــوه من اليمن إلى محروسة دمشق وأقام بها مدة ، ثم عاد إلى الديار المصرية ، وتوفي باسكندرية يوم الخميس مستهل صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة .

ثم إن السلطان عاد إلى الديار المصرية لتفقد أحوالها ، وتقرير قواعدها ، وكان مسيره إليها في ربيع الأول مــن شهور سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة واستخلف أخاه شمس الدولة بدمشق ، فأقام ـــ رحمه الله ـــ بها يقرّر قواعدها ، ويسدّ خللها .

وأراح العسكر ، ثم تأهب للغزاة ، وخرج يطلب الساحل حتى وافى الافرنج على الرملة ، وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة .



ذكر كسرة الرملة

وكان مقدمُ الافرنج البرنس أرناط ، وكان قد بيع بحلب ، فإنه كان أسيراً بها في زمن نور الدين .

وجرى خللٌ في ذلك اليوم على المسلمين ، ولقد حكى السلطان صورة الكسْرة في ذلك اليوم ، وذلك أن المسلمين كانوا قد تعبئوا تعبية الحرب ، ولما قرب العدو رأى بعضُ الجماعة أن تعبر الميمنة إلى جهة الميسرة ، والميسرة إلى جهة القلب ، ليكونوا حالة اللقاء وراء ظهورهم تل يعرف بأرض الرملة ، فبينما اشتغلوا بهذه التعبية هجمهم الافرنج ، وقدَّر اللهُ كسرتهم ، فانكسروا كسرةً عظيمة ، ولم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه ، فطلبوا جهة الديار المصرية ، وضلوا في الطريق ، وتبددوا ، وأسروا منهم جماعة ، منهم الفقيه عيسى ، وكان وهناً عظيماً جبره اللهُ بوقعة حطّين المشهورة ، ولله الحمد .



ذكر عود السلطان ـ رحمه الله ـ الى الشام

ولما عاد السلطان بعد الكسرة إلى الديار المصرية ، وأقام بها ريثما لمَّ الناسُ شعثَهم ، وعلم تخبط الشام ، عزم على العود إليه ، وكان عوده للغزاة ، فوصله رسل قليج أرسلان يلتمسون من السلطان الموافقة ، ويستغيث إليه من الأرمن ، فاشتمل نحو بلاد ابن لاون[1] لنصرة قليج أرسلان عليه ، ونزل بقَرَا حِصار ، وأخذ عسكر حلب في خدمته ، لأنه قد اشترط في الصلح ، فاجتمعوا على النهر الأزرق بين بهسنا وحصن منصور ، وعبر منه الى النهر الاسود ، وطَرَقَ بلاد ابن لاون ، فأخذ حصناً وأخربه ، وبذلوا له أسارى والتمسوا منه الصلح ، وعاد عنهم .

ثم راسله قليج أرسلان في صلح الشرقيين بأسرهم ، واستقر الصلح ، وحلف السلطان في عاشر جمادى الأولى سنة ست وسبعين ، ودخل في الصلح قليج أرسلان والمواصلة والديار بكرية ، وكان ذلك على نهر شنجة ، وهو نهر يرمي إلى الفرات . وسار السلطان نحو دمشق المحروسة .



---

(١) هو ملك ارمينيا ليون الثاني .

ذكر عود السلطان من مصر

وأما السلطان فانه لما وقع الصلح على يد قليج أرسلان صعد الى الديار المصرية ـ حرسها الله تعالى ـ واستخلف ابن أخيه عز الدين فروخشاه واليا ، ولما بلغ السلطان ـ قدس الله روحه ـ وفاة الملك الصالح عزم على العود الى الشام خوفا على البلاد من الافرنج ، وبلغه أيضا وفاة فروخشاه في يوم الجمعة مستهل رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة فاشتد عزمه .

وكان وصوله الى محروسة دمشق في سابع عشر صفر سنة ثمان وسبعين ، ثم أنشأ التأهب لغزاة بيروت ، فانه عبر على الافرنج في عوده من مصر مكابرة من غير صلح ، فقصد بيروت ونازلها ، ولم ينل منها غرضا ، واجتمع الافرنج فرحلوه عنها ، ودخل الى دمشق .

وبلغه أن رسل الموصل وصلوا الى الافرنج يحثونهم على قتال المسلمين ، فعلم أنهم نكثوا اليمين ، وأنشأ العزم على قصدهم لجمع كلمة العساكر الاسلامية على عدو الله ،

فأخذ في التأهب لذلك ، فلما بلغ ذلك عماد الدين سيَّر الى الموصل يشعرهم بالخبر ، ويستحث العساكر .

وسار السلطان حتى نزل على حلب في ثامن عشر جمادى الاولى سنة ثمان وسبعين ، وأقام ثلاثة أيام ورحل في الحادي والعشرين منه يطلب الفرات ، واستقر الحال بينه وبين مظفر الدين ، وكان صاحب حرّان ، وكان قد استوحش من جانب الموصل ، وخاف من مجاهد الدين ، فالتجأ الى السلطان ، وعبر اليه الى قاطع الفرات ، وقوي عزمه على البلاد ، وسهل أمرها عنده ، فعبر الفرات ، وأخذ الرّها ، والرقة ، ونصيبين ، وسروج ، ثم شحن على الخابور وأقطعه .



ذكر نزوله على الموصل

وكان نزوله عليها في هذه الدفعة في يوم الخميس حادي عشر شهر رجب سنة ثمان وسبعين ، وكنت ـ اذ ذاك ـ بالموصل ، فسُيِّرْتُ رسولا الى بغداد قبيل نزوله عليها بأيام قلائل ، فسرت مسرعا في الدجلة ، وأتيت بغداد في يومين وساعتين من اليوم الثالث ، مستنجدا بهم ، فلم يحصل منهم

سوى الانفاذ الى شيخ الشيوخ ، وكان في صحبته رسولا من جانبهم ، يأمرونه بالحديث معه ، ويتلطف الحال معه ، وسير الى بهلوان رسولا من الموصل يستنجد ، فلم يحصل منه سوى تشرط كان الدخول تحته أخطر من حــرب السلطان .

ثم أقام السلطان على الموصل أياما ، وعلم أنه بــلد عظيم لا يتحصل منه شيء بالمحاصرة على هذا الوجه ، ورأى أن طريق أخذه أخذ قلاعه وما حوله من البلاد ، واضعافه بطول الزمان ، فرحل عنها ، ونزل على سنجار في سادس عشر شعبان سنة ثمان وسبعين وخمسمائة .



ذكر أخذه سنجار

وأقام يحاصر سنجار ، وكان فيها شرف الدين بن قطب الدين وجماعة ، واشتد عليه الامر ، حتى كان ثاني شهر رمضان سنة ثمان وسبعين فأخذها عنوة ، وخرج شرف الدين وجماعته محترمين محفوظين الى محروســة الموصل ، وأعطاها ابن أخيه تقي الدين ، ورحل عنها الى

نصيبين ... وسار السلطان يطلب بلد آمد، فنزل عليها وقاتلها وأخذها في ثمانية أيام ، وذلك في أوائل المحرم سنة تسع وسبعين ، وأعطاها نور الدين بن قرا أرسلان .

ومن على ابن نيسان بجميع ما كان فيها من الاموال وغيرها ، ثم سار يطلب الشام لقصد حلب .



ذكر عود السلطان إلى الشام

ولما عاد الى الشام بدأ بتل خالد ، فنزل عليها ، وقاتلها، وأخذها في ثاني عشر المحرم سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، ثم سار طالبا حلب ، فنزل عليها في سادس عشر محرم سنة تسع وسبعين وخمسمائة وكان أول نزوله بالميدان الاخضر، وسيّر المقاتلة يقاتلون ، فيباسطون عسكر حلب ببانقوسا وباب الجنان غدوة وعشية ، وفي يوم نزوله جرح أخوه تاج الملوك ، رحمه الله .



ذكر اخذه حلب

قدس الله روحه

ولما نزل على حلب استدعى العساكر من الجوانب ، واجتمع خلق عظيم ، وقاتلها قتالا شديدا ، وتحقق عماد الدين أنه ليس له به قبل ، وكان قد ضرس من اقتراح الامراء عليه ، وجبههم فأشار الى حسام الدين طمان أن يسفر له مع السلطان في اعادة بلاده ، وتسليم حلب اليه ، واستقرت القاعدة ، ولم يشعر أحد من الرعـية ولا من العسكر حتى تم الامر ، وانحكمت القاعدة ، واستفاض ذلك ، واستعلم العسكر منه ذلك ، فأعلمهم ، وأذن لهم في تدبير أنفسهم ، فأنفذوا عنهم وعن الرعيةِ عز الدين جرديك النوري ، وزين الدين بلك الياروقي ، فقعدوا عنده الى الليل واستحلفوه على العسكر وعلى أهل البلد ، وذلك في سابع عشر من صفر سنة تسع وسبعين .

وخرجت العساكر الى خدمته الى الميدان الاخضـر ومقدمو حلب ، وخلع عليهم وطيب قلوبهم ، وأقام عماد

الدين بالقلعة يقضي أشغاله ، ونقل أقمشته وخزانتـه ، والسلطان مقيم بالميدان الاخضر الى يوم الخميس ثالث عشرين صفر.

وفيـه توفي أخـوه تاج الملوك من الجـرح الذي كان أصابه ، وشق عليه أمر موته ، وجلس للعزاء .

وفي ذلك اليوم نزل عماد الدين الى خدمته ، وعزاه وسار معه بالميدان الاخضر ، وتقررت بينهما قواعد ، وأنزله السلطان عنده في الخيمة ، وقدم له تقدمة سنية وخيلا جميلة ، وخلع على جماعة من أصحابه .

وسار عماد الدين من يومه الى قرا حصار سائرا الى سنجار ، وأقام السلطان بالمخيم بعد سير عماد الدين غير مكترث بأمرها ، ولا مستعظم لشأنها الى يوم الاثنين سابع عشرين صفر ، ثم في ذلك اليوم صعد السلطان قلعة حلب مسرورا منصورا ، وعمل له حسام الدين طمان دعـوة سنية ، وكان قد تخلف لاخذ ما تخلف لعماد الدين من قماش وغيره .



ذكر اخذه حارم

وكان قد أنفذ الى حارم من يتسلمها ، ودافعهم الوالي وأنفذ الاجناد الذين بها يستحلفونه فوصل خبرهم يـوم الثلاثاء ثامن عشرين صفر ، فحلف لهم ، وسار من وقته الى حارم فوصلها في تاسع عشرين صفر ، وتسلمها ، وبات بها ليلتين وقرر قواعدها ، وولى فيها ابراهيم بن شروة ، وعاد الى حلب ، ودخلها في ثالث ربيع الاول سنة تسـع وسبعين .

ثم أعطى العساكر دستورا ، وسار كل منهم الى بلاده ، وأقام يقرر قواعد حلب ويدبر أمورها .



ذكر

غزاة عين جالوت

ولم يقم في حلب الا الى يوم السبت ثاني وعشرين ربيع الآخر سنة تسع وسبعين ، وأنشأ عزما على الغزاة ، فخرج في ذلك اليوم الى الوضيحي مبرزا نحو دمشق ، واستنهض العساكر ، فخرجوا يتبعونه ، ثم رحل في رابع وعشرين

منه الى حماة فوصلها ، ثم رحل في بقية يومه ، ولم يزل يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق في ثالث جمادي الاولى سنة تسع وسبعين ، فأقام بها متأهبا الى سابع وعشرين منه ، ثم برز في ذلك اليوم ، ونزل على جسر الخشب ، وتبعته العساكر مبرزة ، فأقام بها تسعة أيام ، ثم رحل في ثامن جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وسار حتى أتى الفوار ، وتعبى فيه للحرب ، وسار حتى نزل الصير ، فبات به ، وأصبح على المخاض ، وعبر وسار حتى أتى بيسان ، فوجد أهلها قد نزحوا عنها ، وتركوا ما كان من ثقيل الاقمشة والغلال والامتعة بها ، فنهبها العسكر ، وغنموا ، وأحرقوا ما لم يمكن أخذه .

وسار حتى أتى الجالوت ، وهي قرية عامرة ، وعندها عين جارية ، فخيم بها .

وكان قد قدم عز الدين جرديك وجماعة من المماليك النورية ، وجاولي ــ مملوك أسد الدين ــ حتى يكشفوا خبر الافرنج ، فاتفق أنهم صادفوا عسكر الكرك والشوبك سائرين نجدة للافرنج ، فوقع أصحابنا عليهم ، وقتلوا منهم

مقتلة عظيمة ، وأسروا منهم زهاء مائة نفر ، وعادوا ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد يدعى « بهرام الشاووش » ، فوصل اليه في بقية يوم الكسرة ، وهو الخميس العاشر من جمادى الآخرة من سنة تسع وسبعين، فاستبشر المسلمون بالنصر والظفر .

ولما كان السبت حادي عشر وصل الخبر اليه أن الافرنج قد اجتمعوا في صفورية ، فرحلوا الى الفولة ، وهي قرية معروفة ، وكان غرضه المصاف ، فلما سمع بذلك تعبى للقاء ، ورتب الاطلاب ميمنة وميسرة وقلبا ، وسار للقاء العدو .

وسار الافرنج طالبين المسلمين ، ووقعت العين في العين، وأخرج السلطان الجاليش[1] خمسمائة رجل معروفة فواقعوا الافرنج ، وجرى قتال عظيم ، وقتل من العدو جماعة وجرح جماعة ، وهم ينضم بعضهم الى بعض ، يحمي راجلهم فارسهم، ولم يخرجوا الى المصاف ، ولم يزالوا سائرين حتى أتوا

---

(١) الجاليش : في الاصل الراية العظيمة في رأسها خصلة من الشعر ثم اطلقت على مقدمة القلب في الجيش .

العين ، ونزلوا عليها ، ونزل السلطان حولهم ، والقتل والجرح يعمل فيهم ليخرجوا الى المصاف ، وهم لا يخرجون لخوفهم من المسلمين ، فانهم كانوا في كثرة عظيمة .

ولما رأى أنهم لا يخرجون رأى الانتزاح عنهم لعلهم يرحلون ، فيضرب معهم مصافا ، فرحل نحو الطور ، وذلك في سابع عشر جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين ، فنزل تحت الجبل مترقبا رحيلهم ، ليأخذ منهم فرصة .

وأصبح الافرنج في ثامن عشره راحلين ، راجعين على أعقابهم ، ناكصين ، فرحل ــ رحمه الله ــ نحوهم ، وجرى من رمي النشاب واستنهاضهم للمصاف أمور عظيمة ، فلم يخرجوا ، ولم يزل المسلمون حولهم حتى نزلوا الفولة المقدم ذكرها راجعين الى بلادهم .

فلما رأى المسلمون ذلك اجتمعوا على السلطـان ، وأشاروا بالعود لفراغ أزوادهم ، وكان قد نال منهم بالقتل والاسر ، وتخريب عفربلا وقلعـة بيسان ، وزرعين ، وهي من حصونهم المذكورة ، وخرب عليهم قرايا عدة ، فعاد منصورا مظفرا مسرورا ، فسار حتى نزل الفوار ، وأعطى

الناس دستورا من أثر المسير ، ثم سار هو حتى أتى دمشق، فدخلها فرحا مسرورا في يوم الخميس رابع وعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

فانظر الى هذه الهمة التي لم يشغلها عن الغزاة أخـذ حلب ولا الظفر بها ، بل كان غرضه الاستعانة بالبلاد على الجهاد ، فالله يحسن جزاءه في الآخرة ، كما وفقه للاعمال المرضية في الدنيا .



ذكر غزاة انشاها إلى الكرك

ثم انه أقام بدمشق الى ثالث رجب سنة تسع وسبعين، وخرج مبرزا نحو الكرك ، وكان قد سيّر الى الملك العادل وهو بمصر يتقدم اليه بالاجتماع به على الكرك ، فبلغـه خبر حركته من مصر ، فخرج للقائه ، وسار حتى أتى الكرك، ووافاه الملك العادل عليها ، وقد خرج معه خلق عظيم من تاجر وغير تاجر ، وذلك في رابع شعبان من السنة المذكورة.

فلما اجتمعا على الكرك وكان قد بلغ الافرنج — ،

خذلهم الله ــ خبر خروجه ، فساروا براجلهم وفارسهم نحو الكرك للدفع عنه ، ولما انتهى ذلك اليه سيَّر الملك المظفر تقي الدين الى مصر ، وذلك في خامس عشر شهر شعبان من السنة المذكورة .

وفي صبيحة السادس عشر منه نزلت الافرنج على الكرك، وتزحزح السلطان عنه بعد أن كان قاتله قتالا عظيما ، وعليه قتل شرف الدين بزغش النوري شهيدا ــ رحمه الله ــ في ثامن عشرين رجب .



ذكر إعطائه اخاه الملك العادل حلباً

ثم رحل السلطان مستصحباً أخاه الملكَ العادلَ معه إلى دمشق ، ليأسه عن الكرك بعد نزول الافرنج عليها ، فدخل دمشق في رابع عشرين شعبان من سنة تسع وسبعين ، وأعطى أخاه الملك العادل حلبا بعد مقامه بدمشق إلى ثاني شهر رمضان ، فسار في ذلك اليوم نحو حلب ، فوصلها وصعد القلعة ي يوم الجمعة ثاني عشرين من شهر رمضان،

وكان بها ولد السلطان الملك الظاهر ، ومعه سيف الدين يازكج يدبر أمره ، وابن العميد في البلد .

وكان الملك الظاهر من أحب أولاده إلى قلبه ، لما قد خصّه الله به من الشهامة والفطنة والعقل وحسن السمت والشغف بالملك ، وظهور ذلك عليه ؛ وكان أبرَّ الناس بوالده ، وأطوعهم له ، ولكن أخذ منه حلب لمصلحة رآها ، فخرج من حلب لما دخلها الملكُ العادل هو ويازكج سائرين الى خدمة السلطان ، فدخل دمشق يوم الاثنين ثامن عشرين شوال سنة تسع وسبعين ، فأقام في خدمة والده لا يُظهِر له إلا الطاعة والانقياد مع انكسار في باطنه لا يخفى عن نظر والده .

وفي ذلك الشهر وَرَدَ ْنَا على السلطان رسلاً من جانب الموصل ، وكنا قد توسلنا إلى الخليفة الناصر لدين الله في إنفاذ شيخ الشيوخ صدر الدين رسولاً وشفيعاً إلى السلطان ، فسيَّره معنا من بغداد ، وكان غزير المروءة عظيم الحرمة في دولة الخليفة ، وفي سائر البلاد ، وكانت مكانتُه عند السلطان بحيث يتردد إليه إذا كان عنده في معظم الأيام.

* * *

ذكر وصولنا إلى خدمته رسلا

وكان الشيخ قد وصل إلى محروسة الموصل رسولاً ، وسار منها بعد أن سار في صحبته القاضي محيي الدين بن كمال الدين ، وكان بينهما صحبة من الصبا ، وكنت مع القوم ، وسرنا حتى أتينا دمشق ، وخرج السلطان إلى لقاء الشيخ ونحن في خدمته ، فلقيه عن بعد .

وكان دخولنا إلى دمشق يوم السبت حادي عشر ذي القعدة سنة تسع وسبعين ، ولقينا من السلطان كلَّ جميل فيما يرجع إلى الإكرام والاحترام ، وأقمنا أياماً نراجع في فصل حال ، فلم يتفق صلح في تلك الدفعة ، وخرجنا راجعين إلى الموصل . وخرج السلطان إلى وداع الشيخ إلى القصير ، واجتهدوا في ذلك اليوم أن ينقضي شغل فلم يتفق .

وكان الوقوف من جانب محيي الدين . فإن السلطان اشترط أن يكون صاحبا إربل والجزيرة على خيرتهما في الانتماء إليه أو إلى الموصل ، فقال محيي الدين : « لابد من ذكرهما في النسخة » ، فوقف الحال .

وكان مسيرنا يوم الخميس سابع ذي الحجة سنة تسع

وسبعين ، وفي تلك الدفعة عرض عليّ السلطان مواضع البها الدمشقي بمصر – على لسان الشيخ – ، فاعتذرتُ ولم أفعل خوفاً من أن يحال توقف الحال عليّ ، ومن تلك الدفعة ثبت في نفسه الشريفة مني أمر" لم أعرفه إلا بعد خدمتي له .

وأقام السلطان – رحمه الله – بدمشق ترد عليه الرسل من الجوانب ، فوصله رسولُ سِنجر شاه – صاحب الجزيرة – فاستحلفه لنفسه ، وانتمى إليه ، ورسول إربل ، وحلف لهم ، وسارا .

ووصل إليه أخوه الملك العادل يوم الاثنين رابع ذي الحجة ، فأقام عنده ، وعيّد ، وتوجه وعاد إلى حلب المحروسة .



ذكر غزاة اخرى إلى الكرك

وسيّر السلطان – قدّس الله روحه – إلى العساكر يطلبها فوصل إليه ابن قرا أرسلان نور الدين إلى حلب في يوم الخميس ثامن عشر من صفر سنة ثمانين وخمسمائة ، فأكرمه الملك العادل اكراما عظيما ، وأصعده الى القلعة ،

وباسطه ، ورحل معه طالباً دمشق وذلك في سادس وعشرين منه ؛ وكان السلطان قد مرض أياماً ثم شفاه الله .

ولما بلغه وصول ابن قرا أرسلان خرج إلى لقائه ، وكان السلطان يكارم الناس مكارمة عظيمة ، فالتقاه على عبر الجسر بالبقاع ، وذلك في تاسع ربيع الأول سنة ثمانين ، ثم عاد إلى دمشق ، وخلف نور الدين وَاصلا مع أخيه الملك العادل ، فتأهب للغزاة ، وخرج مبرزاً إلى جسر الخشب في منتصف ربيع الأول .

وفي رابع وعشرين منه وصل الملك العادل ومعه ابن قرا أرسلان إلى دمشق ، فأقاما بها أياماً ، ثم رحلا يلتحقان بالسلطان ولما كان ثاني ربيع الآخر من السنة المذكورة رحل الملك الناصر من رأس الماء طالباً للكَرَك ، فأقام قريباً منها أياماً ينتظر وصول الملك المظفر من مصر إلى تاسع عشر ربيع الاخر ، فوصل تقي الدين إلى خدمته واجتمع به ، ومعه بيت الملك العادل وخزانته ، فسيَّرهم إلى الملك العادل، وتقدم إليه وإلى بقية العساكر بالوصول إليه إلى الكرك ، فتتابعت العساكر إلى خدمته حتى أحدقوا بالكرك ، وذلك في رابع عشر جمادى الأولى سنة ثمانين ، وركّب المناجيق

على المكان ، وقد التقت العساكر المصرية والشامية والجزرية أيضا مع ابن قرا أرسلان .

ولما بلغ الافرنج ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم إلى الذبِّ عن الكَرَك ، وكان على المسلمين منه ضررٌ عظيم ، فإنه كان يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج إلا مع العساكر الجمة الغفيرة ، فاهتم السلطان بأمره ليكون الطريق سابلة إلى مصر ويسَّر الله ذلك، والمِنَّة .

ولما بلغ السلطان — قدس الله روحه — خبر خروج الافرنج تعبَّى للقائهم ، وأمر العساكر أن خرجت إلى ظاهر الكرك ، وسيَّر الثقل نحو البلاد ، وبقي العسكر جريدة ، ثم سار السلطان يقصد العدو .

وكان الافرنج قد نزلوا بموضع يقال له الواله ، وسار حتى نزل بالبلقا على قرية يقال لها حُسبان ، قبالة الافرنج في طريقهم ، ورحل منها إلى موضع يقال له : مــاء عين ، والافرنج مقيمون بالواله إلى سادس وعشرين من جمادى الأولى ، ثم رحلوا قاصدين الكرك ، فسار بعض العسكر وراءهم ، فقاتلوهم الى آخر النهار .

ولما رأى — قدَّس الله روحه — تصميمَ الافرنج على

الكَرَكَ أمر العسكر أن دخل الساحل لخلوه عن العساكر، فهجموا نابلس ونهبوها ، وغنموا ما فيها ، ولم يبقَ فيها إلا حصناها ، وأخذوا جينين ، والتحقوا بالسلطان برأس الماء ، وقد نهبوا وأسروا وأخربوا وأحرقوا ؛ واتفق دخول السلطان الى دمشق يوم السبت سابع جمادى الآخرة سنة ثمانين ، ومعه الملك العادل ونور الدين بن قرا أرسلان فرحاً مسرورا ، وأكرمه واحترمه وأحسن اليه .

وفي هـذا الشهر وصل رسل الخليفة ومعهم الخلـع فلبسها السلطان ، وألبس أخاه الملك العادل وابن أسد الدين خِلَعاً جاءت لهم .

وفي رابع عشر الشهر خلع السلطان خلعة الخليفة على نور الدين بن قرا أرسلان ، وأعطـاه دستوراً ، وأعطى العساكر دستوراً ، وسار ابن قرا أرسلان في تاسع عشـر جمادى الآخرة طالبا بلاده .

وفي ذلك التاريخ وصلت رسل ابن زين الدين مستصرخاً إلى السلطان يخبر أن عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا على إربل مع مجاهد الدين قايماز ، وأنهم نهبوا وأحرقوا ، وأنه نصر عليهم وكسرهم .

★ ★ ★

ذكر خروج السلطان إلى جهة الموصل

الدفعة الثانية

ولما سمع السلطان ذلك رحل من دمشق يطلب البلاد ، وتقدم إلى العساكر فتبعته ، وسار حتى أتى حرّان على طريق البيرة ، والتقاه مظفر الدين بالبيرة في ثاني عشر محرم سنة إحدى وثمانين وخمسمائة .

وكان قد وصل إلى السلطان عز الدين بن عبد السلام رسولاً ، فلقيه بحماة يعتذر مما جرى ، وأعطاه دستوراً بعد أن أكرمه ، وسار من غير غرض وتقدم السلطان إلى سيف الدين المشطوب أن يسير في مقدمة العسكر إلى رأس العين ، ووصل السلطان حرّان ثاني وعشرين من صفر .



ذكر قبض مظفر الدين واطلاقه

وفي سادس وعشرين من صفر من سنة احدى وثمانين ، قبض السلطان على مظفر الدين بن زين الدين لشيء كان قد جرى منه ، وحديث كان بلغه عنه رسوله ، ولم يقف عليه ، وأنكره ، فأخذ منه قلعة حرّان والرها ، ثم أقام في

الاعتقال تأدياً إلى مستهل ربيع الأول ، ثم خلع عليه وطيّب قلبه ، وأعاد إليه قلعة حرّان وبلاده التي كانت بيده ، وأعاده إلى قانونه في الاكرام والاحترام ، ولم يتخلف له سوى قلعة الرها ، ووعده بها •

ثم رحل السلطان من حرّان ثاني ربيع الأول إلى رأس العين . ووصله في ذلك ، رسول قليج أرسلان يخبره ان ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان ان لم يعد عن الموصل وماردين ، وانهم على عزم ضرب المصاف معه ان اصر على ذلـــك ، فرحل السلطان يطلب دنيسر ، فوصله يوم السبت ثامن ربيع الأول عماد الدين بن قرا أرسلان ومعه عسكر نور الدين ــ صاحب ماردين ــ فالتقاهم السلطان واحترمهم ، ثم رحل السلطان ــ رحمة الله عليه ــ من دنيسر يوم الثلاثاء حادي عشر نحو الموصل وسار حتى نزل موضعاً يعرف بالاسماعيلات قريب الموصل بحيث يصل مـــن العسكر كـــل يوم نوبة جريدة تحاصر الموصل ، فبلغ عماد الدين بن قرا أرسلان موت أخيه نور الدين ، فطلب من السلطان دستوراً ، طمعاً في ملك أخيه فأعطاه دستوراً •

★ ★ ★

ذكر موت شاه ارمن
صاحب خلاط

ولما كان ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة توفي شاه أرمن صاحب خلاط ، وولي بعده غلام له يدعى بكتمر ، وهو الذي كان وصل رسولاً إلى خدمة السلطان بسنجار ، فعدل وأحسن الى أهل خلاط وكان متصرفا في طريقته ، فأطاعه الناس ومالوا إليه .

ولما ملك خلاط امتدت نحوه الاطماع لموت شاه ارمن ، فسار نحوه بهلوان بن الدكز ، فلما بلغه ذلك سيَّر إلى خدمة السلطان من يقرر معه تسليم خلاط إليه واندراجه في جملته ، وأعطاه ما يرضيه ، فطمع السلطان في خلاط ، وارتحل عن الموصل متوجهاً نحوها ، وسيَّر إليها الفقيه عيسى — رحمه الله — وغرس الدين قليج لتقرير القاعدة وتحريرها ، فوصلت الرسل وبهلوان قد قارب البلاد جداً ، فخوف بهلوان من السلطان وأشعره انه ان قصده سلم البلاد الى السلطان ، فطلب بهلوان اصلاحه ، وزوجه بنت له ، وولاه ، وأعاد البلاد اليه ، واعتذر الى رسل السلطان ، وعادوا من غير زبدة . وكان السلطان قد نزل على ميافارقين، يحاصرها .



ذكر اخذه ميافارقين

ثم نزل على ميافارقين بعد عوده من الموصل وقاتلها قتالاً عظيماً ، ونصب عليها مجانيق ، وكان بها إنسان يقال له الأسد ، وما قصَّر في حفظها ، لكن الأقدار لا تُغالب ، فملكها السلطان عن صلح في تاسع وعشرين من جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين .



ذكر عود السلطان إلى الموصل

ولما أيس من أمر خلاط عاد إلى الموصل ، فنزل بعيداً عنها ، وهي الدفعة الثالثة ، بموضع يقال له كفر زمار ، وكان الحرّ شديداً ، فأقام مدة .

وفي هذه المنزلة أتاه سنجر شاه من الجزيرة ، واجتمع به ، وأعاده إلى بلده ، ومرض ــ رحمه الله ــ بكفر زمار مرضاً شديداً خاف من غائلته ، فرحل طالباً حرّان وهو مريض ، وكان يتجلّد ولم يركب في محفة ، فوصل حرّان شديد المرض ، وبلغ إلى غاية الضعف ، وأيس منه ، ورجف

بموته وكان رحيله من كفر زمار في مستهل شوال سنة إحدى وثمانين وخمسمائة فوصل إليه أخوه الملك العادل من حلب ومعه أطباؤها .



ذكر صلح المواصلة معه

وكان سبب ذلك أن عز الدين أتابك ـ صاحب الموصل ـ سيّرني إلى الخليفة يستنجد به ، فلم يحصل منه زبدة وسيّر إلى العجم فلم يحصل منهم زبدة ، فلما وصلتُ من بغداد وأديتُ جواب الرسالة أيس من نجدة ، فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة ، وعلموا رقة قلبه وسرعة انقياده في ذلك الوقت ، فندبوني لهذا الأمر وبهاء الدين الربيب ، وفوّض الي أمر النسخة التي يحلف بها ، وقالوا : أمضيا ما يصل إليه جهدكما وطاقتكما ، فسرنا حتى أتينا العسكر ، والناس كلهم آيسون من السلطان .

وكان وصولنا في أوائل ذي الحجة من السنة المذكورة فاحترمنا احتراماً عظيماً ، وجلس لنا ، وكان أول جلوسه من

مرضه ، وحلف في يوم عرفة ، وأخذنا منه بين النهرين ، وكان أخذها من سنجر شاه ، أعطاها للمواصلة ، وحلفته يميناً تامة ، وحلفتُ أخاه الملك العادل ، ومات ـ قدّس الله روحه ـ وهو على ذلك الصلح لم يتغيّر عنه ، وسرنا عنه وهو بحرّان وقد تماثل .



ذكر عوده ـ رحمة الله عليه ـ إلى الشام

ولما وجد السلطان نشاطاً من مرضه رحل يطلب جهة حلب ، وكان وصوله إليها يوم الأحد رابع عشر المحرم سنة اثنتين وثمانين وخسمائة ، وكان يوماً مشهوداً لشدة فرح الناس بعافيته ولقائه ، فأقام بها أربعة أيام ، ثم رحل في ثامن عشره نحو دمشق ، ولقيه أسد الدين شيركوه بن محمد شيركوه بتل السلطان ، ومعه أخته ، وقد صحبه خدمة عظيمة وقرب زائدة ، ومنّ عليه بحمص ، وأقام أياماً يعتبر تركة أبيه ، ثم سار يطلب جهة دمشق ، وكان دخوله اليها في ثاني ربيع الأول ، وكان يوماً لم يُرَ مثله فرحاً وسروراً .

★ ★ ★

ذكر مسير الملك العادل إلى مصر

وعودُ الملكِ الظاهر إلى محروسة حلب

وذلكأن السلطان ــ قدّس الله روحه ــ رأى رواح الملك العادل إلى مصر ، فإنه كان آنس بأحوالها من الملك المظفر ، فما زال يفاوضه في ذلك ، وهو على حرّان مريض وحصل ذلــك في نفس الملك العادل ، فإنه يحب الديار المصرية .

فلما عاد السلطان إلى دمشق ومنّ الله بعافيته ، سيّر يطلب الملك العادل إلى دمشق ، فخرج من حلب جريدة ليلة السبترابع عشرين ربيع الأولسنة اثنتين وثمانينوخمسمائة، وسار حتى وصل محروسة دمشق ، فأقام بهــا في خدمة السلطان ، يجري بينهما أحاديث ومراجعات في قواعد تقرر إلى جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، واستقرت القاعدة على عَوْد الملك العادل إلى مصر ، وتسَلّم حلب منه ، فسيَّر الصنيعة لاحضار أهله من حلب المحروسة .



ذكر عود الملك الظاهر إلى محروسة حلب

وكان الملك الظاهر ، والملك العزيز ـ رحمهما الله ـ بدمشق في خدمة والدهما ، فلما استقرت القاعدة على عود الملك العادل إلى مصر استقرت على أن يكون أتابك الملك العزيز ، ويسلمه والده إليه يربي أمره ، ويسلم الملكُ العادلُ حلب الى الملك الظاهر .... ثم ان السلطان ـ رحمه الله ـ سيَّر ولده الملك الظاهر الى محروسة حلب وأعادها عليه[1] ....

وأما الملك العزيز والملك العادل فإن السلطان قرّر حالهما ، وكتب إلى الملك المظفر يخبره بمسير الملك العزيز ولده وهو صحبة عمه الملك العادل ، ويأمره بالوصول إلى الشام ، وشق ذلك على الملك المظفر حتى أظهره للناس ، وعزم على المسير إلى ديار الغرب ، إلى برقة . فقبَّح ذلك عليه جماعة من أكابر الدولة ، وعرّفوه أن عمه السلطان يخرج من يده في الحال ، والله أعلم بما يكون منه بعد ذلك،

---

(١) في الاصل : « ثم ان السلطان الملك الظاهر ـ رحمه الله ـ سير والده الى محروسة حلب وأعادها عليه » وقد أثبتنا الصيغة الواردة أعلاه لاقامة النص .

فأراه الله الحقَّ بعين البصيرة وأجاب بالسمع والطاعة ، وسلّم البلاد ، ورحل واصلاً إلى خدمة السلطان ، فسار السلطان الى لقائه فلقيه بمرج الصُّفَّر ، وفرح بوصوله فرحا شديداً ، وذلك في ثالث عشر شعبان سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ، وأعطاه حماة ، وسار إليها .

وكان قد عُقد بين الملك الظاهر وبعض بنات الملك العادل عقد نكاح ، فتمم ذلك ، ودخل بها يوم الأربعاء سادس عشر شهر رمضان .

ودخل الملك الأفضل على زوجته بنت ناصر الدين بن أسد الدين في شوال من السنة المذكورة المباركة .



ذكر غزاة أنشاها إلى الكرك

ولما كان المحرم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة عزم على قصد الكَرَك ، فسيَّر إلى محروسة حلب مَنْ يستحضر العسكر ، وبرز من دمشق في منتصف المحرم ، فسار حتى نزل بأرض منتظراً لاجتماع العساكر المصرية والشامية ،

وأمر العساكر المتواصلة اليه بشن الغارات على مافي طريقهم من البلاد الساحلية ، ففعلوا ذلك ، وأقام بأرض الكَرَك حتى وصل الحاج الشامي إلى الشام ، وأمنوا غائلة العدو .

ووصل قَفْل محروسة مصر الشتوي ، ووصل معه بيت الملك المظفر ، وما كان له بالديار المصرية .

وتأخرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالها بالافرنج بأرض انطاكية وبلاد ابن لاون ، وذلك أنه كان قد مات ، ووصى لابن أخيه ـ الملعون ـ بالملك ، وكان الملك المظفر بحماة ، وبلغ السلطان الخبر فأمرهم بالدخول إلى بلاد العدو وإخماد ثائرته ، وكان وصول تقي الدين إلى محروسة حلب في سابع عشر المحرم سنة ثلاث وثمانين ، فنزل في دار عفيف الدين بن زريق ، فأقام بها إلى ثالث صفر ، وانتقل إلى دار طمان .

وفي تاسع صفر سار الملك المظفر بعسكر حلب إلى محروسة حارم ، فأقام بها ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهمل ، فعاد السلطان إلى الشام « وكان وصول السلطان ـ رحمه الله ـ إلى السواد في خامس عشر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين » .

وفي يوم الخميس سابع عشر نزل بعشترا ، ولقيه ولده الملك الأفضل ، ومظفر الدين بن زين الدين وجميع العساكر .

وكان قد تقدم إلى الملك المظفر بمصالحة الجانب الحلبي مع الافرنج ؛ ليتفرغ البال مع العدو في جانب واحد ، فصالحهم الملك المظفر في العشر الآخر من ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وتوجه إلى حماة يطلب خدمة السلطان للغزاة التي عزم عليها ، فسار ومَنْ اجتمع به من العساكر الشرقية في خدمته . وهم : عسكر الموصل مقدمهم مسعود بن الزعفراني ، وعسكر ماردين ؛ إلى أن أتوا عشترا في العشر الأوسط من ربيع الآخر من السنة المذكورة ، فلقيهم السلطان واحترمهم وأكرمهم .

وفي منتصف ربيع الآخر من سنة ثلاث وثمانين عرض السلطانُ العسكرَ لأمر قد عزم عليه على تلّ يعرف بتل تسيل ، وتقدّم إلى أرباب الميمنة بحفظ موضعهم ، وإلى أصحاب الميسرة بذلك ، وإلى أصحاب القلب بمثله ــ قدّس الله روحه ــ فما كان أحرصه على نصر الإسلام .

★ ★ ★

ذكر وقعة حطين المباركة على المؤمنين

وكانت في يوم السبت رابع وعشرين ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة . وذلك أن السلطان رأى أن نعمة الله عليه باستقرار قدمه في الملك وتمكين الله إياه في البلاد ، وانقياد الناس لطاعته ، ولزومهم قوانين خدمته ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهد والاجتهاد في إقامة قانون الجهاد، فسيَّر إلى سائر العساكر واستحضرها، واجتمعوا إليه بعشترا في التاريخ المذكور، وعرضهم ورتَّبهم، واندفع قاصداً نحو بلاد العدو المخذول في وسط نهار الجمعة سابع عشر من ربيع الآخر من السنة المذكورة ، وكان أبدا يقصد بوقعاته الجُمَع لاسيما أوقات صلاة الجمعة ، تبركاً بدعاء الخطباء على المنابر ، فربما كانت أقرب إلى الإجابة .

فسار في ذلك الوقت على تعبية الحرب ، وكان بلغه أن العدو المخذول لما بلغهم أن السلطان قد جمع العساكر اجتمعوا بأسرهم في مرج صفورية بأرض عكا ، فقصدوا نحو المصاف معهم ، فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية

عند قرية تسمى الصَّنَّبْرة . ورحل من هناك . ونزل غربي طبرية على سطح الجبل بتعبية الحرب منتظراً أن الافرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه ، فلم يتحركوا من منزلتهم .

وكان نزوله في هذه المنـزلة يوم الاربعاء الحـادي والعشرين من ربيع الآخر المذكور ، فلما رآهم لا يتحركون نزل جريدة على طبرية ، وترك الاطلاب بحالها قبالة وجهة العدو ، ونازل طبرية ، وزحف عليها فهجمها . وأخذها في ساعة من نهار ، وامتدت الايدي اليها بالنهب والاسـر والحريق والقتل واحتمت القلعة وحدها .

ولما بلغ العدو ما جرى على طبرية لم يأخذهم الصبر دون اجابة الحمية ، فرحلوا من وقتهم وساعتهم ، وقصدوا طبرية للدفع عنها ، فأخبرت الطلائع الاسلامية الامراء بحركة الافرنج . فسيَّروا الى السلطان من عرفه ذلك ، فتـرك على طبرية من يحفظ قلعتها ، ولحق العسكر هو ومن معه، فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منهـا ، وذلك في أواخر الخميس الثاني والعشرين من ربيع الآخر المذكـور .

وحال الليل بـين الفئتين فتبايتا على مصاف شاكين في السلاح الى صبيحة الجمعة ثالث وعشرين ، فركب العسكران وتصادما ، وعملت الجاليشية وتحركت الاطلاب ، والتحم القتال ، واشتد الامر ، وذلك بأرض قرية تسمى اللوبيا ، وضاق الخناق بالقوم ، هذا وهم سائرون كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون . وقد أيقنوا بالويل والثبـور ، وأحست أنفسهم أنهم في غد زوار القبور .

ولم يزل الحرب يلتحم ، والفارس مع قرنه يصطدم، حتى لم يبق الا الظفر . ووقوع الوبال على من كفر ، فحال بينهما الليل وظلامه ، وجرت في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة ، والوقائع الجسيمة ، ما لم يحك عمن تقدم ، وبات كل فريق في سلاحه ينتظر خصمه في كل ساعة وقد أقعده التعب عن النهوض ، وشغله النصب عن الحبو فضلا عن الركوض .

حتى كان صباح السبت الذي بورك فيه فطلب كل من الفريقين مقامه ، وعلست كل طائفة أن المكسورة منهما مدحورة الجنس معدومة النفس ، وتحقق المسلمون أن من

ورائهم الاردن ، ومن بين أيديهم بلاد القوم ، وأن لا ينجيهم الا الله تعالى .

وكان الله قد قدر نصر المؤمنين فيسره ، وأجراه على وفق ما قدره ، فحملت الاطلاب الاسلاميةمن الجوانب، وحمل القلب ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين ، « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » .

وكان القومص[1] ذكي القوم وألمعيهم ، فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه ، ولم يشغله ظن محاسنة جنسه عن نفسه ، فهرب في أوائل الامر قبل اشتداده ، وأخذ طريقه نحو صور ، وتبعه جماعة من المسلمين ، فنجا وحده ، وأمن الاسلام كيده ، واحتاط أهل الاسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب ، وأطلقوا عليهم السهام، وعاملوهم بالصفاح ، فانهزمت منهم طائفة ، فتبعها أبطال المسلمين ، فلم ينج منهم واحد ، واعتصمت الطائفة الاخرى

---

(1) القومص : كلمة لاتينية تعني الامير ، وكانت في الاصل تعني مرافق الملك .

بتل يقال له تل حطين ، وهي قرية عنده وعندها قبر شعيب عليه وعلى سائر الانبياء الصلاة والسلام ، فضايقهم المسلمون على التل ، وأشعلوا حولهم النيران ، وقتلهم العطش ، وضاق بهم الامر ، حتى كانوا يستسلمون للاسر خوفا من القتل ، فأسر مقدموهم ، وقتل الباقون وأسروا وكان فيمن سلم وأسر من مقدميهم الملك جفري ، والبرنس أرناط ، وأخو الملك ، وألبرنس ــ وهو صاحب الشوبك ــ وابن الهنفري ، وابن صاحبة طبرية ، ومقدم الداوية ، وصاحب جبيل ، ومقدم الاسبتار[1] .

وأما الباقون من المقدمين فانهم قتلوا ، وأما الادوان فانهم انقسموا الى قتيل وأسير ، ولم يسلم منهم الا من أسر ، وكان الواحد العظيم منهم يخلد الى الاسر خوفا على نفسه ، ولقد حكى لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصا واحدا معه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرا يجرهم وحده

(١) في الاصل : الاستبار ولعله خطأ مطبعي ، والفرسان الاسبتاريون حسب اللفظ العربي هم فرسان صليبيون كان مقرهم في القدس بدار يأوي اليها مرضى المسيحيين ، ومؤسس الفرقة ب. جيرارد عام ١٠٩٩ م .

لخذلان وقع عليهم . فأما الذين بقوا من مقدميهم فنذكر حديثهم .

أما القومص الذي هرب فانه وصل الى طرابلس ، فأصابه ذات الجنب فأهلكه الله بها .

وأما مقدمو الاسبتار والداوية[1] فان السلطان اختار قتلهم . فقتلوا عن بكرة أبيهم .

وأما البرنس أرناط فكان السلطان قد نذر أنه ان ظفر به قتله . وذلك أنه كان عبر به بالشوبك قَفْل من الديار المصرية في حالة الصلح . فنزلوا عنده بالامان . فغدر بهم وقتلهم . فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين . فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وبلغ ذلك السلطان ، فحمله الدين والحمية على أنه نذر ان ظفر به قتله .

ولما فتح الله تعالى عليه بالنصر والظفر ، جلس السلطانُ في دهليز الخيمة ، فإنها لم تكن نُصبت ، والناس يتقربون إليه بالأسرى وبمن وجدوه من المقدمين .

---

(1) الفرسان الداوية : هم المعروفون باسم فرسان المعبد .

ونُصبت الخيمة . وجلس فرحاً مسروراً شاكراً لما أنعم الله عليه ، ثم استحضر الملكَ جفري وأخاه والبرنس أرناط، وناول الملك جفري شربة من جُلاّب بثلج ، فشرب منها ، وكان على أشد حال من العطش . ثم ناولْ بعضها البرنسَ أرناط ، فقال السلطان للترجمان :

قل للملك : أنت الذي تسقيه وإلا أنا ما سقيته .

وكان على جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أمِنَ . فقصد بذلك الجري على مكارم الأخلاق .

ثم أمرهم بسيرهم إلى موضع عُيِّن لنزولهم . فمضوا وأكلوا شيئاً ، ثم عاد فاستحضرهم ولم يبقَ عنده أحد سوى بعض الخـدم ، واستحضرهم وأقعد الملـك في الدهليز ، واستحضر البرنس أرناط ، وواقفه على ما قال .

وقال له : ها أنا أستنصر لمحمد عليه الصلاة والسلام . ثم عرض عليه الإسلامَ ، فلم يفعل .

ثم سلَّ النّمجَاة[1] وضربه بها ، فحلَّ كتفه ، وتممَّ

(1) النمجاة والنمشة : هي الخنجر المقوس واصلها فارسي .

عليه مَنْ حضر ، وعجَّل الله بروحه إلى النـار ، فأُخذ ورُمي على باب الخيمة .

فلما رآه الملكُ وقد خُرج به على تلك الصورة لم يشك في أنه يثني به فاستحضره السلطـان وطيَّب قلبه ، وقال : لم تَجْرِ عادةُ الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فإنه تجاوز حدَّه ، فجرى ما جرى .

وبات الناس في تلك الليلة على أتم سرور ، وأكمـل حبور ، ترتفع أصواتهم بالحمد لله والشكر له . والتكبير والتهليل حتى طلع الصبحُ في يوم الأحد .



ذكر اخذ قلعة طبرية

ولما كان يوم الأحد الخامس والعشرين من ربيع الآخر نزل ـ قدَّس الله روحه ـ على طبرية وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها ، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء .

★ ★ ★

ذكر اخذ عكا

ثم رحل ــ قدّس الله روحه ــ طالباً عكا ، وكان نزوله عليها يوم الاربعاء سلخ ربيع الآخر ، وقاتلها بكرة الخميس مستهل جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين ، فأخذها ، واستنقذ مَنْ كان فيها من الأسارى ، وكانوا زهاء أربعة آلاف نفر ، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر والبضائع والتجائر ، فإنها كانت مظنة التجار ، وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة ، وأخذوا نابلس وحيفا وقيسارية وصفّورية والناصرة ، وكان ذلك لخلو الرجال بالقتل والأسر .

ولما استقرت قواعد عكا ، واقتسم الغانمون أموالها وأسراها سار السلطان يطلب تبنين .



ذكر اخذ تبنين

فنزل عليها يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى وهي قلعة منيعة ، فنصب عليها المناجيق ، وضيق عليها بالزحف الخناق ، وكان بها رجال أبطال شديدون في دينهم ، فاحتاجوا إلى معاناة شديدة ، ونصره الله عليهم ، وتسلمها

يوم الأحد ثامن عشر من الشهر المذكور عنوة ، وأسر من بقي بها بعد القتل ، ثم رحـل منها الى مدينة صيدا فنزل عليها ، ومن الغد تسلمها وهو يوم الأربعاء العشرين من جمادى المذكور .

★ ★ ★

ذكر اخذ بيروت

ثم أقام عليها بحيث قرر قاعدتها وسار السلطـان حتى أتى بيروت ، فنازلها يوم الخميس الثاني والعشرين مـن جمادى الأولى من سنة ثلاث وثمانين ، فركب عليها القتال والزحف . وضيّق عليهم الأمر حتى أخذها يوم الخميس التاسع والعشرين مـن جمادى الأولى ، وتسلّم أصحابه جُبَيْلاً وهو على بيروت .

ولما فرغ باله من هذا الجانب رأى قَصْدَ عسقلان ، ولم يَرَ الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها ومارسها في هذا الوقت ، لأن العسكر كان قد تفرّق في الساحل ، وذهب كل إنسان يأخذ لنفسه شيئاً ، وكانوا قد ضرسوا من القتال وملازمة الحرب ، وكان قد اجتمع في صور كل أفرنجي بقي في الساحل، فرأى قصد عسقلان، لأن أمرها كان أيسر .

★ ★ ★

ذكر اخذ عسقلان

ونازلها يوم الأحد السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين ، وتسلّم في طريقه مواضع كثيرة كالرملة ، ويبنى والدارون ، وأقام عليها المنجنيقات ، وقاتلها قتالاً شديداً ، وتسلمها يوم السبت سلخ جمادى الآخرة من هذه السنة ، وأقام عليها إلى أن تسلّم أصحابهُ غزة وبيت جبرين والنطرون بغير قتال .

وكان بين فتوح عسقلان وأخذ الافرنج لها من المسلمين خمسة وثلاثون سنة . فان العدو ملكها في سبعة وعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .



ذكر فتح القدس المبارك الشريف

حرسها الله تعالى

ولما تسلم عسقلان والاماكن المحيطة بالقدس شمّر عن ساق الجد والاجتهاد في قصده ، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد قضاء لباناتها من النهب والغارة ، فسار نحوه معتمداً على الله ، مفوضاً أمره إلى الله،

منتهزا فرصة فتح باب الخير الذي حُثَّ على انتهازه اذا فتح ، بقوله عليه السلام : « من فُتِحَ له بابُ خير فلينتهزه، فإنه لا يعلم متى يُغلق دونه » •

وكان نزوله عليه يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين المباركة ، فنزل بالجانب الغربي ، وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيَّالة والرَجَّالة ، ولقد تحازر أهلُ الخبرة عدة مَنْ كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ألفاً ما عدا النساء والصبيان •

ثم انتقــل ـــ رحمه الله ـــ لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي ، وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين من رجب ، ونصب عليه المنجنيقات ، وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة ، حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قريةٍ شماليه •

ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لا يندفع عنهم ، وظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل وكان قد ألقي في قلوبهم مما جرى على أبطالهم ورجالهم مــن السبي والقتل والأسر،وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ ، علموا أنهم إلى ما صاروا إليه صائرون ، وبالسيف الذي قُتل به إخوانهم مقتولون ، فاستكانوا وأخلدوا إلى

طلب الأمان ، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين .

وكان تسلمه ــ قدّس الله روحه ــ له في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ، وليلته كانت المعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد ، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب كيف يسّر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيهم ــ صلى الله عليه وسلم ــ إليه ، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى ، وكان فتوحاً عظيماً شهده من أهل العلم خلقٌ عظيم ، ومن أرباب الخِرَق والطرق ؛ وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسّر الله على يده من فتوح الساحل ، وشاع قصدُه القدسي قصده العلماء من مصر ومن الشام بحيث لم يتخلف معروفٌ من الحضور ، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير ، وخُطب فيه وصُليت فيه الجمعة يوم فَتحه ، وحُطّ الصليب الذي كان على قبة الصخرة ، وكان شكلاً عظيماً ، ونصر الله الإسلام نصر عزيز مقتدر .

وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم : عن كل رجل عشرة دنانير ، وعن كل امرأة خمسة دنانير صورية ، وعن كل صغير ذكر أو أنثى ديناراً واحداً ، فمن أحضر القطيعة سَلِم بنفسه ، وإلا أُخذ أسيراً . وفرّج الله عمن

كان أسرى من المسلمين ، وكانوا خلقاً عظيماً ، زهاء ثلاثة آلاف أسير .

وأقام عليه ــ رحمه الله ــ يجمع الأموال ويفرقها على الامراء والعلماء ، وايصال من دفع قطيعته منهم الى مأمنه وهو صور .

ولقد بلغني أنه ــ رحمة الله عليه ــ رحل عنه ولم يبق معه من ذلك المال شيء ، وكان مائتي ألف دينار وعشرين ألف دينار ، وكان رحيله عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .



ذكر قصده صور

يسّر الله فتحها

ولما ثبت قدم السلطان بملك القدس والساحل قويت نفسه على قصد صور ، وعلى أنه ان أخّر أمرها ربما اشتد، فرحل سائراً إليها حتى أتى عكا ، فنزل عليهـا ، ونظر في أحوالها ، ثم رحل متوجهاً إلى صور يوم الجمعة خامس شهر رمضان ، وسار حتى أشرف عليها ، ونزل قريباً منها ينتظر وصول آلات القتال .

★ ★ ★

ذكر وصول ولده الظاهر إليه

وكان لما تحرر عزمه على قصد صور سيَّر إلى ولده الملك الظاهر يستحضره ، فإنه كان قد تركه بمحروسة حلب ليسدّ ذلك الجانب ، لاشتغاله هو بأمر الساحل ، فقدم عليه في ثامن عشر شهر رمضان على تلك المنزلة ، وسُرَّ بوصوله سروراً عظيماً .



ذكر نزوله على صور

ولما تكاملت عنده آلات القتال من المناجيق والدبابات والستائر وغير ذلك ، نزل عليها ثاني وعشرين من شهر رمضان ، وضايقها وقاتلها قتالاً عظيماً ، واستدعى أسطول مصر ، وكان يحاصرها من البحر ، والعسكر من البر .

وكان قد خلّف أخاه الملك العادل في القدس يقرِّر قواعده ، فاستدعاه فوصل اليه في خامس شوال ، وسيَّر مَنْ حاصر هونين ، فسلمت بأمان في ثالث وعشرين من شوال سنة ثلاث وثمانين .

★ ★ ★

ذكر كسرة الأسطول

وذلك أنه قدّم على الأسطول انسانا يقال له « الفارس بدران » ، وكـان ناهضاً جلداً في البحر ، وكـان رئيس البحريين[1] يقال له : « عبد المحسن » ، وكان قـد أكد عليهم الوصية في أخذ حذرهم وتيقظهم ، لئلا تنتهز منهم فرصة ، فخالفوه وغفلوا عـن أنفسهم في الليـل ، فخرج أسطول الكفار مـن صور وكبسهم ، وأخذوا المقدمين ، وأخذوا منهم خمس قطع ، وقتلوا خلقاً عظيماً من الأسطول الإسلامي ، وذلك في سابع وعشرين من شوّال .

فلما علم السلطان مـا تمّ على المسلمين ضاق عطنه ، وكان قد هجم الشتاء ، وتراكمت الأمطار ، وامتنع الناس من القتال من شدة المطر ، فجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل ، فأشاروا عليه بالرحيل ليأخذ العسكر جزءاً مـن الراحة ، ويستعدوا لهذا الأمر استعداداً جديداً ، فرأى ذلك رأياً ، فرحل عنها بعد أن رمى المنجنيقات وسيّرها ، وأحرق مالا يمكن نقله .

(1) في الاصل : البحرين ، وقد اعتمدنا اللفظ الوارد في نسخة القاهرة.

وكان رحيله يوم الأحد ثاني ذي القعدة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ففرّق العساكر ، وأعطاها دستوراً ، وسار كلٌّ قوم إلى بلادهم ، وأقام هو مع جماعة من خواصه بعكا حتى دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

★ ★ ★

ذكر نزوله على كوكب

ولما دخلت عليه هذه السنة المباركة رأى الاشتغال بهذه الحصون الباقية التي لهم ، مما يضعف قلوبَ مَن؟ في صور وينهي أمرها به ، فاشتغل بذلك ، ونزل على كوكب في أوائل المحرم سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

وكان سبب بدايته بكوكب أنه كان قد جعل حولها جماعة يحفظونها من أن تدخل إليهم قوة أو جماعة ، فخرج الافرنج ليلاً ، وأخذوا غرتهم ، وكبسوهم بعفربلا . وقتلوا مقدمهم، وكان من الأمراء،يعرف بسيف الدين أخي الجاولي، وأخذوا أسلحتهم ، فسار ـ رحمه الله ـ من عكا . ونزل عليها بمن كان قد بقي معه من خواصه بعكا ، فإنه كان قد أعطى العساكر دستوراً ، وعاد أخوه الملك العادل إلى مصر ، وعاد ولده الملك الظاهر إلى محروسة حلب ، ولقي في طريقه شدة من الثلج والبرد ، فحملت السلطان مع ذلك ـ رحمة

الله عليه ـ الحمية على النزول عليها ، وأقام يقاتلها مدة .

وفي تلك المنزلة وصلتُ إلى خدمته ، فإني كنتُ قد حججتُ سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وكانت وقعةُ ابن المقدم ، وجُرح يوم عرفة على عرفة ، لخلف جرى بينه وبين أمير الحاج كمشتكين على ضرب الكوس والدبدبة[1] ، فإن أمير الحاج نهاه عن ذلك ، فلم ينته ابن المقدم ، وكان من أكبر أمراء الشام ، وكان كثير الخير كثير الغزاة فقدَّر الله أنه جُرح يوم عرفة بعرفة ، ثم حُمل إلى منى مجروحاً ، ومات بمنى يوم الخميس ، يوم عيد الله الأكبر ، وصلي عليه في مسجد الخيف في بقية ذلك اليوم ، ودُفن بالمعلا ، وهذا من أتم السعادات ، وبلغ ذلك السلطان فشقَّ عليه .

ثم اتفق لي العود من الحج على الشام لقصد القدس وزيارته ، والجمع بين زيارة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وزيارة أبيه إبراهيم ـ عليهما السلام ـ ، فوصلت إلى دمشق ثم خرجتُ إلى القدس ، فبلغه خبرُ وصولي ، فظن أني وصلتُ من جانب الموصل في حديث ، فاستحضرني عنده ، وبالغ في الإكرام والاحترام .

---

(1) الكوس والدبدبة : نوعان من الآلات الموسيقية التي تعزف بها فرقة في العسكر .

ولما ودعته ذاهباً إلى القدس خرج إلى بعض خواصه وأبلغني تقدمه إليَّ بأن أعود أمثل في خدمته عند العود من القدس ، فظننت أنه يوصيني بمهم إلى الموصل المحروسة ، وانصرفت إلى القدس الشريف ــ حرسه الله تعالى ــ يوم رحيله عن كوكب ، ورحل لأنه علم أن هذا الحصن لا يؤخذ إلا بجمع العساكر عليه ، وكان حصناً قوياً وفيه رجال شداد من بقايا السيف ، وميرة عظيمة ، فرحل إلى دمشق ، وكان دخوله إليها في سادس ربيع الأول سنة أربع وثمانين .

وفي ذلك اليوم اتفق دخولي إلى محروسة دمشق عائداً من القدس الشريف ، فأقام ــ رحمة الله عليه ــ في دمشق خمسة أيام ، فكان له عنها ستة عشر شهراً .

وفي اليوم الخامس بلغه خبر الافرنج أنهم قصدوا جبيلا واغتالوها ، فخرج منزعجاً ساعة بلوغ الخبر ، وكان قد سيَّر إلى العساكر يستدعيها من سائر الجوانب ، وسار يطلب جبيلا ، فلما عرف الفرنج بخروجه كفّوا عن ذلك .

وكان بلغه وصولُ عماد الدين زنكي ، وعسكر الموصل ومظفر الدين بن زين الدين إلى حلب قاصدين الخدمة للغزاة، فسار نحو حصن الأكراد في طلب الساحل الفوقاني .

★ ★ ★

ذكر دخوله الساحل الأعلى

واخذه اللاذقية وجبلة وغيرها

ولما كان مستهل ربيع الآخر نزل على تلٍّ قبالة حصن الأكراد ، ثم سيَّر إلى الملك الظاهر ولده والملك المظفر بأن يجتمعا وينزلا بتيزين قبالة أنطاكية لحفظ ذلـك الجانب فسارا حتى نزلا بتيزين في هذا التاريخ ، وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت بخدمة السلطان في هـذه المنزلة ، ووصلت إليه في هذه المنزلة ، فإنه كان قد سيَّر إلى دمشق يقول : تلحقنا نحو حمص ، فخرجت على عزم المسير إلى الموصل متجهزاً لذلك فوصلت إليه امتثالاً لأمره . فلمـا حضرتُ عنده فرح بي وأكرمني .

وكنتُ قد جمعتُ له كتاباً في الجهاد بدمشق مدة مقامي فيها ، يجمع أحكامه وآدابه ، فقدَّمتُه بين يديه فأعجبه ، وكان يلازم مطالعته ، وما زلتُ أطلب دستوراً في كل وقت وهو يدافعني عن ذلك ، ويستدعيني للحضور في خدمته في كل وقت ، ويبلغني على ألسنة الحاضرين ثناءه عليَّ وذكر

إياي بالجميل ، فأقام في منزلته ربيعا الآخر جميعه ، وصعد في أثنائه إلى حصن الأكراد وحاصرها يوماً يجسها به ، فما رأى الوقت يحتمل حصاره .

واجتمعت العساكر من الجوانب ، وأغار على بلد طرابلس في هذا الشهر دفعتين ، ودخل البلاد مغيراً ومختبراً لمن بها من العساكر ، وتقوية العساكر بالغنائم ، ثم نادى في الناس في أواخر الشهر : إنا داخلون إلى الساحل وهو قليل الأزواد . والعدو يحيط بنا في بلاده من سائر الجوانب ، فاحملوا زاد شهر .

ثم سيَّر إليّ مع الفقيه عيسى ، وكشف إليّ أنه ليس في عزمه أن يمكنني من العود إلى بلادي ، وكان الله قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيته وحب الجهاد فأجبته إلى ذلك ، وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين — وهو يوم دخوله الساحل — ، وجميع ما حكيته قبلُ إنما هو روايتي عمن أثق به ممن شاهده .

ومن هذا التاريخ ما أسطر إلا ما شاهدته أو أخبرني به من أثق به خبراً يقارب العيان ، والله الموفق .

★ ★ ★

ذكر دخوله ـ رحمة الله عليه ـ إلى الساحل

ولما كان يوم الجمعة رابع عشر جمادى الأولى رحل ـ رحمة الله عليه ـ إلى تعبية لقاء العدو ، ورتّب الأطلاب، وسارت الميمنة أولاً ، ومقدّمها عماد الدين زنكي ، والقلبُ في الوسط ، والميسرة في الأخير ، ومقدّمها مظفر الدين بن زين الدين ؛ وسار الثقل في وسط العسكر حتى أتى المنزل ؛ فبتنا تلك الليلة في بلد العدو ثم رحل في صبيحة السبت ونزل على العزيمة فلم يقاتلها ، ولم يعرض لها ، ولكن أقام عليها بقية يوم السبت ورحل عنها يوم الأحد .



ذكر فتح انطرسوس

وكان وصوله ـ رحمة الله عليه ـ إلى انطرسوس ضاحي نهار الأحد سادس جمادى الأولى سنة أربع وثمانين ، فوقف قبالتها ينظر إليها ، وكان في عزمه الاجتياز ، فإنه كان له عمل بجبلة ، فاستهان بأمرها ، فعزم على قتالها ، فسيَّر مَن رد الميمنة ، وأمرها بالنزول على جانب البحر وأمر الميسرة بالنزول على البحر من الجانب الآخر ، ونزل هو في موضعه،

وصارت العساكر محدقة بها من البحر إلى البحر ، وهي مدينة راكبة على البحر ، ولها برجان[1] كالقلعتين حصينان وكـان رأس الميمنة عماد الدين صاحب سنجار ، ورأس الميسرة مظفر الدين بن زين الدين وركب ـ رحمة الله عليه ـ وقارب البلد ، وأمر النـاس بالزحف والقتـال ، فلبسوا لأْمَةَ[2] الحرب واشتد عليها الحرب والقتال والزحف ، وضايقهم وباغتهم فما استتب نَصْبُ الخيم حتى صعد الناسُ السور وأخذها سيفاً ، وغنم العسكرْ جميع مَنْ بها وما بها ، وخرج الناس والأسرى بأيديهم وأموالهم ، وترك الغلمانُ نَصْبَ الخيم ، واشتغلوا بالنهب والكسب، ووفى بقوله ـ رحمه الله تعالى ـ فإنه كان قد عرض عليه الغداء ، فقال : تتغدى بانطرسوس إن شاء الله .

وعاد إلى خيمته فرحاً مسروراً ، وحضرنا عنده للهناء بما جرى ومدّ الطعام ، وحضر الناس ، وأكلوا على عادتهم،

(١) في الاصل : برزخان ، وقد اعتمدنا اللفظ الوارد في نسخة القاهرة.

(٢) اللامة : الدرع وقد تطلق على السلاح عموما .

ورتب على البرجين الباقيين الحصار ، فسلّم أحدهما إلى مظفر الدين ، فما زال يحاصره حتى أخربه وأخذ من كان فيه ، وأمر السلطان بإخرابِ سور البلد ، وقسّمه على الأمراء ، وشرعوا في خرابه وأخذ في محاصرته البرج الآخر، وكان حصناً منيعاً مبنياً بالحجر النحيت ، وقد اجتمع من كان فيها من الخيّالة والمقاتلة فيه ، وخندقه يدور فيه الماء ، وفيه جروح كثيرة تجرح الناس عن بعد ، وليس له قدر يجرح عليه مسلم ، فرأى السلطان تأخير أمره والاشتغال بما هو أهم منه ، فاشتد في خراب السور حتى أتى عليه ، وخرّب البيعة ، وهي بيعة عظيمة عندهم محجوج إليها من أقطار بلادهم ، وأمر بوضع النار في البلد ، فأحرق جميعه حتى كانت تعج النار في آدره وبيوته ، والاصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير ، فأقام عليها يخربها إلى رابع عشر جمادى الأولى ، وسار يريد جَبلة ، وكان عرض له ولدُه الملك الظاهر في أثناء طريق جبلة ، فإنه طلبه وأمره أن يحضر معه جميع العساكر التي كانت بتيزين ، فحضر وهم في خدمته .

★ ★ ★

ذكر فتوح جَبَلة

وكان وصوله ـ قدّس الله روحه ـ إليها في ثامن عشر في يوم الجمعة ، وما استتم نزول العسكر حتى أخذ البلد ، وكان فيه مسلمون مقيمون فيه ، وقاض يحكم بينهم ، وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع ، وبقيت القلعة ممتنعة (فاشتغل بقتالها فقاتلت)[1] قتالاً يقيم عذراً لمن كان فيها . وسلمت بالأمان يوم السبت تاسع عشر جمادى الأولى ، وأقام عليها إلى ثالث عشرين الشهر المذكور ، وسار عنها يطلب اللاذقية.



ذكر فتوح اللاذقية

وكان نزولنا عليها يوم الخميس رابع عشرين جمادى الأولى سنة أربع وثمانين ، وهي بلد مليح خفيف على القلب، غير مستور ، وله ميناء مشهور ، وله قلعتان متصلتان على تـل يشرف على البلد ، فنزل ـ رحمة الله عليه ـ محدقا بالبلد ، وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من

---

(1) الجملة الواردة بين القوسين وردت في الاصل : « ونزل العسكر محدقا بالبلد وقد دخله المسلمون واشتغل بقتال القلعة فقوتلوا » ، وقد اعتمدنا النص الوارد في نسخة القاهرة .

جميع نواحيهما إلا من ناحية البلد ، واشتد القتال ، وعظم الزحف ، وارتفعت الأصوات ، وقوي الضجيج إلى آخر النهار ، وأخذ البلد دون القلعتين ، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة ، فإنه كان بلد التجار ، وفرق بين الناس الليلُ وهجومه .

وأصبح يوم الجمعة مقاتلاً مجتهداً في أخذ النقوب ، وأخذت النقوب يوم الجمعة من شمالي القلاع ، وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله — على ما حكى لي مَنْ ذرعه — ستين ذراعاً ، وعرضه أربعة أذرع ، واشتد الزحف عليهم حتى صعد الناس الجبل ، وقاربوا السور ، وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بحجارة باليد ، فلما رأى عدو الله ما حلّ به من الصغار والبوار استغاثوا بطلب الأمان عشيّة الجمعة خامس عشر الشهر ، وطلبوا قاضي جَبَلة فدخل إليهم ، ليقرر لهم قاعدة الأمان ، فأجيبوا إلى ذلك .

وكان — رحمه الله — متى طُلب منه الأمانُ لا يخل به ، فعاد الناس عنهم إلى خيامهم وقد أخذ منهم التعب ، فباتوا إلى صبيحة السبت . ودخل قاضي جَبَلة إليهم ، واستقرّ الحال معهم على أنهم يطلقون بنفوسهم وذراريهم

ونسائهم وأموالهم ــ خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب ــ وأطلق لهم دواب يركبونها إلى مأمنهم وأجيبوا الى ذلك ، ورقي عليها العَلمُ الاسلامي المنصور في بقية السبت المذكور المبارك ، وأقمنا عليها إلى يوم الأحد سابع عشرين جمادى الأولى .



ذكر فتوح صِهيَون

ورحل عن اللاذقية ظهيرة الأحد المذكورطالباً صهيون المحروسة ، فكان النزول عليها يوم الثلاثاء تاسع عشرين جمادى المذكورة ، واستدار العسكر بها من سائر نواحيها بكرة الأربعاء ، ونصب عليهــا ستة مناجيق ، وهي قلعة حصينة منيعة وهي في طرف جبل ، خنادقها أودية هائلة واسعة عميقة ، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد، مقدار طوله ستون ذراعاً ولا يبلغ ، وهو نقرٌ في صخر ، ولها ثلاثة أسوار ، سور دون رَبَضِها، وسور دونالقلعة، وسور القلعة ، وكان على قلتها عَلَمٌ طويل منصوب ، فحين

أقبل العسكر الإسلامي شاهدته وقــد وقــع ، فاستبشر المسلمون بذلك ، وعلم أنه النصر والفتح ، واشتد القتال عليها من سائر الجوانب،فضربها ولده الملك الظاهر ، صاحب حلب وكان قد لحقه قبيل جبَلة بجحفله وعسكره وحضر فتوحها ، وكان نصب على صهيون منجنيقاً قبالة قرنة من سورها قاطع الوادي ، وكان صائب الحجر ، فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعة عظيمة يسكن الصاعد في السور من الترقي إليه منها .

ولما كان بكرة الجمعة ثاني جمادى الآخرة عزم السلطان ـــ رحمة الله عليه ـــ على الزحف ، وركب وتقدم ، وأمر المنجنيقات أن تتواتر بالضرب ، وارتفعت الأصوات ، وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل ، وما كان إلا ساعة حتى رقي المسلمون على أسوار الرَبَض ، واشتد الزحف ، وعظم الأمر ، وهجم المسلمون الرَبَض .

ولقد كنتُ اشاهد الناس وهم يأخذون القدور ، وقد استوى فيها الطعام فيأكلونها وهم يقاتلون القلعة ، وانضم مَنْ كان في الربض إلى القلعة وحملوا ما أمكنهم أن يحملوه من أموالهم ، ونهب الباقي ، واستدار المقاتلة حول أسوار

القلعة ، ولما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الأمان ، ووصل خبرهم إلى السلطان ، فبذل لهم الأمان ، وأنعم عليهم ، أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم ، ويؤخذ من الرجل منهم عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن الصغير ديناران ، وسلمت القلعة — ولله الحمد — وأقام السلطان عليها حتى تسلم عدة قلاع ، كالعيذو ، وبلاطنس وغيرهما من القلاع والحصون وتسلمها النواب ، فإنها كانت تتعلق بصهيون .



ذكر فتح بكاس

ثم رحل — رحمة الله عليه — وسرنا حتى أتينا سادس جمادى الآخرة بكَاس ، وهي قلعة حصينة على جانب العاصي ، ولها نهر يخرج من تحتها ، وكان النزول بذلك المنزل على شاطىء العاصي ، وصعد السلطان جريدة إلى القلعة ، وهي على جبل يطل على العاصي . فأحدق بها من كل جانب . وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات والزحف المضايق إلى يوم الجمعة أيضاً تاسع جمادى الآخرة ، ويسَّر الله فتحها عنوة . وأسر

من فيها بعد قتل من قُتل منهم ، وغنم جميع ما كان فيها ، وكان لها قلعة تسمى الشُّغْر قريبة منها يعبر إليها منها بجسر، وهي في غاية المنعة ليس إليها طريق ، فسلطت عليها المنجنيقات من الجوانب ، ورأوا أنهم لا ناصر لهم ، فطلبوا الأمان ، وذلك في يوم الثلاثاء ثالث عشر ، وسألوا أن يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان مَنْ بأنطاكية ، فأذن في ذلك .

وكان تمام فتحها وصعود العَلم السلطاني على قلتها يوم الجمعة سادس عشر .

ثم عاد السلطان الى النقل ، وسيَّر ولده الملك الظاهر الى قلعة سرمانية يوم السبت سابع عشره ، فقاتلها قتالا شديدا ، وضايقها مضايقة عظيمة ، وتسلمها يوم الجمعة ثالث عشرين الشهر المذكور ، فاتفقت فتوحات الساحل من جبلة الى سرمانية في أيام الجمع ، وهي علامة قبول دعاء الخطباء المسلمين وسعادة السلطان حيث يسر له الفتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات ، وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية ، ولم يتفق مثلها في التاريخ .

★ ★ ★

ذكر فتح برزية

ثم سيّر السلطان جريدة الى قلعة برزية ، وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الافرنج والمسلمين ، يحيط بها أودية من سائر جوانبها ، وذرع علوها كان خمسمائة ذراع ونيفا وسبعين ذراعا ، ثم جدد عزمه على حصارها بعد رؤيتها ، واستدعى الثقل ، فكان وصول الثقل وبقية العسكر يوم السبت رابع عشرين جمادى الآخرة ، ونزل الثقل تحت جبلها .

وفي بكرة الاحد خامس عشرين منه صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمنجنيقات وآلات الحصار الى الجبل، فأحدق بالقلعة من سائر نواحيها ، وركب القتال عليها من كل جانب ، وضرب أسوارها بالمنجنيقات المتواترة الضرب ليلا ونهارا . وقاتلها حتى كان يوم الثلاثاء سابع وعشرين منه ، فقسم العسكر ثلاثة أقسام ، ورتب كل قسم يقاتل شطرا من النهار ، ثم يستريح ويتسلم القتال القسم الآخر بحيث لا يفتر القتال عنها أصلا .

وكان صاحب النوبة الاولى عماد الدين ــ صاحب سنجار ــ فقاتلها قتالا شديدا حتى استوفى نوبته ، وضرس الناس من القتال ، وتراجعوا عنه .

وتسلم النوبة الثانية السلطان بنفسه ، وركب وتحرك خطوات عدة ، وصاح في الناس ، فحملوا عليها حملة الرجل الواحد ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وقصدوا السور من كل جانب ، فلم يكن الا بعض ساعة وقد رقي الناس على الاسوار . وهجموا القلعة ، وأخذت عنوة ، واستغاثوا: « الامان » ، وقد تمكنت الايدي منهم ، فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا . ونهب جميع ما فيها ، وأسر جميع من كان فيها ، وكان قد آوى اليها خلق عظيم ، وكانت من قلاعهم المذكورة ، وكان يوما عظيما .

وعاد الناس الى خيامهم غانمين بحمد الله تعالى . وعاد السلطان الى الثقل فرحا مسرورا ، وأحضر بين يديه صاحب القلعة ، وكان رجلا كبيرا منهم ، وكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفسا ، فمنّ عليهم السلطان ورقّ لهم ، وأنفذهم الى صاحب أنطاكية ، استمالة له ، فانهم كانوا يتعلقون به ومن أهله .

★ ★ ★

ذكر فتح دَرْبَساك

ثم سار ـ قدس الله روحه ـ حتى أتى جسر الحديد ، وأقام عليه أياما ، وسار حتى نزل على دربساك يوم الجمعة ثامن شهر رجب سنة أربع وثمانين ، وهي قلعة منيعة قريبة من أنطاكية ـ يسر الله فتحها ـ فنزل عليها وقاتلها قتالا شديدا بالمنجنيقات ، وضايقها مضايقة عظيمة ، وأخذ النقب تحت برج منها . وتمكن النقب منها حتى وقع وحموه بالرجال والمقاتلة ، ووقف في الثغرة رجال يحمونها عمن يصعد فيها ، ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه ، وهم قيام عوض الجدار مُكشَّفين ، فاشتد بهم الامر حتى طلبوا الامان ، واشترطوا مراجعة أنطاكية ، وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لا غير ، ورقي عليها العلم الاسلامي يوم الجمعة أيضا ثاني عشرين رجب وأعطاها علَم الدين سليمان بن جندر ، وسار عنها بكرة السبت ثالث عشرين منه .



ذكر فتح بَغراس

وهي قلعة منيعة أقرب الى أنطاكية من دربساك ، وكانت كثيرة العدة والرجال ، فنزل العسكر في مرج لها ، وأحدق العسكر بها جريدة مع أنا احتجنا في تلك المنزلةالى يَزَكْ[1] يحفظ من جانب أنطاكية ، لئلا يخرج منها من يهاجم العسكر ، فضرب يزك الاسلام على باب أنطاكية بحيث لا يشذ عنه من يخرج منها ، وأنا ممن كان في اليزك في بعض الايام لرؤية البلد وزيارة حبيب النجار المدفون فيها ، ولم يزل يقاتل بغراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الامان على استئذان أنطاكية ، ورقي العلم السلطاني عليها في ثاني شعبان من شهور سنة أربع وثمانين .

وفي بقية ذلك اليوم عاد ــ رحمه الله ــ الى المخيم الاكبر ، وراسله أهل أنطاكية في طلب الصلح ، فصالحهم لشدة ضجر العسكر وقوة قلق عماد الدين ــ صاحب سنجار ــ في طلب الدستور ، وعقد الصلح بيننا وبين أنطاكية من بلاد الافرنج لا غير على أن يطلقوا جميع أسارى

---

(١) اليزك : لفظ فارسي معناد الطلائع

المسلمين الذين عندهم ، وكان الى سبعة أشهر ، فان جاءهم من ينصرهم والا سلموا البلد الى السلطان .

ورحل يطلب دمشق ، فسأله ولده الملك الظاهر – صاحب حلب – أن يجتاز به ، فأجابه ، وسار حتى أتى حلب حادي عشر شعبان ، وأقام بقلعتها ثلاثة أيام ، وولده يقوم بالضيافة حق القيام ، ولم يبق من العسكر الا من ناله من نعمته منال وأكثر حتى أشفق عليه والده .

وسار من حلب رابع عشر شعبان يريد دمشق ، فاعترضه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين ، وأصعده الى قلعة حماة ، واصطنع له طعاما حسنا ، وأحضر له سماع الصوفية ، وبات فيها ليلة واحدة ، وأعطاه جبلة واللاذقية .

وسار – رحمة الله عليه – على طريق بعلبك حتى أتى بعلبك ، وأقام بمرجها يوما ، ودخل الى حمامها ، وسار منها حتى أتى محروسة دمشق قبل دخول رمضان بأيام يسيرة فأقام بها حتى دخل رمضان ، وما كان يرى تبطيل وقته عن الجهاد مهما أمكنه . وكان قد بقي له من القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها : صفد وكوكب ، فرأى أن يشغل الزمان بفتح المكانين في الصوم .

★ ★ ★

ذكر فتح صَفَد

ثم سار في أوائل رمضان من محروسة دمشق يريـد صفد ، ولم يلتفت الى مفارقة الاهل والاولاد والوطن في هذا الشهر الذي يسافر الانسان أين كان فيجمتع في هـذا الشهر بأهله ؛ « اللهم انه احتمل ذلك ابتغاء مرضاتك فآته أجرا عظيما » .

فسار حتى أتى صفد في أثناء شهر رمضان المبارك ، وهي قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها، فأحدق العسكر بها ، ونصب عليها المناجيق ، وفي أثناء شهر رمضان سلمت الكرك من جانب نواب صاحبها ، وخلصوه بها من الاسر ، وكان قد أسر في وقعة حطين المباركة ، وكانت الامطار شديدة ، والوحول عظيمة ، ولم يمنعه ذلك عن جـدّه .

ولقد كنت عنده في خدمته ليلة وقد عيّن مواضع خمسة مناجيق ، حتى تنصب فقال في تلك الليلة : ما ننام حتى تنصب الخمسة .

وسلّم كل منجنيق الى قوم ، ورسله تتـواتر اليهم يخبرونه ويعرفهم كيف يصنعون حتى أظلنا الصبح ونحن في خدمته ـ رحمة الله عليه ـ وقد فرغت المنجنيقات ، ولم يبق الا تركيب خنازيرها فيهـا ، فرويت له الحديث المشهور في الصحاح ، وبشرته بمقتضاه ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « عينان لا تمسهما النار : عين باتت تحرس في سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله » .

ولم يزل القتال على صفد متواصلا بالنوب مع الصوم حتى سلمت بالامـان في رابع عشر شـوال من السنـة المذكورة .



ذكر فتح كوكب

ثم سار يريد كوكب ، فنزل على سطح الجبل ، وجرد العسكر ، وأحدق بالقلعة ، وضايقها بالكلية ، بحيث اتخذ له موضعا يتجاوزه نشاب العدو ، وبنى له حائطا من حجر وطين يستتر وراءه والنشاب يتجاوزه ولا يقدر أحد يقف

على باب خيمته الا ان يكون ملبسا ؛ وكانت الامطــار متواترة ، والوحول عظيمة ، بحيث يمنع الماشي والراكب الا بمشقة عظيمة وعانى شدائد وأهوالا من شدة الرياح وتراكم الامطار ، وكون العدو متسلطا عليهم بعلو مكانه ، وجرح وقتل جماعة ، ولم يزل راكبا مركب الجد حتى تمكن النقب من سورها .

ولما أحس العدو المخذول بالنقب وقد تمكن من السور علم أنه مأخوذ فطلب الامان ، فأجابهم الى ذلك وأمنهم ، وتسلمها في منتصف ذي القعدة ، ونزل الى الثّقل ، الى الغور وكان قد أنزل الثّقْل من شدة الوحل والريح في سطح الجبل ، فأقام بقية الشهر يراجعه أخوه الملك العادل في أشغال تخصه حتى هلّ هلال ذي الحجة ، وأعطى الجماعة دستوراً ، وسار مع أخيه الملك العادل يريد القدس الشريف ، يريد زيارته ووداع أخيه ، فإنه كان عائداً إلى مصر ، فوصلا إليه يوم الجمعة ثامــن ذي الحجة وصليا الجمعة في قبــة الصخرة الشريفة ، وصليا صلاة العيد الأعظم بها أيضاً يوم الأحد ، وعاد الى خيمه ، وأقام بقية يومه وسار يوم الاثنين حادي عشر ذي الحجة طالباً عسقلان لينظر في أحوالها ويودع أخاه

الملك العادل ، فأقام بها أياما يَلُمُّ شَعْثها ، ويصلح أحوالها ، فودّع أخاه . وأعطاه الكرك . وأخذ منه عسقلان . وعاد يطلب عكا على طريق الساحل يسر على البلاد يتفقد أحوالها ، ويودعها الرجال والعدد حتى أتى عكا ، فأقام بها معظم المحرّم سنة خمس وثمانين وخمسمائة يصلح أحوالها ، ورتّب بها بهاء الدين قراقوش والياً ، وأمره بعمارة السور والإطناب فيه ومعه حسام الدين بشارة وسار يريد دمشق بعد وصول طائفة من عسكر مصر أودعهم في عكا بصدد حفظها ، وسار حتى دخل محروسة دمشق مستهل صفر سنة خمس وثمانين وخمسمائة .

★ ★ ★

ذكر توجهه إلى شقيف ارنون

وهي السفرة المتصلة بواقعة عكا

وأقام بمحروسة دمشق حتى دخل في ربيع الأول سنة خمس وثمانين ثلاثة أيام .

ووصله في أثناء ربيع الاول رسول الخليفة الناصر لدين الله يأمره بالخطبة لولده ولي العهد ، فخطب له .

وحرر عزمه على قصد شقيف أزنون ، وهو موضع حصن قريب من بانياس ، وكان تبريزه بعد صلاة الجمعة في الثالث من ربيع ، فسار حتى نزل في مرج فلوس وأصبح يوم السبت راحلا حتى أتى مرج برغوث فنزل به ينتظر العساكر ، وأقام به والعساكر تتتابع الى حادي عشر ، ورحل حتى أتى بانياس ، ثم رحل منها حتى أتى مرج عيون فخيَّم به ، وهو قريب من شقيف أرنون ، بحيث يركب كل يوم يشارفه ويعود ، والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب وأوب ، وكان وصوله بمرج عيون في سابع عشر ربيع الأول المذكور ، فأقمنا أياماً نشرف كل يوم على الشقيف ، والعساكر الإسلامية في كل يوم تصبح متزايدة العدد والعُدَد ، وصاحب الشقيف يرى ما يتيقن معه عدم السلامة، فرأى أن إصلاح حاله معه قد تعين طريقاً إلى سلامته فنزل بنفسه، وما أحسسنا به الا وهو قائم على باب خيمةالسلطان، فأذن له ، فدخل ، واحترمه وأكرمه ، وكان من كبار الفرنجية وعقلائها ، وكان يعرف العربية وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث ، وبلغني أنه كان عنده مسلم

يقرأ له ، ويفهمه ، وكـان عنده ثانٍ ، فحضر بـين يدي السلطان ، وأكل معه الطعام ، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه ، وأنه تحت طاعته ، وأنه يسلم المكان إليه مـن غير تعب ، واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق ، فإنه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الافرنج ، وإقطاعا بدمشق يقوم به وبأهله ، وأن يُمكَّن من الاقامة بموضعه ، وهو يتردد ال الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي كـان فيه حـ يتمكن من تخليص أهله وجماعته من صور ويأخذ مغل هذ السنة فأجيب إلى ذلك كله ، وأقام يتردد إلى خدمة السلطان في كل وقت ، ويناظرنا في دينه ونناظره في بطلانه ؛ وكان حسن المحاورة متأدباً في كلامه .

وفي أثناء ربيع الأول وصل الخبر بتسليم الشَّوْبك ، وكان قد أقام السلطان عليه جمعاً عظيماً يحاصرونه مدة سنة حتى فرغت أزوادهم ، وسلموه بالأمان .



ذكر اجتماع الافرنج لقصد عكا

وكان السلطان اشترط على نفسه حين تسلم عسقلان أنه إن أمر الملكُ من بها بتسليمها أطلقه ، فأمرهم بتسليمها ، وسلموها . فطالبه الملك بإطلاقه فأطلقه وفاءً بالشرط ، ونحن على حصن الأكراد . أطلقه من انطرسوس ، واشترط عليه أن لا يُشهر في وجهه سيفاً أبداً . وأنه يكون مملوكه وطليقه وغلامه أبداً . فنكث ــ لعنه الله ــ ، وجمع الجموع ، وأتى صور يطلب الدخول إليها . فخيَّم على بابها يراجع المركيس الذي كان بها في ذلك . والمركيس اللعين كان بصور وكان رجلاً عظيماً ذا رأي وبأس شديد في دينه ، وصرامة عظيمة فقال : إنني نائب الملوك الذين وراء البحر ، وما أذنوا لي في تسليمها إليك .

وطالت المراجعة ، واستقرت القاعدة بينهمـا على أن يتفقوا جميعاً على المسلمين ، وتجتمع العساكر التي بصور وغيرها من الافرنجية على المسلمين ، وعسكروا على باب صور .



ذكر الواقعة التي استشهد فيها ايبك الأخرس

وذلك أنه لما كان يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة بلغ السلطان من جانب اليَزَكَ أن الأفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا ، وهي الأرض التي نحن عليها ، فركب السلطان ، وصاح الجاووش بالناس ، فركب العسكر يريدون نحو اليزك ، فوصل العسكر وقد انفصلت الوقعة ؛ وذلك أن الافرنج عبر منهم جماعةٌ الجسرَ ، فنهض لهم اليَزَكَ الإسلامي ، وكانوا في قوة وعدة ، فقاتلوهم قتالاً شديداً ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وجرحوا أضعاف ما قتلوا ، ورموا في النهر جماعة ، فغرقوا ، ونصر الله الإسلام وأهله ، ولم يقتل من المسلمين إلا مملوك السلطان يعرف بأيبك الأخرس ، فإنه استشهد في ذلك اليوم ، وكان شجاعاً بطلاً باسلاً مجرباً للحرب ، فارساً ، تقنطر به فرسه ، فلجأ إلى صخرة ، فقاتل بالنشاب حتى فني ، ثم بالسيف حتى قتل جماعةً ، ثم تكاثروا عليه فقتلوه ، وَوَجدَ السلطان عليه لمكان شجاعته ، وعاد السلطان ـ رحمه الله ـ من الوقعة إلى خيم كانت قد ضربت له قريب المكان جريدة .

★ ★ ★

ذكر وقعة ثانية

استشهد فيها جمع من رَجّالة المسلمين

وأقام في تلك الخيم إلى يوم الأربعاء تاسع عشر جمادى الأولى المذكور ، وركب يتشوف على القوم ـ على عادته ـ فتبع العسكرَ خلقٌ عظيم من الرجّالة والغزاة والسوقة ، وحرص على ردهم ، فلم يفعلوا ، ولقد أمر مَنْ ضَرَبَهم فلم يفعلوا ، وخاف عليهم ، فإن المكان كان حرجاً ليس للراجل فيه ملجأ ، ثم هجم الرجالة إلى الجسر ، وناوشوا العدو ، وعبر منهم جماعةٌ إليهم ، وجرى بينهم قتال شديد ، واجتمع لهم من الافرنج خلق عظيم وهم لا يشعرون ، وكشفوهم بحيث علموا أن ليس وراءهم كمين ؛ فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان ، فإنه كان بعيداً منهم ، ولم يكن معه عسكر ، فإنه لم يخرج بتعبية قتال ، وإنما ركب مستشرفاً عليهم على العادة من كل يوم .

ولما بان له الوقعة ، وظهر له غبارها بعث اليهم من كان معه ليردوهم ، فوجدوا الأمر قد فرط ، والافرنج قد تكاثروا حتى خافت منهم السرية التي بعثها السلطان،وظفروا بالرجالة ظفرة عظيمة ، وجرى بينهم وبين السرية قتال شديد ، وأسروا

جماعة من الرجالة ، وقتلوا جماعة ، وعد من كان قتل من الرجالة في ذلك اليوم فكان عدد الشهداء مائة وثمانين نفراً .

وقتل أيضاً من الافرنج عدة عظيمة ، وغرق أيضاً منهم عدة ، وكان ممن قتل منهم مقدم الألمانية ، فإنه قتل في ذلك اليوم ، وكان عندهم عظيماً محترماً .

واستشهد من المسروفين من المسلمين ابن البصار[1] ، وكان شاباً حسناً شجاعاً ، واحتسبه والده في سبيل الله ، ولم تقطر من عينه عليه دمعة — على ما ذكر جماعة لازموه — ، وهذه الوقعة لم يتفق للافرنج مثلها في هذه الوقائع التي حضرتها وشاهدتها ، ولم ينالوا من المسلمين مثل هذه العدة في هذه المدة .

★ ★ ★

ذكر مسيره إلى عكا جريدة

وسبب ذلك

ولما رأى السلطان — رحمه الله — ما حل بالمسلمين في تلك الوقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم ، وقرر معهم أنه يهجم على الافرنج ، ويعبر الجسر ، ويقاتلهم ويستأصل

(1) ابن النصار عند ابن واصل في مفرج الكروب .

شأفتهم ، وكان الافرنج قد رحلوا من صور ، ونزلوا قريب الجِسر ، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ، فلما صمَّم العزم على ذلك أصبح في يوم الخميس سابع عشرين جمادى الاولى على ذلك وركب وسار ، وتبعه الناس والمقاتلة والعساكر ، ولما وصل أواخر الناس إلى أوائلهم وجدوا اليزك عائداً ، وخيامهم قد قلعت ، فسألوا عن سبب ذلك . فذكروا أن الافرنج رحلوا راجعين إلى صور ملتجئين إلى سورها ، معتصمين بقربها ، وذلك أنهم لما بلغهم ذلك عادوا خائبين ، فوقع الغنى عن اليزك وعادوا ، ولما رأى السلطان ذلك منهم رأى أن يسير إلى عكا ليلحظ ما بُني من سورها ، ويحث على الباقي ، ويعود ، فراح على تبنين ولم يرجع على مرج عيون فمضى إلى عكا ، ورتَّب أحوالها ، وأمر بتتمة عمارة سورها وإتقانه وإحكامه ، وأمرهم بالاحتياط والاحتراز ، وعاد إلى العسكر المنصور الى مرج عيون ، وأقام بمرج عيون منتظرا مهلة صاحب الشقيف ، لعنه الله .

★ ★ ★

ذكر اخذ صاحب الشقيف

وسبب ذلك

ثم استفاض بين الناس أن صاحب الشقيف فعل ما فعله من المهلة غيلة ، لا أنه صادق في ذلك ، وإنما قصد به تدفيع الزمان ، وظهرت لذلك مخائل كثيرة من الحرص في تحصيل الميرة واتقان الأبواب وغير ذلك ، فرأى السلطان أن يصعد إلى سطح الجبل ليقرب من المكان ويكون بمرأى منه ، يمنع من دخوله نجدة وميرة إليه وأظهر أن سبب ذلك شدة حمو الزمان ، والفرار من وخم المرج ، وكان انتقاله إلى سطح الجبل ليلة الجمعة ثاني عشر جمادي الآخرة ، وقد مضى من الليل ربعه،فما أصبح صاحب الشقيف إلا والخيمة مضروبة ، وبقي بعض العسكر بالمرج على حاله ، فلما رأى صاحب الشقيف قرب العسكر منه ، وعلم أنه قد بقي من المدة بقية جمادى الآخرة حدثته نفسه أنه ينزل إلى خدمة السلطان ويستعطفه ، ويستزيده في المدة ، وتخايل له بما رأى من أخلاق السلطان ولطافتها أن ذلك يتم ، فنزل إلى الخدمة ، وعرض المكان ، وقال : « المدة لم يبق منها إلا

اليسير ، وأي فرق بين التسليم اليوم أو غداً ، ومن المصلحة أن يبعث السلطان من يتسلم المكان ، وأظهر أنه بقي من أهله جماعة بصور ، وانهم على الخروج منها في هذه الأيام .

وأقام في الخدمة ذلك اليوم إلى الليل ، وعاد صاعداً إلى القلعة ولم يظهر له السلطان شيئاً ، وأجراه على قاعدته بمقتضى مدته ، ثم عاد ونزل بعد أيام وقد قرب انتهاء المدة والفراغ منها ، وطلب الخلوة بالسلطان ، وسأل منه أن يمهله تمام السنة تسعة أشهر ، فأحسَّ السلطانُ منه بالغدر ، فماطله وما آيسه ، وقال :

« نفكر في ذلك ، ونجمع الجماعة ونأخذ رأيهم ، وما ينفصل الحال عليه نعرفك » وضرب له خيمة قريبة من خيمته ، وأقام عليه حرساً لا يشعر بهم وهو على غاية من الإكرام والاحترام له والمراجعة والمراسلة بينهم في ذلك الفن مستمرة حتى انقضت الأيام ، وطولب بتسليم المكان ، فكشف له أنك أضمرت الغدر ، وجددت في المكان عمائر ، وحملت إليه ذخائر ، فأنكر ذلك ، واستقرت القاعدة على أن ينفذ من عنده ثقته ، وينفذ السلطان ثقته ليتسلّم المكان،

وينظر هل تجدد فيه شيء من البناء أم لا ، فمضوا إليه فلم يلتفت أصحابه المقيمون فيه إليهم ، ووجدوه قد جدّد باباً للسور لم يكن ، فأقيم الحرس الشديد عليه ، وأظهر ذلك ومنع من الدخول إلى الخدمة ، وقيل له : قد انقضت المدة ولابد من التسليم ، وهو يمغلط عن ذلك ويدافع عن الجواب عنه ثم عاد وأنفذ إليهم صاحبه يأمرهم بالتسليم ، فأظهروا له العصيان عليه ، وقالوا : نحن نواب المسيح لا نوابك ، فاحتيط على الحصن ، وأقيم عليه من خارجه يزك يحفظ الداخل إليه والخارج منه .

ولما كان الأحد ثامن عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وثمانين وفيه اعترف هو بانتهاء المدة فإنه كان عنده مجاحدة فيما مضى ، قال : « أنا أمضي وأسلم المكان » . فأركب بغلة وسار .

وسار معه جمعٌ كثير من الأمراء والأجناد حتى أتى الشقيف ، وأمرهم بالتسليم فأبوا ، وطلب منهم قسيساً ، فخرج إليه ، وحدّثه بلسانه ثم عاد ، واشتد امتناعهم بعد عود القسيس إليهم ، فظنّ أنه أكّد الوصية على القسيس

في الامتناع ، وأقام ذلك اليوم والحديث يتردد ، فلم يلتفتوا
وأعيد إلى المخيم المنصور ، وسيّر من ليلته إلى بانياس
وأحيط عليه في قلعتها ، وأحدق العسكر بالشقيف مقاتلين
ومحاصرين ، وأقام صاحب الشقيف ببانياس إلى سادس
رجب ، واشتد حنق السلطان عليه بسبب تضييع ثلاثة أشهر
عليه وعلى عسكره ، ولم يعملوا فيها شيئاً ، فأحضر إلى
المخيم ، وهُدِّد ليلة وصوله بأمور عظيمة ، فلم يفعل .

وأصبح السلطان صبيحة الأربعاء ثامن رجب ورقي إلى
سنام الجبل بخيمه ، وهو موضع أشرف على الشقيف عن
المكان الذي كان فيه أولاً وأبعد من الوخم ، وكان قد
تغيّر مزاجه .

ثم بلغنا بعد ذلك أن الافرنج بصور ومن كان مع الملك
قد ساروا نحو النواقير يريدون جهة عكا ، وأن بعضهم نزل
بالاسكندرية ، وجرى بينهم وبين رجالة المسلمين مناوشة ،
وقتل منهم المسلمون نفراً يسيراً وأقاموا هناك .



ذكر وقعة عكا

ـ يسّر الله فتحها ـ وسبب ذلك

ولما بلغ السلطان حركة الافرنج إلى تلـك الجهة عظم عليه ولم يرَ المسارعة خوفاً من أن يكون قصدهم ترحيله عن الشقيف لا قصد المكان ، فأقام مستكشفاً للحال إلى يوم الأحد ثاني عشر رجب،فوصل قاصدٌ وأخبر أن الافرنج في بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا عين بصة ووصل أوائلهم إلى الزّيب ، فعظم ذلـك عنده وكتب إلى سائر أربـاب الأطراف يتقدم إلى العساكر الإسلامية بالمسير إلى المخيم المحروس . وعاد فجدّد الكتب والحث . وتقدم إلى الثقل أن سار الليل .

وأصبح هو صبيحة الاثنين ثالث عشر سائراً إلى عكا على طريق طبرية ، إذ لم يكن ثمّ طريقٌ يسع العسكر إلا هو ، وسيَّر جماعة على طريـق تبنين يستشرفون العدو ، ويواصلون باخباره ، وسرنا حتى أتينـا الحولة منتصف النهار ، فنزل بها ساعة ، ثم رحل ، وسار طول الليل حتى أتى موضعاً يقال له : المنية صباح الثلاثاء الرابع عشر رجب ،

وفيه بلغنا نزول الإفرنج على عكا يوم الاثنين ثالث عشر ، وسيَّر صاحبَ الشقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة على سوء صنيعه .

وسار هو جريدةً من المنية حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذه على طريق تبنين بمرج صفوريَّة ، فإنه كان واعدهم إليه وتقدم إلى الثقــل أن يلحقه إلى مرج صفورية ، ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة ، وبعث بعض العسكر ، ودخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها ، ولم يزل يبعث إليها بعثاً بعد بعث حتى حصل فيها خلقٌ كثير وعدد وافر ، ورتَّب العسكر ميمنة وميسرة وقلباً ، وسار من الخروبة ، وكان قد نزل عليها يوم الأربعاء خامس عشر الشهر ، فسار منها حتى أتى تلاً يقال له : تل كيسان في أوائل مرج عكا ، فنزل عليه وأمر الناس أن ينزلوا به على هذه التعبية،وكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو وآخر الميمنة مقارب تل العياضية،فاحتاط العسكر الإسلامي المنصور بالعدو المخذول ، وأخذ عليهم الطرق من الجوانب، وتلاحقت العساكر الإسلامية ، واجتمعت ، ورتب اليزَك الدائم والجاليش في كل يوم مع العدو ، وحصر العدو في

خيامه من كل جانب ، بحيث لا يقدر أن يخرج منها واحد إلا ويُجرح أو يُقتل •

وكان معسكر العدو المخذول على شطر من عكا ، وخيمة ملكهم على تل المصلبين قريباً من باب البلد ، وكان عدد راكبهم ألفي فارس ، وعدد راجلهم ثلاثين ألفاً ، وما رأيتُ من أنقصهم عن ذلك ، ورأيتُ من حزرهم بزيادة على ذلك، ومددهم من البحر لا ينقطع ، وجرى بينهم وبين اليَزَك مقاتلات عظيمة متواترة ، والمسلمون يتهافتون على قتالهم ، والسلطان يمنعهم من ذلك إلى وقته ، والبعوث من عساكر المسلمين تتواصل ، والملوك والأمراء من الأقطار تتتابع ، فأول من وصل الأمير الأجل الكبير مظفر الدين بن زين الدين، ثم قدم بعده الملك المظفر تقي الدين صاحب حماة في جحفله، وتتابعت العساكر الإسلامية •

وفي أثناء هذه الحال توفي حسام الدين سنقر الأخلاطي باسهال شديد ، وأسف المسلمون عليه أسفاً شديداً ، فإنه كان شجاعاً ديّناً ــ رحمه الله ــ يوم الاثنين سابع عشري رجب على تــل بمرج عكا مشرف على العياضية • ثم إن

الافرنج لما تكاثروا واستفحل أمرهم ، واستداروا بعكا بحيث منعوا من الدخول والخروج منها ، وذلك في يوم الخميس سلخ رجب .

ولما رأى السلطان ـ قدّس الله روحه ـ ذلك عظم لديه، وضاق صدره ، وثارت همته العالية في فتح الطريق إلى عكا لتستمر السابلةُ إليها بالميرة والنجدة وغير ذلك ، فأحضر أمراءه وأصحاب الرأي من دولته ، وشاورهم في مضايقة القوم ، وانفصل الحال على أنه يضايقهم مضايقة شديدة بحيث ينفصل أمرهم بالكلية ، وينفتح[1] الباب والطريق إلى عكا ، فباكرهم صبيحة الجمعة مستهل شعبان سنة خمس وثمانين ، وسار مع العسكر وقد رتّبه للقتال : ميمنةً وميسرةً وقلباً ، وضايقهم مضايقة شديدة .

وكانت الحملة بعد صلاة الجمعة اغتناماً لدعاء خطباء المسلمين على منابرهم ، وجرت حملات عظيمة وقلبات كثيرة وانتشر عسكر العدو إلى أن ملك التلول ، وكانت ميسرة

(١) في الإصل : وانفتح وقد اعتمدنا نسخة القاهرة .

عسكرهم إلى النهر الحلو آخذةً إلى البحر ، وميمنتهم قبالة القلعة الوسطى التي لعكا ، واتصل الحرب إلى أن حال بين الفئتين هجومُ الليل ، وبات الناسُ على حالهم من الجانبين، شاكين في السلاح ، تحرس كلٌّ طائفة نفسَها من الطائفة الأخرى إلى أن أصبح صباح السبت ثاني شعبان •



ذكر فتح الطريق إلى عكا

ولما كانت صبيحة السبت أصبح الناس على القتال ، وأنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين الى البحر من شمال عكا ، ولم يكن هناك للعدو خيم ، لكن عسكره كان قد امتد جريدة شمالي عكا الى البحر ، فحمل شجعان المسلمين على عسكر الفرنج الواقف على شمالي عكا فانكسروا بين أيديهم كسرة عظيمة ، وقتلوا منهم جمعا كثيرا ، وانكف السالمون منهم الى خيامهم ، وهجم المسلمون خلفهم الى أوائل خيامهم ووقف اليزك الاسلامي مانعا من أن يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل اليه داخل ، وانفتح الطريق الى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك الى

باب قراقوش ــ الذي جدده ــ ، وصار الطريق مهيعا يمر فيه السوقي ومعه الحوائج ، ويمر به الرجل الواحد والمرأة، واليزك بين الطريق وبين العدو •

ودخل السلطان ــ رحمه الله ــ في ذلك اليوم الى عكا ، ورقي على السور ، ونظر الى عسكر العدو من تحت السور ، وفرح المسلمون بنصر الله ، وخرج العسكر الذي كان بها في خدمة السلطان ؛ واستدار العسكر الاسلامي حول العسكر الافرنجي ، وأحدقوا به من كل جانب •

ولما استقر ذلك تراجع الناس عن القتال ، وذلك بعد صلاة الظهر ، لسقي الدواب ، وأخذ الراحة ، وكان نزولهم على أنهم اذا أخذوا حظا من الراحة عادوا الى القتال لمناجزة العدو بالكلية لما أخذهم منهم من الطمع وضاق الوقت في ذلك اليوم ، وأخذ الضجر والتعب من الناس ، فلم يرجعوا الى القتال في ذلك اليوم ، وبات الناس على أنهم يصبحونهم بكرة الاحد الى القتال ، رجاء المناجزة بالكلية ، واحتوى العدو في خيامه بحيث لم يظهر منهم أحد •

ولما كانت بكرة الاحد ثالث شعبان تعبى الناس للقتال،

وأحدقوا بالعدو ، وعزموا على مهاجمة القوم ، وعلى أن يترجل الامراء ومعظم العسكر ، ويقاتلوا العدو في خيامه، فلما تهيأوا لذلك رأى بعض الامراء تأخير ذلك الى بكرة الاثنين رابع شعبان ، وأن يدخل الراجل كله الى داخل عكا ، ويخرجوا مع العسكر المقيم بالبلد من أبواب البلد على العدو من ورائه ، وتركب العساكر الاسلامية من خارج من سائر الجوانب ، ويحملوا حملة الرجل الواحد ،والسلطان يعاني هذه الامور بنفسه ويصافحها بذاته ، لا يتخلف عن مقام من هذه المقامات ، وهو من شدة حرصه ووفور همته كالوالدة الثكلى .

ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة الى يوم الاحد المذكور لم يتناول من الغذاء الا شيئا يسيرا ـ لفرط اهتمامه ـ ، وفعلوا ما كان عزموا عليه ، واشتدت منعة العدو ، وحمى نفسه في خيامه ، ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس بالنفائس ، وتمطر سماء حربها الرؤوس من كل رئيس ومترائس ، حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان .



تاخر الناس إلى تل العياضية

ولما كان يوم الجمعة ثامن شعبان عزم العـدو على الخروج بجموعهم ، فخرج راجلهم وفارسهم ، وامتـدوا على التلول ، وساروا الهوينى غير مفرطين في نفوسهم ، ولا خارجين من راجلهم ، والرجالة حولهم كالسور المبني ، يتلو بعضهم بعضا ، حتى قاربوا خيام اليزك •

ولما رأى المسلمون ذلك واقدام العدو عليهم تداعت الشجعان ، وتنازلت الكماة الى الاقران ، وصاح السلطان — قدس الله روحه — بالعساكر الاسلامية •

— « يا للاسلام •• » •

فركب الناس بأجمعهم،ووافق راجلهم فارسهم وشابهم شيخهم ، وحملوا حملة الرجل الواحد على العدو المخذول، فعاد ناكصا على عقبيه ، والسيف يعمل فيهم ، والسالم منهم جريح ، والعاطب طريح ، مشتدون هزيمة ، يعثر جريحهم بقتيلهم ، ولا تلوي الجماعة منهم على قتيلهم[1] ، حـتى

---

(1) في الاصل : على قبيلهم ، وقـد اعتمدنا اللفظ الوارد في نسخة القاهرة

لحق بخيامهم من سلم منهم ، وانكفوا عن القتال أياما ، وكان قصاراهم أن يحفظوا نفوسهم ، ويحرسوا رؤوسهم .

واستمر فتح طريق عكا ، والمسلمون يترددون اليها .

وكنت ممن دخل ، ورقي على السور ، ورمى العدو بما يسر الله تعالى من فوق السور .

ودام القتال بين الفئتين متصلا الليل مع النهار حتى كان الحادي عشر من شعبان .

ورأى السلطان توسيع الدائرة عليهم ، لعلهم يخرجون الى مصارعهم ، فنقل الثقل الى تل العياضية وهو تل قبالة تل المصلبين ، مشرف على عكا وخيام العدو .

وفي هذه المنزلة توفي حسام الدين طمان ، وكان من شجعان المسلمين ــ رحمه الله ــ ودفن في سطح هذا التل ، وصليت عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان ، وقد مضى من الليل هزيع ، رحمه الله .

* * *

ذكر وقعة جرت للعرب مع العدو

وكان سبب ذلك أنه بلغنا أن جمعا من العدو يخرجون للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه ؛ فأكمن السلطان لهم جماعة من العرب ، وقصد العرب لخفتهم على خيامهم وأمنه عليهم ، فخرجوا ولم يشعروا بهم ، فهجموا عليهم ، وقتلوا منهم خلقا عظيما ، وأسروا جماعة ، وأحضروارؤوسا عدة بين يديه ، فخلع عليهم ، وأحسن اليهم وكان ذلك في يوم السبت سادس عشر شعبان .

وفي عشية ذلك اليوم وقع بين العدو وبين أهل البلد حرب عظيم قتل فيه جمع عظيم من الطائفتين ، فطال الامر بين الفئتين ، وما يخلو يوم عن جرح وقتل وسبي ونهب ، وأنس البعض بالبعض بحيث أن كانت الطائفتان تتحدثان وتتركان القتال ، وربما غنى البعض ورقص البعض ، لطول المعاشرة ، ثم يرجعون الى القتال بعد ساعة .



ذكر المصاف الأعظم على عكا

يسّر الله فتحها

وذلك أنه لما كان يوم الاربعاء الحادي عشرين من شعبان تحركت عساكر الافرنج حركة لم يكن لهم مثلها عادة ، فارسهم وراجلهم ، وكبيرهم وصغيرهم ، واصطفوا خارج خيمهم : قلبا وميمنة وميسرة ، وفي القلب الملك وبين يديه الانجيل محمولا مستورا بثوب أطلس مغطى ، يمسك أربعة أنفس أربعة أطرافه ، يسيرون بين يدي الملك .

وامتدت الميمنة في مقابلة الميسرة التي لعسكر الاسلام من أولها الى آخرها ، وامتدت ميسرة العدو في مقابلة ميمنتنا الى آخرها ، وملكوا رؤوس التلال ، وكان طرف ميمنتهم الى النهر ، وطرف ميسرتهم الى البحر .

وأما العسكر الاسلامي المنصور فان السلطان لما بصر بالقوم أمر الجاويش أن ينادي في النـاس : يـا للإسلام ، وعساكر موحدين .

فركب الناس وقد باعوا أنفسهم بالجنة ، وامتـدت الميمنة الى البحر ، كل قوم يركبون ويقفون بين يدي خيامهم، والميسرة الى النهر كذلك أيضا .

وكان ـ رحمه الله ـ قد أنزل الناس في الخيم ميمنة وميسرة وقلبا ، تعبيـة الحرب ، حتى اذا وقعت صيحـة لا يحتاجون الى تجديد ترتيب ، وكان هو في القلب ، وفي ميمنة القلب ولده الملك الافضل ، ثم ولده الملك الظافر ـ عز نصره ـ ثم عسكر المَواصِلة يقدمهم ظهير الدين ابن البلنكري ، ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين بن نور الدين صاحب الحصن ؛ ثم حسام الدين بن لاجين ـ صاحب نابلس ـ ؛ ثم الطواشي قايماز النجمي ، وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة ، وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره ، وهو يطل على البحر .

وأما أوائل الميسرة : فكان مما يلي القلب سيف الدين علي بن أحمد المشطوب ، من كبار ملوك الاكراد ومقدميهم

والامير مجلي ، وجماعة المهرانيـة والهكارية ، ومجاهد الدين يرنقش ــ مقدم عسكر سنجار ــ ، وجماعة من المماليك ؛ ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفله وعسكره .

وأواخر الميسرة : كبار المماليك الاسدية ، كسيف الدين يازكج ، ورسلان بغا ، وجماعة الاسدية والذين يضرب بهم المثل . وفي مقدم القلب الفقيه عيسى وجمعه . هـذا والسلطان يطوف على الاطلاب بنفسه يحثهم على القتال ، ويدعوهم الى النزال ، ويرغبهم في نصرة دين الله .

ولم يزل القوم يتقدمون ، والمسلمون يقدمون ، حتى علا النهار ، ومضى منه مقدار أربع ساعات ، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين ، فأخرج لهم الملك المظفر الجاليش ، وجرى بينهم قلبات كثيرة ، وتكاثروا على الملك المظفر ــ وكان في طرف الميمنة على البحر ــ ، فتراجع عنهم شيئا ، اطماعا لهم ، لعلهم يبعدون عن أصحابهم ، فينال منهم غرضا ، فلما رآه السلطان قد تأخر ظن بـه ضعفا ، فأمده بأطلاب عدة من القلب حتى قوي جانبه ،

وتراجعت ميسرة العدو ، واجتمعت على تل مشرف على البحر .

ولما رأى الذين في مقابلة القلب ضعف القلب ومن خرج منه من الاطلاب داخلهم الطمع ، وتحركوا نحو ميمنة القلب، وحملوا حملة الرجل الواحد ، راجلهم وفارسهم ، ولقد رأيت الرجالة تسير سير الخيالة ولا يسبقونها وهم يسوقون خببا .

وجاءت الحملة على الديار بكرية ــ كما يشاء الله تعالى ــ وكان بهم غرة عن الحرب ، فتحركوا بين يدي العدو وانكسروا كسرة عظيمة ، وسرى الامر حتى انكسر معظم الميمنة ، واتبع العدو المنهزمين الى العياضية ، فانهم استداروا حول التل ، وصعد طائفة من العدو الى خيم السلطان ، فقتلوا طست در[1] كان هناك .

وفي ذلك اليوم استشهد اسماعيل المكبس ، وابن رواحة رحمهما الله .

---

(1) طست در : أصلها فارسي وتعني المسؤول عن غسل أيدي السلطان وثيابه .

وأما الميسرة ، فانها ثبتت لأن الحملة لم تصادفها •

وأما السلطان فأخذ يطوف على الاطلاب فينهضهم ، ويعدهم الوعود الجميلة ، ويحثهم على الجهاد ، وينادي فيهم : « يالَلإسلام » ، ولم يبق معه الا خمسة أنفس ، وهو يطوف على الاطلاب ، ويتجاوز الصفوف ، وأوى الى تحت التل الذي كان عليه الخيام •

وأما المنهزمون من العسكر فانه بلغت هزيمتهم الى القحوانة[1]،قاطع جسر طبرية ، وأم منهم قوم الى محروسة دمشق ، فأما المتبعون لهم فانهم اتبعوهم الى العياضية ، فلما رأوهم قد صعدوا الجبل رجعوا عنهم وجاءوا عائدين الى عسكرهم ، فلقيهم جماعة من الغلمان والخربندية[2] والساسة منهزمين على بغال الحمل ثم جاءوهم فقتلوا جماعة، وقتل منهم جماعة فان السوق كان فيه خلق عظيم ، ولهم سـلاح •

وأما الذين صعدوا الى الخيم السلطانية فانهم لـم يلتمسوا فيها شيئا أصلا سوى أنهم قتلوا من ذكرناه وهم

(١) لعله يريد الأقحوانة ، وهي موضع على شاطىء بحيرة طبرية •

(٢) ويقال الخربندلية وهم جماعة من تركمان بلاد الشام •

ثلاثة نفر ، ثم رأوا ميسرة الاسلام ثابتة فعلموا أن الكسرة لم تتم ، فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم •

وأما السلطان ـ رحمة الله عليه ـ فانه كان واقفا تحت التل ومعه نفر يسير ، وهو يجمع الناس ليعودوا الى الحملة على العدو ، فلما رأى الافرنج نازلين من التل أرادوا لقاءهم ، فأمرهم بالصبر الى أن ولّوا ظهورهم ، واشتدوا يطلبون أصحابهم ، فصاح في الناس ، وحملوا عليهم ، وطرحوا منهم جماعة ، فاشتد الطمع فيهم ، وتكاثر الناس وراءهم حتى لحقوا أصحابهم ، والطرد وراءهم ، فلما رأوهم منهزمين والمسلمون وراءهم في عدد كثير ظنوا أن من حمل منهم قد قتل ، وأنهم انما نجا منهم هذا النفر فقط ، وأن الهزيمة قد عادت عليهم ، فاشتدوا في الهرب والهزيمة ، وتحركت الميسرة عليهم •

وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة وتحايت الرجال وتداعت ، وتراجع الناس من كل جانب وكذب الله الشيطان ، ونصر الإيمان ، وظل الناس في قتل وطرح ، وضرب وجرح ، إلى أن اتصل المنهزمون السالمون إلى عسكر العدو ، فهجم المسلمون عليهم في الخيام ، فخرج منهم أطلاب كانوا

أعدوها ـ خشية من مثل هذا الأمر ـ مستريحة ، فردوا المسلمين ، وكان التعب قد أخذ من الناس ، والخوف والعَرَقُ قد ألجمهم ، فرجع الناسُ عنهم بعد صلاة العصر. يخوضون في القتلى ودمائهم إلى خيامهم ، فرحين مسرورين.

وعاد السلطانُ في ذلك اليوم الى خيمته فرحاً مسروراً ، وجلسوا في خيمته يتذاكرون مَنْ فُقد منهم ، وكان مقدارُ مَنْ فُقد من الغلمانِ والمجهولين مائة وخمسين نفراً ، ومن المعروفين استشهد في ذلك اليوم ظهير الدين ـ أخو الفقيه عيسى ـ ولقد رأيتُه وهو جالس يضحك ، والناسُ يعزونه وهو يقول : « هذا يوم الهناء لا يوم العزاء » ; وكان هو قد وقع عن فرسه وأركبه ، وقُتل عليه جماعة من أقاربه . وقُتل في ذلك اليوم الأمير مجلي . هذا الذي قُتل من المسلمين .

أما من العدو المخذول فحُزر قتلاهم بسبعة آلاف نفر ، ورأيتُهم وقد حملوا إلى شاطىء النهر ليلقوا فيه . فحزرتهم بدون سبعة آلاف ....

وأما العدو المخذول فإنه علد الى خيمه وقد قتلت شجعانهم ، وطُرحت مقدموهم ، وفُقدت ملوكهم ؛ فأمر

السلطان أن يخرج من عكا عجل يسحبون عليه القتلى منهم إلى طرف النهر ليلقوا فيه .

ولقد حكى لي بعضُ مَنْ ولي أمر العَجَل أنه أخذ خيطاً ، وكان كلما أخذ قتيلا عقد عقدةً ، فبلغ عددُ قتلى الميسرة إلى أربعة آلاف ومائة وكسر ، وبقي قتلى الميمنة وقتلى القلب لم يعدّهم فانه ولي أمرهم غيره، وبقي من العدو بعد ذلك مَن حمى نفسه ، وأقاموا في مخيمهم لم يكترثوا بجحافل المسلمين وعساكرهم ، وشذّت من عساكر المسلمين خلقٌ كثير بسبب الهزيمة ، فإنه ما رجع منها إلا رجل معروف يخاف على نفسه ، والباقون هربوا في حال سبيلهم . وأخذ السلطان ـ رحمه الله ـ في جمع الأموال المنهوبة وإعادتها إلى أصحابها ، وأقام المنادية في العساكر ، وقرَن النداءَ بالوعيد والتهديد ، وهو يتولى تفرقتها بنفسه بين يديه ، واجتمع من الأقمشة عدد كثير في خيمته ، حتى إن الجالس في أحد الطرفيْن لا يرى الجالس في الطرف الآخر ، وأقام من ينادي على من ضاع منه شيء ، فحضر الخلق وصار مَنْ عرف شيئاً وأعطى علامته حلف عليه وأخذه من الجل والمخلاة إلى الهميان والجوهرة ، ولقي

من ذلك مشقة عظيمة ، ولا يرى ذلك إلا نعمة من الله تعالى يشكر عليها ويسابق بيد القبول إليها ، ولقد حضرت يوم تفرقة الأقمشة على أربابها ، فرأيتُ سوقاً للعدل قائمة لم يُرَ في الدنيا أعظم منها ، وكان ذلك في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان . وعند انقضاء هذه الواقعة وسكون ثائرتها أمر السلطان بالثقل ، حتى تراجع إلى موقع يقال له الخروبة ، خشيةً على العسكر من أراييح القتلى وآثار الوقعة من الوخم ، وهو موضع قريب من مكان الوقعة ، إلا أنه أبعد عنها في المكان الذي كان نازلاً فيه بقليل ، وضُربت له خيمة عند الثقل ، وأمر اليَزَك أن يكون مقيماً في المكان الذي كان نازلاً فيه ، وذلك في يوم الخميس تاسع عشرين شعبان . واستحضر الأمــراء وأرباب المشورة في سلخ الشهر ، ثم أمرهم بالإصغاء إلى كلامه ، وكنتُ من جملة الحاضرين ، ثم قال . بسم الله والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد نزل في بلدنا،وقد وطيء أرض الإسلام، وقد لاحت لوايح النصرة عليه ان شاء الله تعالى،وقد بقي في هذا الجمع اليسير ولابد من الاهتمام بقلعه، والله قد أوجب علينا ذلك، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك

العادل ، وهو واصل ، وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن ينفتح البحر جاءه مدد عظيم ، والرأي كل الرأي عندي مناجزتهم ، فليخبرنا كل منكم ما عنده في ذلك . وكان ذلك في ثالث عشر تشرين من الشهور الشمسية ؛ فامتخضت الآراء ، وجرى تجاذب في أطراف الكلام . وانفصلت آراؤهم على أن المصلحة تأخير العسكر إلى الخروبة ، وأن يبقى العسكر أياماً حتى يستجم من حمل السلاح ، وترجع نفوسهم إليهم ، فقد أخذ منهم التعب ، واستولى على نفوسهم الضجر وتكليفهم أمراً على خلاف ما تحمله القوى لا تؤمن غائلته ، والناس لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخيل ، والخيل قد ضجرت من عَرْك اللجم ، وسئمت نفوسها ذلك ، وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها ، ويصل الملك العادل ، ويشاركنا في الرأي والعمل ، ونستعيد من شذ من العساكر ، وتجمع الرجّالة ليقفوا في مقابلة الرجّالة وكان بالسلطان ــ رحمه الله ــ التياث مزاجي ، قد عراه من كثرة ما حمل على قلبه ، وما عاناه من التعب بحمل السلاح والفكر في تلك الأيام ، فوقع به ما قالوه ورآه مصلحة ، وكان انتقال العسكر إلى الثقل يوم الاثنين ثالث

رمضان وانتقال السلطان ــ رحمة الله عليه ــ تلك الليلة ، وأقام يصلح مزاجه ، ويجمع العساكر ، وينتظر أخاه الملك العادل إلى يوم الاثنين عاشر رمضان .



ذكر وصول خبر ملك الألمان

لعنه الله

ولما دخل رمضان من شهور سنة خمس وثمانين وخمسمائة وصل من جانب حلب المحروسة كتب من ولده الملك الظاهر ، يخبر فيها أنه قد صح أن ملك الألمان خرج إلى القسطنطينية في عدة عظيمة ، قيل : مائتا ألف ، وقيل : مائتان وستون ألفاً ، يريد البلاد الإسلامية ، واشتد ذلك على السلطان ــ قدس الله روحه ــ وعظم عليه ، ورأى استنفار الناس للجهاد ، وإعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة ، فاستندبني لذلك ، وأمرني بالمسير إلى صاحب سنجار ، وصاحب الجزيرة ، وصاحب الموصل ، وصاحب إربل ، واستدعائهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم وأمرني بالمسير إلى محروسة بغداد لإعلام خليفة الزمان بذلك ، وتحريك

عزمه على المعاونة . وكان الخليفة إذ ذاك الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله ، وكان مسيري في ذلك المعنى في حادي عشر رمضان ، ويسَّر الله تعالى الوصول إلى الجماعة وإبلاغ الرسالة إليهم ، فأجابوا بنفوسهم . وسار عماد الدين زنكي ـ صاحب سنجار ـ بعسكره وجَمْعه في تلك السنة ، وسار ابن أخيه سنجر شاه ـ صاحب الجزيرة ـ يجرُّ عسكره وسيَّر صاحبُ الموصل عزّ الدين ابنه علاء الدين خرم شاه بمعظم عسكره وسار صاحب إربل بنفسه وعسكره وحضرتُ الديوان العزيز ببغداد وأنهيتُ الحال كما رُسم، ووُعد كل جميل، وعدتُ إلى خدمته ـ رحمة الله عليه ـ وكان وصولي إليه في يوم الخميس خامس ربيع الأول من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة وكنتُ قد سبقت العساكر ، فعرَّفته بإجابتهم بالسمع والطاعة ، وتأهبهم بالمسير ، فسُرَّ بذلك ، وفرح فرحاً شديداً .



ذكر وقعة الرمل

الذي على جانب نهر عكا

ولما كان صفر من تلك السنة خرج السلطان ـ قدّس الله روحه ـ يتصيّد ، مطمئن النفس ببعد المنزلة عن العدو ، فأوغل في الصيد ، وبلغ ذلك العدو ، فأخذوا غرة العسكر ، واجتمعوا وخرجوا يريدون الهجوم على العسكر الإسلامي، فأحسّ بهم الملكُ العادل ـ قدّس الله روحه ـ فصاح بالناس ، وركبت العساكر من كل جانب ، وحمل على القوم ، وجرتْ مقتلةٌ عظيمة ، قُتل فيها منهم خلقٌ عظيم وجرح جمع عظيم ، ولم يُقتل من معروفي المسلمين إلا مملوك للسلطان ، استشهد في ذلك اليوم يدعى أرعشا . وكان رجلاً صالحاً ـ رحمه الله ـ وبلغ الخبرُ السلطان ـ رحمه الله ـ فعاد منزعجاً ، فوجد الحرب قد انفصل وعاد كل فريق الى حزبه ، وعاد العدو خائباً خاسراً . ولله الحمد والمنة وهذه الوقعة لم أحضرها فإني كنت مسافراً ، وما مضى من الوقعات شاهدتُ منها ما يشاهده مثلي ، وعرفتُ الباقي مثل ما يعرفه الحاضر في هذه الأمور .

★ ★ ★

ذكر وفاة الفقيه عيسى

رحمه الله

وهي مما بلغني ولم أكن حاضرها ، وذلك أنه مرض مرضاً كان يتعاهده وهو ضيق النفس ، وعرض له إسهال" فأضعفه ، ولم يقطع صلاة ولم يغب ذهنه عنه إلى أن مات ـ على ما بلغني ممن حضره ـ وكان رحمه الله كريماً ، شجاعاً حسن المقصد كثير الغرام بقضاء حوائج المسلمين توفي ـ رحمه الله تعالى ـ طلوع فجر الثلاثاء تاسع ذي القعدة من شهور سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، رحمه الله.



نادرة

ومن نوادر هذه الوقعة أن مملوكاً كان للسلطان يدعى سراسنقر ، وكان شجاعاً قد قَتَل من أعداء الله خلقاً عظيماً ، وفتك فيهم ، فأخذوا في قلوبهم من نكايته فيهم ، فمكروا به ، وتجمعوا له ، وكمنوا له ، وخرج إليه بعضهم ، وتراءوا له ، فحمل عليهم حتى صار بينهم ، ووثبوا عليه من سائر جوانبه ، فأمسكوه وأخذ واحد" بشعره وضرب الآخر رقبته

بسيفه ، فإنه كان قتل له قريباً فوقعت الضربةُ في يد الماسك بشعره فقطعت يده ، وخلّى عن شعره ، فاشتد هارباً حتى عاد إلى أصحابه ، وأعداء الله يشتدون عدواً خلفه ، فلم يلحقه منهم أحد ، وعاد سالماً ولله الحمد « وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا » .



ذكر تسليم الشقيف

سنة ست وثمانين وخمسمائة

ولما كان يوم الأحد خامس عشر ربيع الأول علم الفرنج المستحفظون بالشقيف أنه لا عاصم لهم من أمر الله ، وأنهم إن أخذوا عنوة ضُربت رقابهم فطلبوا الأمـان ، وجرت مراجعات كثيرة في قاعدة الأمان ، وكانوا قد علموا من حال صاحبهم أنه قد عُذّب أشد العذاب ، فاستقرت القاعدة على أن الشقيف يُسلَّم ، ويُطلق صاحبه وجميعُ من فيه من الفرنج ، ويُترك ما فيه من أنواع الأموال والذخائر، فتسلم في التاريخ المذكور . وكان الحديث قد جرى مراراً حتى استقرت القاعدة في التاريخ المتقدم ، وعاد صاحب صيدا

والفرنج الذين كانوا بالشقيف إلى صور ، ولما رأى ــ رحمة الله عليه ــ اهتمام الفرنج من أقطار بلادهم بالمكان،وتصويب سـهام عزائمهم نحوه ، اغتنم الشتـاء وانقطاع البحر ، وحصَّل في عكا من المير والذخائر والعدد والرجال ما أمن معه عليها مع تقدير الله تعالى ، وتقدم إلى النواب بمحروسة مصر أن عمروا لها أسطولاً عظيماً يحمل خلقاً كثيراً ، وسار حتى دخل عكا مكايدة للعدو ومراغمة له ، وأعطى العساكر دستوراً في تلك السنة طول الشتاء ، ليستجموا ويستريحوا، وأقام هو ــ رحمه الله ــ مع نفر يسير قبالة العدو ، وقد حال بين العسكرين شدة الوحول ، وتعذر عليهم بسبب ذلك وصول بعضهم إلى بعض .



طريفة

كان لما بلغ خبر العدو قصده عكا جمع الأمراء وأصحاب الرأي بمرج عيون ، وشاورهم فيما يصنع ، وكان رأيـه ــ رحمه الله ــ أنه قال : « المصلحة مناجزة القوم ومنعهم من النزول على البلد ، وإلا إن نزلوا جعلوا الرجَّالة سوراً

لهم وحفروا الخنادق ، وصعب علينا الوصول إليهم ، وخيف على البلد منهم » . وكانت إشارة الجماعة : « أنهم إذا نزلوا واجتمعت العساكر قلعناهم في يوم واحد » . وكان الأمر كما قال السلطان ــ رحمه الله ــ والله لقد سمعتُ منه هذا القول ، وشاهدتُ الفعل كما قال رحمه الله ، وهذا يوافق معنى قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « إن من أمتي لمحدثين ومكلمين وإن عمر لمنهم » . ولم يزل السلطان ــ رحمه الله ــ مجداً في الإنفاذ إلى عكا بالمير والعدد والأسلحة والرجال حتى انقضى الشتاء ، وانفتح البحر ، وحان زمان القتال ، فكتب إلى العساكر يستدعيها من الأطراف . ولما تواصل أوائل العسكر ، وقوي جيش الإسلام ، رحل السلطان ــ رحمة الله عليه ــ نحو العدو ، فنزل بتل كيسان ، وذلك في ثامن عشر ربيع الأول من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة ، ورتّب العسكر قلباً وميمنة وميسرة ، وكان أول الميمنة ولده الملك الأفضل ، وأخذت العساكر في التواصل ، والنجد في التواتر ، فوصل رسول الخليفة .

★ ★ ★

ذكر وصول رسول الخليفة

ولما كان يوم الاثنين سادس عشر ربيع الأول من سنة ست وثمانين وخمسمائة وصل رسول بغداد ، وهو شاب شريف ، وصل معه حملان من النفط ، وجماعة من النفّاطين الزرّاقين[1] ، ووصل معه رقعة من الديوان العزيز النبوي ـ مجّده الله تعالى ـ يتضمن الإذن للسلطان ـ رحمة الله عليه ـ في أن يقترض عشرين ألف دينار من التجار ينفقها في الجهاد ، ويحيل بها على الديوان العزيز ، فقبل جميع ما وصل مع الرسول ، واستعفى عن الرقعة والتثقيل بها ، رحمة الله عليه . وفي ذلك اليوم بلغ السلطان ـ رحمه الله ـ أن الفرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه ، فركب إليهم ليشغلهم بالقتال عن البلد ، فركب وقاتلهم قتالاً شديداً إلى أن فصل بين الطائفتين الليلُ ، وعاد كلٌّ فريقٍ إلى أصحابه . ورأى السلطان ـ رحمة الله عليه ـ قوة العساكر الإسلامية ، ورأى بُعْدَ المكان عن العدو ، فخاف أن يُهجم البلد ، فيتمَّ عليه أمرٌ ، فرأى الانتقال إلى تل العجول بالعسكر

---

(١) الزراق من يقذف النفط من انبوبته وهي الزراقة .

والثقل بالكلية . وكان الانتقال إليه في الخامس والعشرين من ربيع الأول مـن سنة ست وثمانين وخمسمائة . وفي صبيحة هذا اليوم وصل من البلد عَوَّام معه كتبٌ تتضمن أنه قد طَمَّ العدوُّ بعضَ الخندق ، وقد قوي عزم العدو على منازلة البلد ومضايقته ، فجدَّد الكتب إلى العساكر بالحثِّ على الوصول ؛ وعبَّأ العساكر تعبئة القتال ، وزحف إلى العدو ليشغله عن ذلك .



ذكر وصول الملك الظاهر ولده

رحمه الله

ولما كانت سحرة ليلة الجمعة سابع عشري ربيع الأول من سنة ست وثمانين وخمسمائة وصل ولدهُ الملكُ الظاهرُ ــ رحمه الله ــ غياثُ الدين غازي ــ صاحبُ حلب ــ جريدةً إلى خدمته ــ قدَّس الله روحه ــ معاجلةً للبرّ ؛ وترك عسكره في المنزلة ، وخدم والده ، وبلَّ شوقه منه . وعاد إلى عسكره سحرة السبت ثامن عشرين منه ، وسار بهم حتى وصل في ذلك اليوم بجحفله ، وقد أظهر الزينة . ولبسوا لأمة الحرب ، ونشرت الأعلام والبيارق ، وضربت

الكوسات ، ونعرت البوقات ، وعرض بين يدي والده ــ رحمة الله عليه ــ وقد ركب إلى لقائه في المرج ، وسار بهم حتى وقف بهم على العدو ، وشاهدوا من جند الله ما أزعجهم وأقلقهم . وفي أواخر ذلك اليوم قدم مظفر الدين بن زين الدين جريدةً أيضاً ، مسارعةً للخدمة ، ثم عاد إلى عسكره. وقدم معه في يوم الأحد في لأمة الحرب ، فعرضهم السلطان ــ رحمة الله عليه ــ وسار بهم حتى وقف بهم على العدو . وعادوا إلى منزلتهم . وكان ــ رحمه الله ــ ما يقدم عسكر إلا ويعرضهم ، ويسير بهم إلى العدو ، وينزل بهم في خيمته . ويمد لهم الطعام ، وينعم عليهم بما تطيب بــه قلوبهم إذا كانوا أجانب ، ثم تضرب خيامهم حيث يأمر ، وينزلون بها مكرمين .



لطيفة تدل على سعادة ولده الملك الظاهر

رحمه الله وقدّس روح والده

وذلك أن العدو كان قد اصطنع ثلاثة أبرجة من خشب وحديد وألبسها الجلود المسقاة بالخل على ما ذكر بحيث لا تنفذ فيها النيران ، وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال

نشاهدها من مواضعنا عالية على أسوار البلد . وهي مركبة على عجل ، يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر على ما قيل ، ويتسع سطحها لأن ينصب عليه منجنيق ، وكان ذلك قد عمل في قلوب المسلمين وأودعها من الخوف على البلد مالا يمكن شرحه ، وآيس الناس من البلد بالكلية . وتقطعت قلوب المقاتلة فيه ، وكان قد فرغ عملها . ولم يبق إلا جرّها إلى قريب السور . وكان السلطان قد أعمل فكره في إحراقها وإهلاكها ، وجمع الصناع من الزرّاقين والنفاطين وباحثهم في الاجتهاد في إحراقها ووعدهم عليه بالأموال الطائلة والعطايا الجزيلة ، وضاقت حيلهم عن ذلك ، وكان من جملة مَنْ حضر شاب نحّاس دمشقي ، ذكر بين يديه ــ رحمه الله ــ أن له صناعة في إحراقها . وأنه إن مُكّن من الدخول إلى عكا ، وحصل له الأدوية التي يعرفها أحرقها ، فحصل له جميع ما طلبه ، ودخل إلى عكا ، وطبخ الأدوية التي حصلها مع النفط في قدور من النحاس ، حتى صار الجميع كأنه جمرة نار . ولما كان يوم وصول ولده الملك الظاهر ــ رحمه الله ــ ولعله كان عقيب وصوله ، ضُرب البرجُ الواحد بِقِدْرٍ ، فلم يكن إلا أن وقعت فيه واشتعل من ساعته ووقته ، وصار كالجبل العظيم من

النار طالعة ذؤابته نحو السماء ، فاستغاث المسلمون بالتهليل والتكبير وغلبهم الفرح حتى كادت عقولهم أن تذهب ، وبينما الناس ينظرون ويتعجبون إذ رُمي البرج الثاني بالقدرة الثانية ، فما كان إلا أن وصلت إليه واشتعلت كالتي قبلها ، فاشتد ضجيج الفئتين وارتفعت الأصوات إلى السماء ، وما كان إلا ساعة حتى ضرب الثالثة فالتهب وغشي الناس من السرور والفرح ما حرك ذوي الأحلام والنهى منهم حركة الشباب الرعناء ، وركب السلطان ـ قدّس الله روحه ـ وركبت العساكر ميمنةً وميسرةً وقلباً ، وكان أواخر النهار ، وسار حتى أتى عسكرَ القوم ، وانتظر أن يخرجوا فيناجزهم ، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم : « من فُتح له بابُ خير فلينتهزه » فلم يظهر العدو من خيامهم ، وحال بين الطائفتين الليلُ وعاد كلُّ فريق إلى حزبه ، ورأى الناسُ ذلك ببركة قدوم الملك الظاهر ـ رحمه الله ـ واستبشر والده بغرته ، وعلم أن ذلك أثر صلاح سريرته ، واستمر ركوب السلطان إليهم في كل يوم ، وطلب نزالهم وقتالهم وهم لا يخرجون من خيامهم ، لعلمهم ببشائر النصر والظفر بهم ، والعساكر الإسلامية تتواتر وتتواصل .

★ ★ ★

ذكر وصول الاصطول

ودخوله إلى عكا

ولما كان ظهيرة ذلك اليوم ـ وهو يوم وصول علاء الدين ـ ظهرت في البحر قلوع كثيرة ، وكان ـ رحمة الله عليه ـ في نظره وصول الأصطول من محروسة مصر، فانه كان قد أمر بتعميره ووصوله، فعلم أنه هو، وركب السلطان ـ رحمه الله ـ وركب الناس في خدمته، وتعبأ تعبئة القتال، وقصد مضايقة العدو ليشغله عن قصد الاصطول ولما علم العدو وصول الاصطول استعد له، وعمّر له اصطولا لقتاله ومنعه من دخول عكا، وخرج أصطول العدو واشتد السلطان ـ رحمة الله عليه ـ في قتالهم من خارج ، وسار الناس على جانب البحر تقوية للاصطول وايناسا لرجاله ، والتقى الاصطولان في البحر والعسكران في البر ، واضطرمت نار الحرب ، واستعرت وباع كل فريق روحه براحته الأخروية ، وزجح حياته الأبدية على حياته الدنيوية ، وجرى بين الأصطولين قتال شديد ، انقشع عن نصرة الأصطول الإسلامي ـ ولله الحمد ـ على عدو الله ، وأخذ منه شاني وقتل مَنْ به ونهب جميع مافيه ، وظفر من العدو بمركب أيضاً كان واصلاً من قسطنطينية .

ودخل الاصطول المنصور الى عكا ، وكان قـد صحبه مراكب من الساحل فيها مير وذخائر ، وطابت قلوب أهل البلد بذلك ، وانشرحت صدورهم . فإن الضائقة كانت قد آخذت منهم واتصل القتال بين العسكرين من خارج البلد إلى أن فصل بينهما الليل . وعاد كل فريق إلى خيسته ، وقد قتل من عدو الله وجرح في ذلك اليوم خلق عظيم ، فانهم قاتلوا في ثلاثة مواضع . فإن أهل البلد اشتدوا في قتالهم ليشغلوهم عن الأصطول أيضاً ، والأصطولان يتقاتلان ، والعسكر من البر يقاتلهم ، وكان النصر بحمد الله للمسلمين في ذلك اليوم في الأماكن كلها .



ذكر خبر ملك الألمان

ثم تواصلت الأخبار بوصول ملك الألمان إلى بلاد قِليج أرسلان ، وأنه انتهض للقائه جمعٌ عظيم من التركمان ، وقصدوا منعه من عبور النهر ، وأنه أعجزهم لكثرة خَلْقه ، وعدم مقدَّم لهم يجمع كلمتهم ، وكان قِليج أرسلان يُظهر شقاقه ، وهو في الباطن قد أضمر وفاقه ، ثم لما عبر إلى

البلاد أظهر ما كان أضمره ، ووافقه وأعطاه رهائن معه على أنه ينفذ معه مَنْ يوصله إلى بلاد ابن لافون ، وأنفذ معه أدلةً يدلون به ، وعراهم في الطريق جوع عظيم وأعوزهم الزاد ، وقلَّ بهم الظهر حتى انهم ألقوا بعض أقمشتهم ، ولقد بلغنا ــ والله أعلم ــ أنهم جمعوا عُدداً كثيرة من زرديات وخوذ وآلات سلاح عجزوا عن حملها ، وجعلوها بيدراً واحداً ، وأضرموا فيها النار لتتلف ولا ينتفع بها أحد ، وأنها بقيت بعد ذلك رابية من حديد ، وساروا على هذا الحال حتى وصلوا إلى بلد يقال له طرسوس ، فأقاموا على نهر ليعبروه ، وأن ملكهم الملعون عنّ له أنه سبح فيه ، وكان ماؤه شديد البرودة ، وكان ذلك عقيب ما ناله من التعب والنصب والمشقة والخوف ، وأنه عرض له بسبب ذلك مرضٌ عظيم اشتدَّ به إلى أن قتله ، ولمّا رأى ما حلَّ به أوصى إلى ابنه الذي كان في صحبته ولما مات أجمعوا آراءهم على أنهم سلقوه في خلٍّ ، وجمعوا عظامه في كيس، حتى يحملوه إلى القدس الشريف ويدفنوه فيه ، وترتب ابنهُ مكانه على خُلْفٍ من أصحابه ، فإن ولده الأكبر كان قد خلفه في بلاده ، وكان جماعةٌ من أصحابه يميلون

إليه ، واستقرّ قدمُ ولده الحاضر في تقدمة العسكر ولما أحسّ ابن لافون بما جرى عليهم من الخلل وما حلّ بهم من الجوع والموت والخوف والضعف بسبب موت ملكهم ما رأى أن يلقي نفسه بينهم ، فإنــه لا يعلم كيف يكون الأمر ، وهم افرنج وهو أرمني ، فاعتصم هو عنه في بعض قلاعه المنيعة .

★ ★ ★



ولقد وصل الى السلطان ـ رحمه الله ـ كتاب من الكاغيكوس ، وهو مقدم الارمن ، وهو صاحب قلعة الروم التي على طرف الفرات .

نسخة

هذه ترجمته :

« كتاب الداعي المخلص الكاغيكوس : مما أطالع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الناصر جامع كلمةالايمان، رافع علم العدل والاحسان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، أدام الله اقباله ، وضاعف جلاله ، وصان

مهجته وكماله ، وبلغه نهاية آماله ، بعظمته وجلاله : من أمر ملك الالمان وما جرى له عند ظهوره ، وذلك : أنه أول ما خرج من دياره ، ودخل بلاد الهنكر غصبا ، وغصب ملك الهنكر بالاذعان والدخول تحت طاعته ، وأخذ من مالـه ورجاله ما اختار ، ثم انه دخل أرض مقدم الروم ، وفتح البلاد ، ونهبها ، وأقام بها وأخلاها ، وأحوج ملك الروم الى أن أطاعه ، وأخذ رهائنه : ولده وأخاه وأربعين نفرا من خلصائه ، وأخذ منه خمسين قنطارا ذهبا وخمسين قنطارا فضة ، وثياب أطلس مبلغا عظيما ، واغتصب المراكب ، وعاد بها الى هذا الجانب ، وصحبته الرهائن الى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان ، ورد الرهائن ، وبقي سائرا ثلاثة أيام ، وتركمان الاوج يلقونه بالاغنام والابقار والخيـل والبضائع ، فتداخلهم الطمع ، وجمعوا من جميع البلاد ، ووقع القتال بين التركمان وبينه ، وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوما وهو سائر ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج أرسلان العساكر وقصده وضرب معه مصافا عظيما ، فظفر به ملك الالمان ، وكسره كسرة عظيمة ، وسار حتى أشرف على قونية ، فخرج اليه جموع عظيمة من المسلمين ،

فردهم مكسورين ، وهجم قونية بالسيف ، وقتل منها عالما عظيما من المسلمين والفرس ، وأقام بها خمسة أيام ، فطلب قليج أرسلان منه الامان ، فأمنه الملك ، واستقر بينهم قاعدة أكيدة ، وأخذ منه الملك رهائن : عشرين من أكابر دولته . وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة، ففعل ، وقبل منه . وقبل وصوله الى هذه البلاد نفذ كتابه ورسوله يشرح حاله وأين قصده . وما لقيه في طريقه ، وأنه لا بد مجتاز هذه الديار اختيارا أو كرها . فاقتضى الحال انفاذ المسلوك حاتم ، وصحبته ما سأل ، ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك في جواب كتابه . وكانت الوصية معهم أن يحرفوه على بلاد قليج أرسلان ان أمكن ، فلما اجتمعوا بالملك الكبير وأعادوا عليه الجواب ، وعرفوا الاحوال . أبى الانحراف ، ثم كثر عليه العساكر والجسوع ، ونزل على شط بعض الانهار ، فأكل خبزا ونام ساعة ، وانتبه ، فتاقت نفسه الى الاستحمام في الماء البارد ، فمكث أياما قلائل ومات . وأما ابن لافون[1] فكان سائرا يلقى الملك ، فلما

---

(1) في الاصل لافون وقد اضفنا كلمة (ابن) انسجاما مع السياق وهو في نسخة القاهرة « ابن لاون » والاسم يلفظ باللفظين .

جرى هذا المجرى ، هرب الرسل من العسكر ، وتقدموا اليه ، وأخبروه بالحال ، فدخل في بعض حصونه واحتمى هنـاك •

وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه الى قصد هـذه الديار نصب ولده الذي معه عوضه وتوطدت قواعده وبلغه هرب رسل ابن لاون فانفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال : ان أبي كان شيخا كبيرا وانما قصد هذه الديار لاجل حج بيت المقدس ، وأنا الذي دبرت الملك وعانيت المشاق في هذه الطريق فمن أطاعني والا بدأت بقصد دياره •

واستعطف ابن لاون واقتضى الحال الاجتماع بـه ضرورة وفي الجملة هم في عدد كثير •

ولقد عرض عسكره فكـان في اثنين وأربعـين ألف مجفجف[1] وأما الرجالة فلا يحصى عددهم وهم أجناس متفاوتة ، وخلق غريبة ، وهم على قصد عظيم وجد في أمرهم وسياسة هائلة حتى إن من جنى منهم جناية فليس لـه جزاء الا أنه يذبح مثل الشاة •

---

(1) المجفجف : المقاتل الذي يرتدي التجفاف وهو نوع من الدروع للانسان والخيل •

ولقد بلغهم عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام لـه وجاوز الحد في ضربه ، فاجتمعت القسوس للحكم فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه ، وشفع الى الملك منهم خلق عظيم • فلم يلتفت الى ذلك وذبحه وقد حرموا الملاذ على أنفسهم حتى إن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه • كل ذلك كان حزنا على البيت المقدس •

ولقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة، وحرموها على أنفسهم ولم يلبسوا الا الحديد ، حتى أنكر عليهم الاكابر ذلك ، وهم من الصبر على الشقاء والذل والتعب في حال عظيم • طالع المملوك بالحال وما يتجدد بعد يطالع به ان شاء الله تعالى » •

هذا كتاب الكاغيكوس ومعنى هذا اللفظ الخليفة ، واسمه بركوي كور ابن باسيل •



ذكر مسير العساكر إلى أطراف البلاد

التي في طريق ملك الالمان

ولما تحقق السلطان ــ قدس الله روحه ــ وصول ملك الالمان الى بلاد ابن لافون[1] وقربه من البلاد الاسلامية ، جمع أمراء دولته وأرباب الآراء ، وشاورهم فيما يصنع ، فاتفق الرأي على أن العسكر يسير بعضه الى البلاد المتاخمة لطريق عسكر العدو الواصل ، وأن يقيم هو ــ رحمه الله ــ على منازلة العدو بباقي العسكر المنصور ، فكان أول من سار صاحب منبج ، وهو ناصر الدين بن تقي الدين ، وعز الدين بن المقدم ــ صاحب كفر طاب وبعرين وغيرهما ــ ثم مجد الدين ــ صاحب بعلبك ــ ، ثم سابق الدين ــ صاحب شيزر ــ ثم الياروقية من جملة عسكر حلب ثم عسكر حماة، وسار ولده الملك الافضل لمرض عرض له أيضا ، ثم بدر الدين شحنة دمشق ، لمرض عرض له أيضا وسار بعده ولده الملك الظاهر الى محروسة حلب لابانة الطرق ، وكشف الاخبار ، وحفظ ما يليه من البلاد . وسار بعده الملك

(1) في الاصل لافون وقد اضفنا كلمة ابن انسجاما مع السياق .

المظفر يحفظ ما يليه من البلاد وتدبير أمر العدو المجتاز .
وكان آخر من سافر في ليلة السبت التاسع من جمادى من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة . ولما سارت هذه العساكر خفتِ الميمنة ، فان معظم من سار منها ، فأمر — رحمة الله عليه — الملك العادل — رحمه الله — أن ينتقل الى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة ، وكان عماد الدين زنكي في طرف الميسرة ، ووقع في العسكر مرض عظيم ، فمرض مظفر الدين بن زين الدين — صاحب حران — وشفي ، ومرض بعده الملك الظافر ولد السلطان — رحمة الله عليه — وشفي ، ومرض خلق كثير من الاكابر وغيرهم ، الا أن المرض كان سليما بحمد الله تعالى ، وكان المرض عند العدو أكثر وأعظم ، وكان مقرونا بموت عظيم . وأقام السلطان — قدس الله روحه — مصابرا على ذلك مرابطا للعدو .



ذكر تمام خبر ملك الألمان

وذلك أن ولده الذي أقام مقامه مرض مرضا عظيما ، أقام بسببه بموضع يسمى المينات من بلاد ابن لافون وأقام معه خمسة وعشرون فارسا واربعون داويا ، وجهز عسكره نحو أنطاكية حتى يقطعوا الطريق ، ورتبهم ثلاث فرق لكثرتهم ، ثم ان الفرقة الاولى اجتازت تحت قلعة بغراس يقدمها كند عظيم عندهم ، وأن عسكر بغراس مع قلته أخذ منهم مائتي رجل قهرا ونهبا ، وكتبوا يخبرون عنهم بالضعف العظيم والمرض الشديد وقلة الخيل والظهر والعدد والآلات، ولما اتصل هذا الخبر بالنواب في البلاد الشامية أنفذوا اليهم عسكراً يكشف أخبارهم فوقع العسكر على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العلوفة ، فأغاروا عليهم غارة عظيمة ، وقتلوا وأسروا ، وكان مقدار ما أخذوه على ما ذكره المخبرون في الكتب زهاء خمسمائة نفس ، ولقد حضرت أداء رسالة رسول ثان وصل من كاغيكوس بين يدي السلطان ــ رحمة الله عليه ــ وهو يذكر خبرهم ، ويقول : « هم عدد كثير ، لكنهم ضعفاء قليلو الخيل والعدة وأكثرهم ثقلهم على حمير وخيل ضعيفة » قال : « ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه

لأعتبرهم فعبر منهم جمع عظيم ما وجدت مع واحد منهم طارقة[1] ولا رمحا الا النادر ، فسألتهم عن ذلك فقالوا أقمنا بمرج وخم أياما ، وقلت أزوادنا وأحطابنا ، فوقدنا معظم عددنا ، ومات منا خلق عظيم ، واحتجنا الى الخيل فذبحناها وأكلناها ، وأوقدنا الرماح والعدد لاعواز الحطب، وأما الكند الذي وصل الى أنطاكية ــ يسر الله فتحها ــ في مقدمة العسكر فانه مات ، وذكر أن ابن لافون لما أحس منهم بهذا الضعف طمع فيهم حتى انه عزم على أخذ مـال الملك لمرضه وضعفه ، وقلة جمعه الذي تخلف معه ، وأن البرنس ــ صاحب أنطاكية ــ لما أحس منهم بذلك سار الى ملك الالمان لينقله الى أنطاكية ، طمعا في أن يموت عنده، ويأخذ ماله ولم تزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض الى أن وقعت وقعة العادل ــ رحمه الله ــ على طرف البحر .



---

(١) الطارقة : ترس يحمي المقاتل أو القسم الاسفل منه أو متراس كبير يركز في الارض فيحمي الجماعة ويعتقد دوزي ان أصل الكلمة لاتيني .

ذكر الواقعة العادلية

ولما كان يوم الاربعاء العشرين من جمادى الآخرة من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة ، علم عـدو الله أن العساكر قد تفرقت في أطراف العدو ، وأن الميمنة قد خفت لان معظم من سافر كان منها بحكم قرب بلادهم من طرق العدو ، وأجمعوا رأيهم ، واتفقت كلمتهم على أنهم يخرجون بغتة ، ويهجمون على طرف الميمنة فجأة ، وتلاعبت بهـم آمالهم التي أكذبها الله تعالى ، فخرجوا ظهيرة نهار الاربعاء وامتدوا ميمنة وميسرة وقلبا ، وانبثوا في الارض ، وكانوا عددا عظيما ، واستخفوا طرف الميمنة ، وكان في طرفها مخيم الملك العادل ــ قدس الله روحه ــ فلما بصر بهم الناس قد خرجوا في تعبئة القتال صاح صائحهم ، وخرجوا من خيامهم كالاسود من آجامها ، وركب السلطان ــ قدس الله روحه ــ ونادى مناديه : يا للاســلام ، وركبت الجيوش وطلبت الاطلاب ، وكان ــ رحمة الله عليه ــ أول راكب ، ولقـد رأيته وقد ركب من خيمته وحوله نفر يسير من خواصه ، والناس لم يستتم ركوبهم ، وهو كالفاقدة ولدها ، الثاكلة واحدها ، ثم ضرب الكوس ، فأجابته كوسات الامراء من

أماكنها ، وركب الناس . وأما الفرنج ـ لعنهم الله ـ فانهم سارعوا في القصد الى الميمنة حتى وصلوا قبل استتمام ركوب العساكر حتى وصلوا الى مخيم الملك العـادل ، ودخلوا في وطاقه[1] ، وامتدت أيديهم في السوق ، وأطراف الخيم ، بالنهب والغارة ، وقيل وصلوا الى خيمة الخاص وأخذوا من شراب خاناته شيئا .

وأما الملك العادل فانه لما علم بذلك ركب وخرج من خيمته ، واستركب من يليه من الميمنة ، كالطواشي قايماز النجمي ، ومن يجري مجراه من أسود الاسلام ، ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم في الخيم ، ويشتغلوا بالنهب ، وكان كمّا ظن ـ رحمه الله ـ فانهم عاثت أيديهم في الخيام والاقمشة والفواكه والمطاعم ، فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس ، وحمل بنفسه يقدمه ولده الكبير شمس الدين ، وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة من الطواشي قايماز وغيره ، واتصل الامر بجميع الميمنة حتى وصـل الصائح الى عسكر الموصل ، وهجموا على العدو هجمة

(١) الوطاق : الخيمة أو الغرفة أو المعسكر ، واصلها تركي .

الاسود على فرائسها ، وأمكنهم الله تعالى منهم ، ووقعت الكسرة ، فعادوا يشتدون نحو خيامهم هاربين ، على أعقابهم ناكصين ، وسيف الله فيهم يلتقط الارواح من الاشباح ، ويفصل بين الاجساد والرؤوس ، ويفرق بين الابدان والنفوس • ولما بصر السلطان ـ رحمة الله عليه ـ بقصطل الحرب قد ارتفع مما يلي خيام أخيه ـ رحمه الله ـ ثارت في قلبه نار الاشفاق ، وحركت الاخوة حميته ، وأنهضت الرغبة في نصرة دين الله والخوف على أوليائه عزمته ، وصاح صائحه في الناس : « يا للاسلام وأبطال الموحدين ، هذا عدو الله قد أمكن الله منه ، وقد داخله الطمع حتى غشي خيامكم بنفسه » • فكان من المبادرين الى اجابة دعوته جماعة من مماليكه وخاصته وحلقته،ثم طُلْب عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ولد عز الدين ، ثم عسكر مصر يقدمهم سنقر الحلبي ، وتتابعت العساكر وتجاوبت الابطال ، ووقف هو ـ رحمة الله عليه ـ في القلب خشية أن يستضعف العدو القلب بحكم ما أنفذ منه من العساكر فينال غرضا ، وتواصلت العساكر واتصل الضرب ، وقامت سوق الحرب ، فلم يكن الا ساعة ، حتى رأينا القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية،

وامتدوا مطرحين من خيام الملك العادل ـ رحمه الله ـ الى خيامهم . أولهم في الخيم الاسلامية ، وآخرهم في خيم العدو ، صرعى على التلول والوهاد ، وشربت السيوف من دمائهم حتى رويت ، وأكلت أسد الوغى بأسنان الظفر بهم حتى شبعت ، وأظهر الله سبحانه كلمته . وحقق لعبيده نصرته . وكان مقدار ما امتد فيه القتلى فيما بين المخيمين فرسخا ، وربما زاد على ذلك ولم ينج من القوم الا النادر . ولقد خضت في تلك الدماء بدابتي واجتهدت أن أعدهم فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفوقهم . وشاهدت فيهم امرأتين مقتولتين ، وحكى لي من شاهد منهم أربع نسوة يقاتلن ، وأسر منهن اثنتان . وأسر من الرجال في ذلك اليوم نفر يسير فان السلطان ـ رحمه الله ـ كان أمر النـاس أن لا يستبقوا أحدا ، هذا كله في الميمنة وبعض القلب .

وأما في الميسرة فما اتصل الصائح بهم إلا وقد نجز الأمر وقضى القضاء على العدو لبعد ما بين المسافتين . وكانت هذه الواقعة فيما بين الظهر والعصر ، فإن العدو ظهر في قائم الظهيرة ، وانفصلت الحرب بعد صلاة العصر . وانكسر القوم حتى دخلت معهم طائفة من المسلمين وراءهم إلى

مخيمهم على ما قيل ، ثم إنه ــ رحمة الله عليه ــ أمر الناس بالتراجع لمّا ظهر له وجه الربح ، حيث قُتل من العدو ما قتل من هذا الخلق العظيم ، ولم يُفقد من المسلمين أحد في ذلك اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين . ولما أحسَّ جندُ الله بعكا بما جرى بين المسلمين وبين عدو الله من الوقعة ــ فإنهم كانوا يشاهدون الوقعات من أعالي السور ــ خرجوا إلى مخيم العدو المخذول من البلد ، وجرى بينهم مقتلة عظيمة . وكانت النصرة ــ والحمد لله ــ للمسلمين ، بحيث هجموا خيام العدو ، ونهبوا منها جمعا من النسوان والأقمشة ، حتى القدور وفيها الطعام ، وصل كتاب من المدينة يخبر بذلك . وكان يوما على الكافرين عسيرا . واختلف الناس في عدد القتلى منهم ، فذكر قوم أنهم ثمانية آلاف ، وقال آخرون : سبعة آلاف ، ولم ينقصهم حازر بأقل من خمسة آلاف . ولقد شاهدتُ منهم خمسة صفوف أولها في خيم العادل ــ رحمه الله ــ وآخرها في خيم العدو . ولقد لقيتُ إنسانا عاقلا جنديا يسعى بين صفوف القتلى ويعدهم ، فقلتُ له : كم عددت ؟ فقال لي : إلى ها هنا أربعة آلاف ونيفا وستين قتيلا ، وكان قد عدَّ صفينْ وهو في

الصف الثالث ، لكن ما مضى من الصفوف كان أكثر عددا من الباقي . وانجلى يوم الأربعاء المذكور بأحسن ما ينجلي عنه الإسلام . ولما كان يوم الخميس الحادي والعشرين من جمادى المذكور ورد في عصره نجّاب" له عن محروسة حلب خمسة أيام يتضمن كتابُه أن جماعة عظيمة من العدو الشمالي خرجوا لنهب أطراف البلاد الاسلامية . ونهض العسكر الإسلامي لمحروسة حلب إليهم . وأخذ عليهم الطريق ، فلم ينجُ منهم أحد إلا من شاء الله ، وكان وقع هذا الخبر عقيب هذه الوقعة المباركة وقعا عظيما ، وضربت البشائر ، ولم يُرَ صبيحة ذلك العرس أحسن من هذه الصبيحة . وجاء في بقية ليلة ذلك اليوم من اليَزَك قايماز الحرّاني ، وذكر أن العدو قد سأل من جانب السلطان ـ قدس الله روحه ـ مَنْ يصل إليهم ، ليسمع منهم حديثا في سؤال الصلح ، لضعفٍ حلّ بهم ، ولم يزل عدو الله من حينئذ مكسور الجناح مهاض الجانب حتى وصلهم كُنْدٌ" يقال له : كُنْدهري .



ذكر وصول الكندهري

وهذا المذكور من ملوكهم وأغنيائهم ، وصل في البحر في مراكب عدة ، ومعه من الأموال والذخائر والمير والأسلحة والرجال عــدد عظيم ، فقوي بوصوله جأشهم ، واشــتد أزرهــم ، وحدثتهم نفوسهم بكبس العسكر الإسلامي المنصور ليلا ، وكثر ذلك الحديث على ألسنة المستأمنين والجواسيس ، فجمع السلطان ــ رحمة الله عليه ــ الأمراء وأرباب الرأي ، واستشارهم فيما يفعل ، فكان آخر الرأي أنهم يُوسّعون الحلقة ، ويتأخرون عن العدو ، رجاء أن يخرج العدو ، ويبعد عن خيمه فيمكن اللهُ منهم ، ووافقهم السلطان ــ رحمة الله عليه ــ على ذلك ، وأوقعه في قلبه ، فرحل الى جبل الخروبة بالعساكر بأسرها ، وذلك في يوم الأربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وترك بقية من العسكر في تلك المنزلة كاليزك ، مقدار ألف فارس ، يتناوبون بحفظ النوبة ، هذا والكتب متواصلة من عكا ومنا إليها على أجنحة الطيور ، وأيدي السبّاح ، والمراكب اللطاف ، تخرج ليلا ، وتدخل سرقة من العدو .

عدنا إلى أخبار ملك الألمان ، هذا وأخبار العدو الواصل من الشمال متواصلة وقلة خيله وعدده ، وما قد عراهم من المرض والموت، وأنهم قد اجتمعوا في أنطاكية، وأنهم ينفقون في الرجالة[1] ، وأن أصحابنا عسكر حلب يتخطفون حشّاشتهم وعلاّفتهم ومن يخرج منهم .



ذكر كتاب وصل من قسطنطينية

يسّر الله فتحها

وكان بين السلطان ــ رحمة الله عليه ــ وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة ، وكان وصل منه رسول إلى الباب السلطاني بمرج عيون في رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة في جواب رسول كان أنفذه السلطان ــ رحمة الله عليه ــ إليه بعد تقرير القواعد وإقامة قانون الخطبة في جامع قسطنطينية ، فمضى الرسول ، وأقام الخطبة ، ولقي باحترام عظيم وإكرام زائد ، وكان قد أنفذ معه في المركب

(١) وردت هذه العبارة في نسخة القاهرة : « وانهم قد بقوا رجالة ».

الخطيب والمنبر وجمعا من المؤذنين والقراء . وكان يوم دخولهم إلى قسطنطينية يوماً عظيما من أيام الإسلام شاهده جمع كثير من التجار ، ورقي الخطيبُ المنبر ، واجتمع إليه المسلمون المقيمون بها والتجار ، وأقام الدعوة الإسلامية العباسية ، ثم عاد ، فعاد معه الرسول يخبرنا بانتظام الحال في ذلك ، فأقام مدة . ولقد شاهدته يبلغ الرسالة ، ومعه ترجمان يترجم عنه ، وهو شيخ أحسن ما يُفرض أن يكون من صور المشايخ ، وعليه زيهم الذي يختص بهم ، ومعه كتاب وتذكرة ، والكتاب مختوم بذهب ، ولما مات وصل إلى ملك القسطنطينية خبر وفاته ، فأنفذ هذا الرسول في تتمة ذلك ، ووصل معه الكتاب في جواب ذلك وصُورة ما فُسّر من الكتاب الواصل منه ووصفه : أنه كتاب مدروج عَرضا ، وهو دون عرض كتاب بغداد ، مترجماً في ظاهره وباطنه بسطرين ، بينهما فرجة ، وُضع فيها الختم ، والختم في ذهب مطبوع كما يطبع الخاتم في الشمع على ختمه صورة ملك ، وزن الذهب خمسة عشر ديناراً ، مضمون السطرين المكتوبين ما هذا صورته : « من إيساكيوس الملك المؤمن بالمسيح الإله ، المتوج من الله المنصور العالي

أبداً ، أقعقوس المدبر من الله القاهر الذي لا يغلب ، ضابط الروم بذاتــه أنكليوس إلى النسيب سلطان مصر صلاح الدين » . فهذا صورة ما كتب عليه من الترجمة باطنا وظاهراً وأما ما فـسّر من الكتاب فهذا : المحبة والمودة ، وقد وصل خط نسبتك الذي أنفذت إلى مـلكي ، وقرأناه وعلمنا منه أن رسولنا توفي ، وحزنا حيث أنه توفي في بلد غريب ، وما قـدّر أن يتم كما رسم له مـلكي ، وأمره أن يتحدث مع نِسبتك ، ويقول في حضرتك ، ولا بد لنسبتك أن تهتم بإنفاذ رسول إلى ملكي ليعرف ملكي ما بعثت إليك مـع رسولي المتوفى . وأما القماش الذي خلفه ووجد بعد موته ينفذ إلى ملكي لنعطيه أولاده وأقاربه ، وما أظن أنه سمّع نسبتك أخباراً ردية ، وأنه قد سار في بلادي الألمان وما هو عجب فإن الأعداء يرجفون بأشياء كذب على قدر أغراضهم ، ولو تشتهي أن نسمع الحق فإنهم قد تأذوا وتعبوا أكثر مما آذوا فلاّحي بلادي ، وقد خسروا كثيرا من المال والدواب والرحل والرجال ، ومات منهم كثير ، وقتلوا ، وتلفوا ، وبالشدة قد تخلصوا من أيدي أجناد بلادي ، وقد ضعفوا بحيث انهم لا يصلون إلى بلادك ، وإن وصلوا كانوا ضعافاً

بعد شدة كثيرة ، ولا يقدرون ينفعون جنسهم ، ولا يضرون نسبتك ، وبعد ذلك كله العجب كيف قد نسيت الذي بيني وبينك ، وكيف ما عرفت لملكي شيئا من المقاصد والمهمات ، ما ربح ملكي من محبتك إلا عداوة الفرنج وجنسهم ، ولابد لنسبتك كما قد كتبت لملكي في كتابك الذي قد نفذت إلينا من إنفاذ رسول حتى يعرفني جميع ما قد كتبت إليك في القديم من الحديث ، ويكون ذلك بأسرع ما يمكن ولا تحمل على قلبك من مجيء الأعداء الذين قد سمعت بهم ، فان إدبارهم على قدر نيتهم وآرائهم • وكتب في أيام سنة ألف وواحد وخمسمائة •

فوقف ــ رحمة الله عليه ــ على هذه الترجمة ، وأكرم الرسول ، وأحسن مثواه ، وكان شيخا حسن الخلق ، مهيبا ، عارفا بالعربية والرومية والفرنجية •

ثم إن الفرنج ــ لعنهم الله تعالى ــ اشتدوا في حصار البلد ومضايقته ، لما حدث لهم من القوة بوصول الكندهري، فإنه أنفق على ما ذكر ــ والله أعلم ــ في عشرة آلاف مقاتل، ووصلهم نجدة أخرى في البحر قويت بها قلوبهم ، ولزوا البلد بالقتال •

★ ★ ★

ذكر حريق المنجنيقات التي للعدو المخذول

وذلك أن العدو لما أحسَّ في نفسه بقوة ، بسبب توالي النجد عليهم ، اشتد طمعهم وسلطوا عليه المنجنيقات من كل جانب ، وتناوبوا عليها بحيث لا يعطل رميُها ليلا ولا نهاراً ، وذلك في أثناء رجب من سنة ست وثمانين وخمسمائة. ولما رأى أهل البلد ما نزل بهم من مضايقة العدو وتعلق طمعه بهم حركتهم النخوة الإسلامية ، وكان مقدموه حينئذ : أما والي البلد وحارسه فالأمير الكبير بهاء الدين قراقوش ، وأما مقدم العسكر فالأمير الاسفهسلار الكبير حسام الدين أبو الهيجاء ، وكان رجلا ذا كرم وشجاعة ، وقدمة في عشيرته ومضاء في عزيمته ، فاجتمع رأيهم على أنهم يخرجون إلى العدو ، فارسهم وراجلهم ، عن غرة وغفلة منهم ، ففعلوا ذلك ، وفتحت الأبواب ، وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب ، ولم يشعر العدو إلا والسيف فيهم حاكم عادل ، وسهم قضاء الله وقدره فيهم نافذ خاذل ، وهجم الإسلام على الكفر في منازله ، وأخذ بناصية مناضله ، ورأس مقاتله ،

ولما ولج المسلمون خيام العـدو ذهلوا عن المنجنيقـات وحراستها ، وحفظها وسياستها ، فوصلت شهب الزراقين المقذوفة وجاءت عوائد الله في نصرة دينه المألوفة ، فـلم تكن ساعة حتى اضطرمت فيها النيران ، وتحرق منهـا بيدها ما شيد الاعداء في المدة الطويلة في أقرب آن ، وقتل من العدو في ذلك اليوم سبعون فارسا ، وأسر خلق عظيم ، وكان من جملة الاسرى رجل مذكور منهم ، ظفر به واحد من آحاد الناس ولم يعلم بمكانته ، فلما انفصل الحـرب سأل الفرنج عنه هل هو حي أم لا ، فعرف الذي هو عنده عند سؤالهم أنه رجل كبير ، وخاف أن يغلب عليه ويرد اليهم بنوع مصانعة أو على وجه من الوجوه ، فسارع وقتله ، وبذل الفرنج فيه أموالا كثيرة ، ولم يزالوا يشتدون في طلبه ويحرصون عليه حتى رميت اليهم جثته ، فضربوا بنفوسهم الارض ، وحثوا على وجوههم التراب ، ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة ، وكتموا أمره ، ولم يظهروا من كان ، واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم ، وهجم عليهم العرب من كل جانب يسرقون ويقتلون ويأسرون الى ليلة شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وكان الكندهري

قد أنفق على منجنيق كبير عظيم الشكل ـ على ما نقل الجواسيس والمستأمنون ـ ألفا وخمسمائة دينار ، وأعده ليقدمه الىَ البلد ، ومنع من حريقه ذلك اليوم كونه بعيدا عن البلد ، ولم يقدم بعد اليه ، فلما كانت الليلة المباركة المذكورة خرج الزرّاقون والمقاتلة ، والله يحفظهم من كل جانب ، والله يكلؤهم ، فساروا من تحت ستر الله حتى أتوا المنجنيق المذكور ، وأضرموا فيه النار ، فاحترق من ساعته ، ووقع الصياح من الطائفتين ، وذهل العدو ، فانه كان بعيدا من البلد ، وخاف أن يكون قد أحيط به من الجوانب ، وكان نصرا من عند الله ، وأحرق بلهيبه منجنيق لطيف الى جانبه .



ذكر الحيلة في إدخال بطسة بيروت إلى البلد

وذلك أنه ـ رحمة الله عليه ـ كان قد أعد ببيروت بُطسة ، وعمّرها ، وأودعها أربع مائة غرارة من القمح ووضع فيها من الجبن والميرة والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة ، وكان الفرنج ـ خذلهم الله ـ قد أداروا مراكبهم

حول عكا ، حراسة لها عن أن يدخلها مركب للمسلمين ، وكانت قد اشتدت حاجة من فيها الى الطعام والميرة ، فركب في بطسة بيروت جماعة من المسلمين، وتزيّوا بزي الفرنج، حتى حلقوا لحاهم ، ووضعوا الخنازير على سطح البطسة . بحيث تُرى من بعد ، وعلقوا الصلبان ، وجاؤوا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو ، فخرجوا اليهم. واعترضوهم في الحرّاقات ، وقالوا : « نراكم قاصدين البلد » ، واعتقدوا أنهم منهم فقالوا : « ولم تكونوا قد أخذتم البلد » ؟ فقالوا : « لا ، لم نكن نأخذ البلد بعد » ، فقالوا: نحن نرد القلوع الى العسكر، ووراءنا بطسة أخرى في هوائنا ، فأنذروهم حتى لا يدخلوا البلد ، وكان وراءهم بطسة فرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين المعسكر ، فنظروا فرأوها ، فقصدوها لينذروها ، فاشتدت البطسة الاسلامية في السير ، واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد ، وسلمت ولله الحمد ، وكان فرحا عظيما ، فان الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد ، وكان ذلك في العشر الاخير من رجب من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة .

★ ★ ★

ذكر قصة العوام عيسى

رحمه الله

ومن نوادر هذه الوقعة ومحاسنها أن عواما مسلما كان يقال له عيسى ، وكان يدخل الى البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلا . على غرة من العدو . وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو . وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس . فيها ألف دينار وكتب للعسكر ، وعام في البحر فجرى عليه من أهلكه . وأبطأ خبره عنا ، وكانت بعادته أنه اذا دخل البلد طار طير عرفنا بوصوله ، فأبطأ الطير ، فاستشعر الناس هلاكه . ولما كان بعد أيام بينما الناس على طرف البحر في البلد ، واذا البحر قد قذف اليهم ميتا غريقا ، فافتقدوه فوجدوه عيسى العوام ، ووجدوا على وسطه الذهب وشمع الكتب ، وكان الذهب نفقة للمجاهدين ، فما رؤي من أدى الامانة في حال حياته وقد أداها بعد وفاته الا هذا الرجل ، وكان ذلك في العشر الاخير من رجب أيضا .



ذكر حريق المنجنيقات

وذلك أن العدو كان نصب على البلد منجنيقات هائلة حاكمة على السور . وأن حجارتها تواترت حتى أثَّرت في السور أثرا بَيِّناً . وخيف من غائلته . فأخذ سهمان من سهام الجرخ العظيم وأحرق نصلاهما حتى بقيا كالشعلة من النار. ثم رميا في المنجنيق الواحد . فعلقا فيه ، واجتهد العدو في اطفاء النار فلم يقدروا على ذلك ، وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعالا عظيما ، واتصلت لهبته بالآخر فأحرقته . واشتد ناراهما بحيث لم يقدر أحد أن يقرب مكانهما ليحتال في اطفائهما ، وكان يوما عظيما اشتد فيه فرح المسلمين وساءت عاقبة الكافرين .



ذكر تمام حديث الألماني

وكان من حديثه أنه بعد أن استقر قدمه في أنطاكية ــ يسر الله فتحها ــ وأخذها من صاحبها وحكم فيها ، وكان بين يديه فيها ينفذ أوامره فأخذها منه غيلة وخديعة ، وأودعها خزائنه ، وسار عنها يوم الاربعاء خامس عشري رجب سنة

ست وثمانين وخمسمائة متوجها نحو عكا ، في جيوشه وجموعه ، على طريق اللاذقية ، حتى أتى طرابلس — يسر الله فتحها — ، وكان قد سار اليه من معسكر الفرنج يلتقيه المركيس — صاحب صور — ، وكان من أعظمهم حيلة وأشدهم بأسا ، وهو الاصل في تهيج الجموع البحرية .



ذكر الحيلة التي عملها المركيس في جمع الفرنج من وراء البحر

وذلك أنه صوّر القدس في ورقة عظيمة ، وصوّر فيه صورة القيامة التي لهم يحجون اليها ويعظمون شأنها ، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعمهم ، وذلك القبر هو أصل حجهم ، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم ، فصور القبر وصوّر عليه فرسا عليه فارس مسلم راكب عليه ، وقد وطىء قبر المسيح وقد بال الفرس على القبر ، وأبدى هذه الصورة وراء البحر في الاسواق والمجامع ، والقسوس يحملونها ، ورؤوسهم مكشفة ، وعليهم المسوحة ، وينادون بالويل

والثبور ، وللصور عمل في قلوبهم ، فانها أصل دينهم ، فهاج بذلك خلائق لا يحصي عددهم الا الله تعالى ، وكان من جملتهم ملك الالمان وجنوده ، فلقيهم المركيس ، لانه أصل استدعائهم الى هذه الواقعة ، فلما اتصل به قوي قلبه ، وبصره بالطرق ، وسلك به الساحل ، خوفا من أنه اذا أتى على بلاد حلب المحروسة وحماة المحروسة ثار بهم المسلمون من كل جانب ، وقامت عليهم كلمة الحق من كل صوب ، ومع ذلك لم يسلموا من شن الغارات عليهم ، فان الملك المظفر ــ رحمه الله ــ قصدهم بعساكره ، وجمع لهم جموعا، وهجم عليهم هجوما عظيما أخذ منه من أطراف عسكره ، وكان قد لحقهم بأوائل عسكره ، ولو لحقه الملك الظاهر بعساكره لقضى عليهم ، ولكن لكل أجل كتاب ، واختلف حزر الناس لهم ، ولقد وقفت على بعض كتب الخبيرين بالحرب ، وقد حزر فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف بعد أن كانوا قد خرجوا على ما ذكر بمائتي ألف ، فانظر الى صنع الله مع أعدائه .. ولقد وقفت على بعض الكتب يذكر فيه أنهم لما ساروا من اللاذقية يريدون جبلة ، وجدوا في أعقابهم نيفا وستين فرسا قد عطبت وانتزع لحمها ، ولم

يبق فيها الا العظام ، من شدة الجوع وضعف الخيل ، ولم يزالوا سائرين وأيدي المسلمين تتخطفهم من حولهم نهبا وقتلا وأسرا ، حتى أتوا طرابلس — يسر الله فتحها — ووصل خبره ووصولهم بكرة الثلاثاء من شعبان سنة ست وثمانين . هذا والسلطان — قدس الله روحه — ثابت الجأش، راسخ القدم ، لا يدعه ذلك عن حراسة عكا والحماية لها . ومراصدة العسكر النازل بها ، وشن الغارات عليهم ، والهجوم عليهم في كل وقت ، مفوضا أمره الى الله تعالى ، معتمدا عليه ، منبسط الوجه لقضاء حوائج الناس ، مواصلا ببره من يفد اليه من الفقراء والفقهاء والمشايخ والادباء . ولقد كنت اذا بلغني هذا الخبر تأثرت حتى اذا دخلت اليه فأجد منه من قوة النفس وشدة البأس ما يشرح صدري ، وأتيقن معه نصرة الاسلام وأهله .



ذكر وصول البُطس من محروسة مصر

ولما كان العشر الاوسط من شعبان من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة كتب بهاء الدين قراقوش . وهو والي البلد ، والمقدم على الاصطول وهو الحاجب لؤلؤ . يذكران للسلطان . رحمة الله عليه : « لم يبق بالبلد ميرة الا قدر يكفي البلد الى ليلة النصف من شعبان لا غير » . فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لخاص ولا عام ، خشية الشيوع والبلوغ الى العدو ، ويضعف به قلوب المسلمين . وكان السلطان قد كتب الى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالاقوات والادام والمير وجميع ما يحتاج اليه في الحصار ، بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء ، وأقلعت البطس الثلاث من الديار المصرية ولججت في البحر تتوخى النوتية بها الريح التي تحملها الى عكا ، فطابت لهم الريح حتى ساروا ، ووصلوا الى عكا ليلة النصف من شعبان المذكور وقد فنيت الازواد ، ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس في ذلك اليوم ، وخرج عليها أصطول العدو فقاتلها ، والعساكر الاسلامية تشاهد ذلك من الساحل ، والناس في تهليل وتكبير ، وقد كشف المسلمون رؤوسهم ، يبتهلون الى الله

تعالى في القضاء بتسليمها الى البلد ، والسلطان ـ رحمة الله عليه ـ على الساحل كالوالدة الثكلى يشاهد القتال ، ويدعو الى ربه بنصره ، وقد علم من شدة القوم ما لم يعلمه غيره ، وفي قلبه ما في قلبه والله يثبته ، ولم يزل القتال يعمل حول البطس من كل جانب ، والله يدفع عنها والريح تشتد ، والاصوات قد ارتفعت من الطائفتين ،والدعاء يخرق الحجب ، حتى وصلوا بحمد الله تعالى سالمين الى ميناء البلد ، وتلقاهم أهل عكا تلقي الامطار عن جدب ، وامتاروا ما فيها ، وكانت ليلة بليال ، وكان دخولها عصر يوم الاثنين رابع عشر شعبان المذكور من السنة المذكورة .



ذكر محاصرة برج الذبان

ولما كان الثاني والعشرون من شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة جهز العدو ـ لعنه الله ـ بطسا متعددة لمحاصرة برج الذبان ، وهو برج في وسط البحر ، مبني على الصخر على باب ميناء عكا ، يحرس به الميناء ، ومتى عبره المركب أمن من غائلة العدو ، فأراد العدو أخذه ، ليبقى الميناء

بحكمه ، ويمنع دخول شيء من البُطْس اليه ، فتنقطع الميرة عن البلد ، فجعلوا على صواري البطس برجا ، وملأوه حطبا ونفطا ، على أنهم يسيّرون البطس ، فاذا قاربت برج الذبان ولاصقته ، أحرقوا البرج الذي على الصاري وألصقوه ببرج الذبان ليلقوه على سطحه ، ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذوه ، وجعلوا في البُطسة وقودا كثيرا حتى يلقي في البرج اذا اشتعلت النار فيه ، وعبوا بطسة ثانية وملأوها حطبا ووقودا ، على أنهم يدفعونها الى أن تدخل بين البطس الاسلامية ، ثم يلهبونها ، فتحترق البطس الاسلامية ، وتهلك ما فيها من المير ، وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يصل اليهم نشاب ولا شيء من آلات السلاح، حتى اذا أحرقوا ما أرادوا احراقه دخلوا ذلك القبو فأمنوا، فأحرقوا ما أرادوا احراقه ، وقدموا البطسة نحو البرج المذكور ، وكان طمعهم يشتد حيث كان الهواء مسعدا لهم ، فلما أحرقوا البطسة التي أرادوا يحرقون بها بطس المسلمين، والبرج الذي أرادوا يحرقون به مَن على البرج ، فأوقدوا النار ، وضربوا فيها النفط ، فانعكس الهواء عليهم كما يشاء الله تعالى وأراد ، واشتعلت البطسة والذي كان فيها بأسرها،

واجتهدوا في اطفائها فما قدروا ، وهلك من كان بها من المقاتلة الا من شاء الله تعالى ؛ ثم احترقت البطسة التي كانت معدة لاحراق بطسنا ؛ ووثب أصحابنا عليها فأخذوها اليهم، وأما البطسة التي فيها القبو ؛ فانهم انزعجوا وخافوا ،وهموا بالرجوع ؛ واختلفوا واضطربوا اضطرابا عظيما ، فانقلبت وهلك جميع من كان فيها ؛ لانهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها . وكان ذلك من أعظم آيات الله تعالى ، وأندر العجائب في نصرة دين الله ، ولله الحمد ، وكان يوما مشهودا.



ذكر وصول الألماني إلى عسكرهم المخذول

عدنا الى حديث ملك الالمان ، وذلك أنه أقام بطرابلس، حتى استجم عسكره ، وأرسل الى النازلين على عكا يخبرهم بقدومه اليهم ، وقد وجموا من ذلك لان المركيس ــ صاحب صور ــ هو رب مشورته وصاحب دولته ، وكان الملك جفري ــ وهو ملك الساحل ــ بالمعسكر ، وهو الذي يرجع اليه في الامور ، فعلم أن مع قدوم ملك الالمان لا يبقى له حكم . ولما كان العشر الاخير من شعبان سنة ست

وثمانين وخمسمائة أزمع رأيه على المسير في البحر ، لعلمه أنه ان لم يركب في البحر نكب وأخذت عليه مضايق الطرق ، فأعدوا المراكب . وأنفذت اليه من كل جانب ، ونزل فيها هو وعسكره وخيلهم وعدتهم . وساروا يريدون العسكر فلم تمض الا ساعة من نهار حتى قامت عليهم ريح عاصف ، وثار عليهم الموج من كل مكان ، وأشرفوا على الهلاك ، وهلك منهم ثلاثة مراكب حمّالة[1] ، وعاد الباقون يرصدون هواءً طيبا . فأقاموا أياما حتى طابت لهم الريح . وساروا حتى أتوا صور ـ يسّر الله فتحها ـ فأقام المركيس والألماني بها ، وأنفذوا بقية العساكر الى المعسكر النازل على عكا ، وأقاما بصور الى ليلة السادس من رمضان من السنة المذكورة . وسار الألماني وحده في البحر حتى وصل معسكرهم غروب الشمس من ذلك اليوم في نفر يسير ، هكذا أخبر الجواسيس والمستأمنون عنهم ، وكان لقدومه وقع عظيم عند الطائفتين ، فأقام أياما ، وأراد أن يظهر لقدومه أثر ، فوبخ القوم على طول مقامهم ، وحسن في رأيه أن

---

(1) المراكب الحمالة : هي مراكب مخصصة لنقل المؤونة والعتاد والقائمين عليهما .

يضرب مصافا مع المسلمين ، فخوفوه من الإقدام على هذا الأمر وعاقبته ، فقال : « لابد من الخروج على اليَزَكَ لنذوق قتـال القوم ، ونعرف مراسهم ، وتتبصر بأمرهم ، فليس الخبر كالعيان » فخرج على اليزَك الإسلامي ، واتبعه معظم الفرنج راجلهم وفارسهم ، وخرجوا حتى قطعوا الوطاة التي بين تلهم وتل العياضية ، وعلى تل العياضية خيام اليزك ، وهي نوبة الحلقة السلطانية المنصورة في ذلك اليوم ، فوقفوا في وجوههم ، وقاتلوهم وأذاقوهم طعـم الموت ، وعرف السلطان ــ رحمة الله عليه ــ ذلك ، فركب من خيمه بجحفله ، وسار حتى أتى تـل كيسان ، فلما رأى العـدو العساكر الإسلامية قد صوبت نحوه سهام قصدها ، وأتته من كل جانب كقِطَع الليل المدلهم عاد ناكصاً على عقبه ، وقد قُتل منهم وجُرح خلق عظيم ، والسيف يعمل في قفيّهم وهم هاربون ، حتى وصل المخيم غروب الشمس من ذلك اليوم ، وهو لا يعتقد سلامة نفسه من شدة خوفه ، وفصل الليل بين الطائفتين وقد قُتل وجُرح من العدو خلق عظيم ، وقتل من المسلمين في ذلك اليوم اثنان ، وجُرح جماعة كثيرة ، وكانت الكرّة على أعداء الله ولله الحمد ، فلما عرف ملك الالمان ــ لعنه الله ــ ما جرى عليه وعلى أصحابه من اليزك الذي هو

شرذمة من العسكر ، وهم جزء من كلٍّ ، رأى أن يرجع الى قتال البلد ، ويشتغل بمضايقته ، فاتخذ من الآلات العجيبة والصنائع الغريبة ما أهال الناظر اليه من شدة الخوف على البلد ؛ واستشعر أخذ البلد من تلك الآلات ، وخيف منها عليه ؛ فمما أحدثوه آلة عظيمة تسمى دبّابة يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم ، ملبسة بصفائح الحديد ، ولها من تحتها عَجَل تُحرك بها من داخل ، وفيها المقاتلة ، حتى ينطح بها السور ، ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد ، وهي تسمى كَبْشا ، ينطح بها السور بشدة عظيمة ، لأنه يجرها خلق عظيم فتهدمه بتكرار نطحها ، وآلة أخرى ، وهي قبو فيه رجال ، يسحب كذلك إلا أن رأسها محدد ، على شكل السكة التي يحرث بها ، ورأس الكبش مدوَّر ، وهذا يهدم بثقله ، وتلك تهدم بحدتها وثقلها ، وهي تسمى سِنَّوْرا . ومن الستائر والسلاليم الكبار الهائلة . وأعدوا في البحر بطسة هائلة ، وصنعوا فيها برجاً بخرطوم ، إذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات . ويبقى طريقا الى المكان الذي ينقلب عليه ، فتمشي عليه المقاتلة ، وعزموا على تقريبه الى برج الذبان ليأخذوه به .

★ ★ ★

ذكر حريق الكبش وغيره من الآلات

وذلك أن العدو لما رأى أن آلاته قد تمت واستكملت، شرع في الزحف على البلد ومقاتلته من كل جانب . وأهل البلد ــ وفقهم الله ــ كلما رأوا ذلك اشتدت عزائمهم في نصرة دين الله تعالى ، وقويت قلوبهم على المصابرة . ولما كان يوم الاثنين ثالث شهر رمضان من السنة المذكورة وهو الذي قدمت فيه عساكر الشام .



ذكر قدوم الملك الظاهر

رحمه الله

فقدم الملك الظاهر ولده ــ صاحب حلب المحروسة ــ بجحفله وعسكره وهو من كبار أولاده ومقدميهم ومهذبيهم، وهو يعتمد عليه في كثير من أموره ، قدم في عشية ذلك اليوم وحده مثابرة على خدمة والده ، ومعاجلة في بره ، ثم بكّر وعاد حتى لقي عسكره ، وقدم معهم بكرة الثلاثاء يرتب أطلابه ويهذبها ، ففرح والده بمقدمه وسر به سرورا عظيما ، رضاء عنه بما رتب وجمع من العساكر والجحافل ،

وقدم في ذلك اليوم سابق الدين ــ صاحب شيزر ــ ، وعز الدين بن المقدم ، ومجد الدين ــ صاحب بعلبك ــ وخلق عظيم من عساكر المسلمين ، قدموا في أحسن زي ، وأجمل ترتيب ، وأكمل عدة في ذلك اليوم . وكان السلطان ــ رحمة الله عليه ــ قد التاث مزاجه الكريم بحمى صفراوية يسيرة ، فركب في ذلك اليوم ، وكان عيدا من وجوه متعددة، وفي ذلك اليوم زحف العدو على البلد في خلق لا يحصي عددهم الا الله تعالى ، فأهملوهم أهل البلد وشجعان المقاتلة الذين فيه ، وذوو الآراء المثقفة من مقدمي المسلمين فيه ، حتى نشبت مخاليب أطماعهم في البلد ، وسحبوا آلاتهم المذكورة ، حتى قاربوا أن يلصقوها بالسور ، وتحصن منهم في الخندق جماعة عظيمة، وأطلقوا عليهم سهام الجروخ، وأحجار المناجيق ، وأقواس الرمي والنيران ، وصاحوا عليهم صيحة الرجل الواحد ، وفتحوا الابواب ، وباعوا أنفسهم لخالقها وباريها ، ورضوا بالصفقة الموعود بها ، وهجموا على العدو من كل جانب ، وكبسوهم في الخنادق ، وأوقع الله الرعب في قلب العدو ، وأعطى ظهره للهزيمة ، وأخذوا مشتدين هاربين على أعقابهم ناكصين ، يطلبون خيامهم ، والاحتماء بأسوارهم ، لكثرة ما شاهدوا وذاقوا

من الجرح والقتل ، وبقي في الخندق خلق عظيم ، فوقع فيهم السيف ، وعجل الله بأرواحهم الى النار ، ولما رأى المسلمون ما نزل بالعدو من الخذلان والهزيمة ، هجموا على كبشهم . فألقوا فيه النار والنفط ، وتمكنوا من حريقه لهرب المقاتلة عنه ، وأحرق حريقا شنيعا ، وظهر له لهيب نحو السماء. وارتفعت الاصوات بالتكبير والتهليل ، والشكر للقوي الجليل ، وسرت نار الكبش بقوتها الى السنــور فاحترق ، وعلق المسلمون في الكبش الكلاليب الحديد المصنوعة في السلاسل فسحبوه . وهو يشتعل ، حتى حصلوه عندهم في البلد ، وكان مركبا من آلات هائلــة عظيمة ، وألقي الماء عليه حتى برد حديده بعد أيام ، وبلغنا من البلد أنه وزن ما كان عليه من الحديد فكان مائة قنطار بالشامي ، والقنطار مائة رطل ، والرطل الشامي بالبغدادي أربعة أرطال وربع رطل ، ولقد أنفذ رأسه الى السلطان ــ رحمة الله عليه ــ ومثل بين يديه ، وشاهدته وقلبته ، وشكله على مثال السفود الذي يكون بحجر المدار ، قيل : انه ينطح به فيهدم ما يلاقيه ، وكان ذلك من أحسن أيام الاسلام ، .....

★ ★ ★

ذكر حريق البَطسة المعدة لأخذ برج الذُبّان

ولما كان يوم الاربعاء خامس عشر رمضان المذكورخرج أصحابنا من الثغر المحروس في شوان على بغتة من العدو المخذول ، وضربوها بقوارير نفط فاحترقت ، وارتفع لهيبها في البحر ارتفاعا عظيما ، واشتبكت الاصوات بالتهليل والتكبير ، وكفى الله شرها ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وحزن الالمان لذلك حزنا عظيما ، وغشيتهم كآبة شديدة ، ووقع عليهم خذلان عميم ....



ذكر خروجهم إلى راس الماء

ولما ضاق بهم الامر[1] ، وعظم عليهم الغلاء ، وخرج منهم خلق عظيم مستأمنين من شدة الجوع ، عزموا على الخروج الينا ، وكان طمعهم بسبب مرض عرا السلطان ــ قدس الله روحه ــ فظنوا أنه لا يستطيع النهوض ، وكان خروجهم يوم الاثنين حادي عشر شوال سنة ست وثمانين

(١) الضمير هنا يعود على الصليبيين .

وخمسمائة ، بخيلهم ورجلهم ، متحملين أزوادا وخيما ، وكان خروجهم الى الآبار التي استحدثها المسلمون تحت تل العجل لما كانوا نزولا عليه ، وأخذوا معهم عليق أربعة أيام ـ على ما قيل ـ فأخبر ـ رحمة الله عليه ـ بخروجهم على هذا الوجه ، فأمر اليزك أن ينزاح من بين أيديهم الى تل كيسان ، وكان اليزك على تل العياضية . وكان نزول العدو على الآبار بعد صلاة العصر من اليوم المذكور ، وباتوا تلك الليلة ، واليزك حولهم جميع الليل ، فلما طلع الصبح جاء من اليزك من أخبره ـ رحمة الله عليه ـ بأنهم قد تحركوا للركوب ، وكان ـ رحمه الله ـ قد أمر الثقل في أول الليل أن يسير الى الناصرة والقَيْمون[1]، فرحل الثقل وبقي الناس ، وكنت من جملة من أقام في خدمته ، وأمر العسكر أن يركب ميمنة وميسرة وقلبا تعبئة القتال وركب ـ رحمة الله عليه ـ وصاح الجاووش بالناس فركبوا ، وساروا حتى وقف على جبل من جبال الخروبة ، وسارت الميسرة حتى بلغ آخرها الجبل ، وسارت الميمنة حتى بلغ آخرها الى النهر وقريب البحر ، فكان في الميمنة

(١) حصن قرب الرملة في فلسطين .

ولده الملك الافضل ــ صاحب دمشق ــ وولده الملك الظاهر ــ صاحب حلب ــ ، وولده الملك الظافر ــ صاحب بصرى ــ ، وولد عز الدين ــ صاحب الموصل علاء الدين خرم شاه ثم الملك العادل أخوه في طرفها ، ويليه قريب منه حسام الدين لاجين والطواشي قايماز النجمي ، وعز الدين جرديك النوري ، وحسام الدين بشارة ــ صاحب بانياس ــ وبدر الدين دلدرم ــ صاحب تـل باشر ــ الياروقي ، وجمع كثير من الامراء . وكان في الميسرة عماد الدين زنكي ــ صاحب سنجار ــ ، وابن أخيه معز الدين ــ صاحب الجزيرة ــ وفي طرفها الملك المظفر تقي الدين ابن أخيه . وكان عماد الدين زنكي غائبا بنفسه مع الثقل لمرض كان به ، وبقي عسكره . وكان في الميسرة سيف الدين علي المشطوب وجميع المهرانية ، والهكارية ، وخشترين ، وغـيرهم من الامراء الاكراد . وفي القلب الحلقة السلطانية . وتقدم السلطان ــ رحمة الله عليه ــ أن يخرج من كل عسكر جمع من الجاليش ، وأن يدوروا حول العدو واليزك معهم ، وأخفى بعض الاطلاب وراء التلال ، عساهم يجدون غرة

من العدو ، ولم يزل عدو الله يسير والناس يقاتلونهم من كل جانب ، وهو سائر على شاطىء النهر من الجـانب الشرقي ، حتى أتى رأس العين ، وداروا حوله حتى عبروه الى الجانب الغربي ، ونزلوا والقتال يتلقف منهم الابطال ، ويصرع منهم الرجال ، وكان نزولهم على تل هناك ، وضربوا خيامهم ممتدة منه الى النهر ، وخرج منهم في ذلك اليوم خلق عظيم ، وقتل منهم أيضا جماعة ، وكانوا اذا جرح منهم واحد حملوه ، واذا قتل واحد منهم دفنوه ، وهم سائرون، حتى لا يتبين قتيل ولا جريح ، وكان نزولهم يوم الثلاثاء المذكور بعد الظهر ، وتراجعت العساكر عنهم الى مواطن المصابرة ومواقف الحراسة ، وتقدم السلطان ــ رحمة الله عليه ــ الى الميسرة أن تستدير بهم بحيث يقع آخرها على البحر ، والميمنة تستدير بالنهر من الجانب الشرقي ، والجاليش يقاتلهم ويضربهم بالنشاب بحيث لا ينقطع النشاب عنهم أصلا ، وبات الناس تلك الليلة على هذا المثال . وسار هو ــ رحمة الله عليه ــ ونحن في خدمته الى رأس جبل الخروبة الذي كان نازلا عليه في العام الماضي فنزل في خيمة لطيفة والناس حوله في خيم لطاف بمرأى من العدو ، وأخبار العدو

تتواصل اليه ساعة فساعة الى الصبح . ولما كان الصبح في يوم الاربعاء ثالث عشر شوال وصل من أخبر أنهم تحركوا للركوب عند الصبح فركب ــ رحمة الله عليه ــ وذلك في صبيحة الاربعاء ثالث عشر شوال ورتب الاطلاب وسار حتى أتى أقرب جبال الخروبة اليهم بحيث يشاهد جميع أحوالهم . وكان ــ رحمه الله ــ ملتاث المزاج ، ضعيف القوة ، قوي القلب ، ثم بعث الى العساكر وأمرها بالمقاتلة والمضايقة والحملة عليهم من كل جانب ، وأمر الاطلاب أن تحيط بهم بحيث لا تكون قريبة أو بعيدة ، ليكون ردءا للمقاتلة الى أن تضاحى النهار ، وسار العدو على شاطىء النهر من الجانب الغربي يطلب جهة خيمه ، والقتال يشتد عليهم من كل جانب ، فاشتدوا في قتالهم من كل جانب الا من جانب النهر ، والتحم القتال ، فصرع منهم خلق عظيم ، وهم يدفنون قتلاهم ، ويحملون جرحاهم ، وقد جعلوا راجلهم سورا لهم ، تضرب الناس بالزنبورك[1] والنشاب ، حتى لا يترك أحد يصل اليهم الا بالنشاب فانه كان يطير عليهم كالجراد ، وخيالتهم يسيرون في وسطهم بحيث لم

(1) الزنبورك : نوع من القسي أو السهام .

يظهر أحد منهم في ذلك اليوم آصلا ، والكوسات تخفق ، والبوقات تنعر ، والاصوات بالتهليل والتكبير ترتفع . هذا والسلطان ـ رحمه الله ـ يمد الجاليش بالاطلاب والعساكر التي عنده حتى لم يبق معه الا نفر يسير ، ونحن نشاهد الاحوال . وعلَم العدو مرتفع على عجلة هو مغروس فيها ، وهي تسحب بالبغال ، وهم يذبون عن العلم . وهو عال جدا كالمنارة ، خرقته بياض ، ملمع بحمرة على شكل الصلبان ، ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقت الظهيرة الى قبالة جسر دعوق . وقد ألجمهم العطش وأخذ منهم التعب ، وأثخنتهم الجراح . واشتد بهم الامر ، وألجمهم العطش من شدة الحر . ولقد قاتل المسلمون في ذلك اليوم قتالا شديدا ، وأعطوا الجهاد حقه . وهجموا عليهم هجوما عظيما ، واستداروا بهم كالحلقة ، وهم لا يظهرون من رجالتهم ، ولا يحملون ، وكان الفعل معظمه للحلقة في ذلك اليوم ، فانهم أذاقوهم طعم الموت ، وجرح منهم في ذلك اليوم جماعة كإياز الطويل ـ رحمه الله ـ ، فانه قام في ذلك الحرب أعظم مقام يحكى عن الاوائل . وجرح جراحات متعددة وهو مستمر على القتال ، وجرح سيف الدين يازكوج جراحات متعددة ، وهو من فرسان الاسلام وشجعانه ، وله

مقامات متعددة ، وجرح خلق كثير في ذلك اليوم . ولم يزل الناس حولهم حتى نزلوا ظهيرة نهار ذلك اليوم عند جسر دعوق ، وقطعوا الجسر وأخربوه ، خوفا من عبور الناس اليهم . ورجع السلطان ــ رحمة الله عليه ــ الى تل الخروبة ، وأقام عليهم يزكا يحرسهم ، وبات وأخبارهم تتواتر عليه حتى الصباح ، وعزم في تلك الليلة على كبس بقيتهم في الخيم . وكتب الى البلد يعرفهم ذلك حتى يخرجوا هم من ذلك الجانب . ونحن من هذا الجانب ، فلم يصل من أهل البلد كتاب ، فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخير الكتاب . ولما كان صباح الخميس رابع عشر الشهر وصل من أخبر أن العدو عليه حركة الرحيل ، فركب السلطان ــ رحمه الله ــ وطلب الاطلاب ، وكف الناس عن القتال خشية أن يغتالوا ، فان العدو كان قد قرب من خيمه ، وأوقف الاطلاب في الجانب الشرقي من النهر تسير قبالة العدو حتى وصل الى خيمه ، وكان ممن جرح من مقدميهم في هذه السرية الكندهري والمركيس وتخلف ابن ملك الالمان في الخيم مع جمع كثير منهم ، ولما دخل العدو الى خيمه كان لهم بها أطلاب مستريحة ، فخرجت على اليزك الاسلامي وحملت عليه ، وانتشب القتال بين اليزك وبينهم ، وجرى

قتال عظيم قتل فيه من العدو وجرح خلق عظيم ، وقتـــل من المسلمين ثلاثة نفر ، وقتل من العدو شخص كبير فيهم مقدم عندهم ، وكان على حصان عظيم ، ملبس بالزرد الى حافره ، وكان عليه لبس لم ير مثله ، وطلبوه من السلطان ـــ رحمة الله عليه ـــ بعد انفصال الحرب فدفع اليهم جثته وطلب رأسه فلم يوجد ، وعاد السلطان الى مخيمه ، وأعيد الثقل الى مكانه ، وعاد كل قوم الى منزلتهم وعاد عماد الدين وقد أقلعت حُمّاه ، وبقي التياث مزاج السلطان ، وهو كان سبب سلامة هذه الطائفة الخارجة كونه لا يقدر على مباشرة الامر بنفسه ، ولقد رأيته ـــ رحمة الله عليه ـــ وهو يبكي في حال الحرب ، كيف لم يقدر على مخالطة القوم ، ورأيته وهو يأمر أولاده واحدا بعد واحد بمصافحة الامر ، ومخالطة الحرب ـــ رحمة الله عليه ـــ ولقد سمعت منه وقائل يقول له : ان الوخم قد عظم في مرج عكا ، بحيث إن الموت قد كثر في الطائفتين ، فأنشد متمثلا :

اقتـــلاني ومالكـــا واقتـــلا مالكـــا معي

يريد بذلك : أنني قد رضيت أن أتلف أنا اذا تلف أعداء الله ، وحدث بذلك قوة عظيمة في نفوس العساكر الاسلامية.



ذكر وقعة الكمين

ولما كان يوم الجمعة الثاني والعشرون من شوال من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة رأى ـ رحمة الله عليه ـ أن يضع للعدو كمينا ، وقوي عزمه على ذلك ، فأخرج جمعا من كماة العسكر وشجعانه ، وأبطاله وفرسانه، وانتخبهم من خلق كثير ، وأمرهم أن يسيروا في الليل ؛ ويكمنوا في سفح تل هو شمالي عكا ، بعيدا عن عسكر العدو . عنده كانت منزلة الملك العادل حين وقعت الوقعة المنسوبة اليه . وأن يظهر للعدو منهم نفر يسير ؛ وأن يقصدوه في خيمه . ويحركوه حتى اذا خرج انهزموا بين يديه نحو الكمين . ففعلوا ذلك ، وساروا حتى أتوا التل المذكور ليلا . فكمنوا تحته . ولما علا نهار السبت الثالث والعشرون من شوال خرج منهم نفر يسير على جياد من الخيل، فساروا حتى أتوا مخيم العدو ، ورموهم بالنشاب ، وحركوا حميتهم بالضرب المتواتر ، فانتحى لهم مقدار مائتي فارس . وخرجوا شاكين في السلاح على خيل جياد ، بعدة تامة وأسلحة كاملة ، وقصدوهم وليس معهم راجل واحد ،

وداخلهم الطمع فيهم لقلة عدتهم ، فانهزموا بين أيديهم . وهم يقاتلون وينتقلون ، حتى أتوا الكمين فخرج عليهم رجاله ، وثارت عند وصولهم اليه أبطاله ، وصاحوا فيهم صيحة الرجل الواحد ، وهجموا عليهم هجوم الاسد على فريستها ، فثبتوا وصبروا وقاتلوا قتالا شديدا ، ثم ولوا منهزمين فتسكن أولياء الله منهم ووقعوا فيهم ضربا بالسيف، حتى ألقوا منهم جمعا عظيما ، واستسلم الباقون للاسر ، فأسروهم ، وأخذوا خيلهم وعددهم ، وجاء البشير الى المعسكر الاسلامي ، فارتفعت الاصوات بالتهليل والتكبير ، وركب السلطان ــ قدس الله روحه ــ يلتقي بالمجاهدين ، وسار ــ وكنت في خدمته ــ حتى أتى تل كيسان ، فتلقانا أوائل القوم ، فوقف هناك يتلقى العائدين[1] من المجاهدين، والناس يتبركون بهم ، ويشكرونهم على حسن صنيعهم ، وهو ــ رحمة الله عليه ــ يعتبر الاسارى ويتصفح أحوالهم، وكان ممن أسر في ذلك اليوم مقدم عسكر الافرنسيس ،

(١) في الاصل : « العديدين » ، وقد اعتمدنا اللفظ الوارد في نسخة القاهرة .

فانه كان قد أنفذ نجدة قبل وصوله . وأسر خازن الملك أيضا . وعاد السلطان ـ رحمه الله ـ بعد تكامل الجماعة الى مخيمه فرحا مسرورا . وأحضر الاسرى عنده وأمر مناديا ينادي : « آلا ان من أسر أسيرا فليحضره » . فأحضر الناس أسراهم وكنت حاضرا ذلك المجلس . ولقد أكرم ـ رحمة الله عليه ـ المقدمين منهم ، وخلع على مقدم عسكر الافرنسيس فروة خاصا ، وأمر لكل واحد من الباقين بفروة خرجية . فان البرد كان شديدا ، وكان قد أخذ منهم ، وأحضر لهم طعاما أكلوه ، وأمر لهم بخيمة نصبت قريبا من خيمته . وكان يكارمهم في كل وقت ، ويحضر المقدم على الخوان في بعض الاوقات ، وأمر بتقييدهم وحملهم الى محروسة دمشق ، فحملوهم اليها مكرمين ، وأذن لهم في أن يراسلوا أصحابهم ، وأن يحضروا لهم من عسكرهم ما يحتاجون اليه من الثياب وغيرها ، ففعلوا ذلك وساروا الى محروسة دمشق .



ذكر عَودْ العساكر من الجهاد

ولما هجم الشتاء ، وهاج البحر ، وأمن العدو أن يضرب مصافا ، وأن يبالغ في طلب البلد وحصاره من شدة الامطار وتواترها ، أذن السلطان ـ قدس الله روحه ـ للعساكر الاسلامية في العود الى بلادها ، لتأخذ نصيبا من الراحة، وتجم خيولها الى وقت العمل ، فكان أول من سار عماد الدين صاحب سنجار لما كان عنده من القلق في طلب الدستور ، وكان مسيره يوم الاثنين خامس عشر شوال سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وسار عقيبه في ذلك اليوم ابن أخيه سنجر شاه صاحب الجزيرة ، هذا بعد أن أفيض عليهما من التشريف والانعام والتحف ما لم ينعم به على غيرهما . وسار علاء الدين ابن صاحب الموصل في مستهل ذي القعدة من السنة المذكورة مشرفا مكرما ، معه التحف والطرائف ، وتأخر من العساكر الملك المظفر تقي الدين الى أن دخلت سنة سبع وثمانين ، وتأخر أيضا ولده الملك الظاهر حتى دخلت السنة المذكورة ، وسار ولده الملك الظاهر الى

محروسة حلب ضاحي نهار الاربعاء تاسع المحرم سنة سبع وثمانين ، وسار الملك المظفر في ثالث صفر منها ، ولم يبق عند السلطان الا نفر يسير من الامراء والحلقة الخاص .



ذكر اشتغال السلطان ـ رحمه الله ـ

بإدخال البدل إلى البلد

ولما هاج البحر وأمنت غائلة مراكب العدو ، ورفع ما كان له في البحر من الشواني الى البر ، اشتغل السلطان ـ رحمة الله عليه ـ في ادخال البدل الى عكا ، وحمل المير والذخائر والنفقات والعدد اليها ، واخراج من كان بها من الامراء ، لعظم شكايتهم من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر ، وملازمة القتال ليلا ونهارا ، وكان مقدم البدل الداخل من الامراء الامير سيف الدين علي المشطوب ، دخل في يوم الاربعاء سادس عشر المحرم من شهور سنة سبع

وثمانين وخمسمائة . وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي
كان بها ، وهو الامير حسام الدين أبو الهيجاء ، وأصحابه
ومن كان بها من الامراء ودخل مع المشطوب خلق من الامراء
وأعيان من الخلق ، وتقدم الى كل من دخل أن يصحب
معه ميرة سنة كاملة . وانتقل الملك العادل بعسكره الى
حيفا على شاطئ النهر ، وهو الموضع الذي تحمل منه
المراكب وتدخل الى البلد ، واذا خرجت تخرج اليه . فأقام
ثَمَّ يحث الناس على الدخول ، ويحرس المير والذخائر .
لئلا يتطرق اليها من العدو من يتعرضها . وكان مما دخل
اليها سبع بُطسٍ مملوءة ميرة، وذخائر ونفقات ،كانت وصلت
من محروسة مصر محملة ، قد تقدم السلطان بتعبيها من مدة
مديدة ، وكان دخولها يوم الاثنين ثاني ذي الحجة من
السنة الخالية ، فانكسر منها مركب على الصخر الذي هو
قريب الميناء ، فانقلب كل من في البلد من المقاتلة الى جانب
البحر لتلقي البطس وأخذ ما فيها . ولما علم العدو انقلاب
المقاتلة الى جانب البحر أخذوا غرتهم ، واجتمعوا في خلق

عظيم ، وزحفوا على البلد من جانب البر زحفة عظيمة ، وقاربوا الاسوار ، وصعدوا في سلم واحد ، فاندق بهم السلم كما شاء الله تعالى ، وتداركهم أهل البلد ، فقتلوا منهم خلقا عظيما ، وعادوا خائبين خاسرين . وأما البطس فان البحر هاج هيُجا عظيما ، وضرب بعضها ببعض على الصخر ، فهلكت وهلك جميع ما كان فيها ، وهلك فيها خلق عظيم ، قيل كان عددهم ستين نفرا ، وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت كفت البلد سنة كاملة ، وذلك بتقدير العزيز العليم ، ودخل على المسلمين من ذلك وهن عظيم ، وحرِج السلطان بذلك حرجا شديدا ، واستخلف ذلك في سبيل الله ، وما عند الله خير وأبقى ، وكان ذلك أول علائم أخذ البلد والظفر به .



ذكر وقوع قطعة من السور

فهي العلامة الثانية

ولما كانت ليلة السبت سابع ذي الحجة من السنة الخالية قضى الله وقدر بأن وقع من السور قطعة عظيمة ، فوقعت بثقلها على الباشورة[1] فهدمت أيضا منها قطعة عظيمة . فداخل العدو الطمع ، وهاج للزحف هيجا عظيما . وجاؤوا الى البلد كقطع الليل المدلهم من كل جانب ، فتحايا الناس في البلد وثارت هممهم ، فقتلوا من العدو وجرحوا خلقا عظيما ، وقاتلوهم قتالا شديدا ، حتى ضرسوا وآيسوا من أن ينالوا خيرا ، ووقفوا كالسد في موضع القطعة الواقعة ، وجمعوا جميع من في البلد من البنائين والصناع ، ووضعوهم في ذلك المكان ، وحموهم بالنشاب والجروخ والمناجيق . فما مرت الا ليال يسيرة حتى انتظمت ، وعاد بناؤها أحسن ما كان وأقواه وأتقنه ، والحمد لله .



(1) الباشورة : الحائط الظاهري من الحصن .

ذكر الظفر بمراكب العدو

وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع الينا ، وقالوا للسلطان : « نحن نخوض البحر في براكيس ، ونكسب من العدو ، ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين » . فأذن لهم في ذلك ، وأعطاهم بركوسا ، وهو المركب الصغير ، فركبوا فيه ، وظفروا بمراكب للتجار من العدو ، وهي قاصدة الى عسكرهم ، وبضائعهم معظمها فضة مصاغة وغير مصاغة ، فوقع عليها ، وقاتلوهم حتى أخذوهم، وكسبوا منهم مالا عظيما ، وأسروهم وأحضروهم بين يدي السلطان ــ رحمة الله عليه ــ ، وذلك في ثالث عشر ذي الحجة من السنة المذكورة ، وهي سنة ست . ولقد كنت حاضرا ذلك المجلس ، وكان من جملة ما أحضروه مائدة فضة ، وعليها مكبة مخرمة من فضة ، فأعطاهم السلطان ــ رحمه الله ــ الجميع ، ولم يأخذ منهم شيئا ، وفرح المسلمون بنصر الله عليهم بأيديهم .



ذكر موت ابن ملك الألمان

لعنه الله

وذلك أن العدو لما دخل الشتاء عليهم ، وتواترت الانداء، واختلفت الاهواء ، وخَمِ المرج وخما عظيما ، ووقع فيهم بسبب ذلك مَوَتان عظيم ، وانضم الى ذلك الغلاء الشديد، وانسد عليهم البحر الذي كان يجيئهم منه المير من كل جانب ، فكان يموت منهم في كل يوم المائة والمائتان على ما قيل ، وقيل أكثر من ذلك ، ومرض ابن ملك الالمان مرضا عظيما ، وعرض له مرض الجوف ، فهلك به في ثاني عشرين ذي الحجة سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وحزن الفرنج عليه حزنا عظيما ، وأشعل له نيران هائلة ، بحيث لم يبق لهم خيمة الا وأشعل فيها الناران والثلاثة ، بحيث بقي عسكرهم كله نارا تقد ، وفرح المسلمون بموته بمثل ما حزن الكفار بفقده، وهلك منهم كبير يقال له الكند ينباط، ومرض الكندهري وأشفى على الهلاك . وفي الرابع والعشرين منه أخذ منهم بركوسان فيهما نيف وخمسون نفرا . وفي الخامس والعشرين منه أخذ منهم أيضا بركوس

كبير ، وأخذ جميع ما كان فيه ، وكان من جملة ما كان فيه مدوطة مكللة باللؤلؤ ، هي من تفاصيل الملك ، وقيل كان في البركوس ابن أخته ، وأخذ أيضا ، ولله الحمد .



ذكر غارة اسد الدين

وهذا أسد الدين هو شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير ، وهو صاحب حمص ، وكان من حديثه أن السلطان ــ رحمة الله عليه ــ كان قد رسم له أن يأخذ حذره من الفرنج بطرابلس ، ويأخذ نفسه بحراسة المسلمين والفلاحين في تلك الناحية ، وأنه قيل له : ان افرنج طرابلس[1] قد أخرجوا دشارهم[2] وخيلهم الى مرج هناك وأبقارهم ودوابهم ، وأنه قرر مع عسكره قصدهم ، فخرج على غرة منهم ، وهجم على دشارهم فأخذ منهم أربعمائة رأس من الخيل ، ومائة رأس من البقر ، فهلك من الخيل أربعون ، وسلم الباقي ، وعاد الى البلد ، ولم يفقد

(١) في الاصل : اهل طرابلس ، وقد اعتمدنا العبارة الواردة في نسخة القاهرة .

(٢) الدشار : دواب القوم من خيل وغيرها تطلق في المراعي .

من أصحابه أحدا ولله الحمد ، ووصل الكتاب بذلك في رابع صفر سنة سبع وثمانين وخمسمائة . وفي ليلة هذا اليــوم ألقت الريح مركبا للعدو على الذيب فكسرته ، وكان فيه خلق عظيم ، فبصر بهم أصحابنا ، فوثبوا عليهم ، وأخذوهم عن آخرهم ، ولقد حضرت وقد عرض منهم على السلطان ـ رحمة الله عليه ـ خمسة عشر نفرا ، وليلة هلال ربيــع الاول من هذه السنة خرج أصحابنا من البلد ، وهجموا على العدو وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأخذوا منهم من خيمهم جمعا عظيما ، منهم اثنتا عشرة امرأة على ما قيل .



ذكر وقائع عدة في سنة سبع

وفي ثالث ربيع الاول كان اليزك للحلقة السلطانية ، وخرج من العدو اليهم خلق عظيم ، وجرى بينهم وقعة شنيعة، قتل فيها من العدو جماعة ، وقتل منهم رجل كبير على ما قيل، ولم يفقد من المسلمين الا خادم كان للسلطان ـ رحمة الله عليه ـ يسمى قراقوش ، وكان شجاعا عظيما ، له وقعات عظيمة كثيرة ، استشهد في ذلك اليوم ـ رحمه الله ـ ولما كان يوم السبت تاسع ربيع الاول سنة سبع بلغ السلطان

ـ رحمه الله ـ أن العدو تخرج منه طائفة وينفسحون لبعدنا
عنهم ، فاقتضى رأيه ـ رحمه الله ـ أن أنفذ أخاه الملك
العادل ، وفي خدمته خلق عظيم من العساكر الاسلامية ،
وأمره أن يكمن للعدو وراء التل الذي كانت فيه الوقعة
المعروفة به ، وسار هو وجمع من كبار أهله وأصحابه .
فأكمن وراء تل العياضية ، فكان ممن كان معه من كبار
أهله الملك المظفر تقي الدين ، وابنه ناصر الدين محمد ،
والملك الافضل ولده ، ومعه من صغار أولاده الملك الاشرف
محمد ، والملك المعظم تورانشاه ، والملك الصالح اسماعيل،
وكان من المعممين القاضي الفاضل ، والديوان ، وكنت
في الصحبة في ذلك اليوم . وركب جماعة من الشجعان على
الخيول الجياد ، وناوشوا العدو وباسطوه فلم يخرج في
ذلك اليوم ، وكأنه كان قد وشي اليهم بجلية الامر ، الا أن
ذلك اليوم لم ينفك الا بنوع نصر ، فانه وصل في أثناء ذلك
اليوم خمسة وأربعون نفرا من أسارى الفرنج ، كان قد
أخذوا في بيروت ، وسيروا اليه ـ رحمه الله ـ فوصلوا
في ذلك اليوم الى ذلك المكان . ولقد شاهدت منه رقة قلب
ورحمة في ذلك اليوم لم يُر أعظم منها ـ رحمه الله ـ وذلك

أنه كان فيهم شيخ كبير طاعن في السن ، لم يبق في فمه ضرس ، ولم يبق له قوة الا مقدارا يتحرك بها لا غير ، فقال للترجمان : « سله : ما الذي حملك على المجيء وأنت في هذه السن ؟ وكم من ههنا الى بلاده ؟ » فقال : « أما بلادي فبيني وبينها مسيرة عدة أشهر ، وأما مجيني فانما كان للحج الى القيامة »[1] . فرق له السلطان — قدس الله روحه — ومنّ عليه وأطلقه وأعاده راكبا على فرس الى عسكر العدو ، ولقد طلب أولاده الصغار أن يأذن لهم في قتل أسير ، فلم يفعل ، فسألته — رحمه الله — عن سبب المنع ، وكنت حاجبهم فيما طلبوه ، فقال : « لئلا يعتادوا من الصغر سفك الدماء ويهون عليهم ذلك ، وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر » ولا يخفى ما في طي ذلك من الرأفة والرحمة للمسلمين — رأف الله به ورحمه — ولما أيس من خروج العدو عاد الى المخيم في عشية ذلك اليوم ، وهو الاحد عاشر ربيع الاول سنة سبع ، فرحا مسرورا .



(١) المراد كنيسة القيامة .

ذكر وصول العساكر الإسلامية

وملك الافرنسيس

ومن ذلك الوقت انفتح البحر وطاب الزمان . وجاء أوان عود العساكر الى الجهاد من الطائفتين . وكان أول من قدم من عساكر المسلمين علم الدين سليمان بن جندر من أمراء الملك الظاهر ولده صاحب حلب . وكان شيخا كبيرا مذكورا له وقائع . ذا رأي حسن . والسلطان يحترمه ويكرمه . وله قديم صحبة . ثم قدم بعده مجد الدين بن عز الدين فروخشاه بن شاهنشاه ، وهو صاحب بعلبك . قدما في ربيع الاول من شهور سنة سبع وثمانين وخمسمائة . وتتابعت بعد ذلك العساكر الاسلامية من كل صوب . وأما عسكر العدو المخذول ، فانهم كانوا يتواعدون اليزك ومن يقاربهم من عساكر المسلمين بقدوم ملك الفرنسيس ، وكان عظيما عندهم ، مقدما محترما ، من كبار ملوكم ، ينقاد اليه الموجودون في العسكر بأسرهم ، بحيث اذا حضر حكم على الجميع ولم يزالوا يتواعدونا بقدومه حتى قدم — لعنه الله — في ست بطس تحمله وتحمل ميرته ، وما يحتاج اليه من الخيل وخواص أصحابه ، وكان قدومه يوم السبت ثالث عشرين ربيع الاول من شهور سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

★ ★ ★

ذكر خبر ملك الانكتار[1]

لعنه الله

وهذا ملك الانكتار شديد البأس بينهم ، عظيم الشجاعة ، قوي الهمة ، له وقعات عظيمة ، وله جسارة على الحرب ، وهو دون الفرنسيس عندهم في الملك والمرتبة ، لكنه أكثر مالا منه ، وأشهر في الحرب والشجاعة ، وكان من خبره أنه لما وصل الى جزيرة قبرص لم ير أن يتجاوزها الا وأن تكون له ، وفي حكمه ، فنازلها وقاتلها ، فخرج اليه صاحبها ، وجمع له خلقا عظيما ، وقاتله قتالا شديدا ، فأنفذ الانكتار الى عسكرهم يستنجد منهم الجماعة ، ليعينوه على مقصوده ، فأنفذ اليه الملك جفري أخاه ومعه مائة وستون فارسا ، وبقي الفرنج على عكا منتظرين ما يكون بين الطائفتين منهم . ولما كان يوم الاحد سلخ ربيع الآخر من سنة سبع وصلت كتب من بيروت تخبر أنه قد أخذ من مراكب الانكتار القاصدة نحو عسكر العدو خمس مراكب ، وطرادة فيها خلق عظيم ، رجال ونساء وميرة وأخشاب

(1) أي ملك الانكليز .

وآلات وغير ذلك ، وفيها أربعون فرسا ، وكان ذلك فتحا عظيما ، استبشر به المسلمون . ولما كان يوم الخميس رابع جمادى الاولى سنة سبع زحف العدو الى البلد ، ونصبوا عليه مناجيق سبعة ووصلت كتب من عكا بالاستنفار العظيم ، والتماس شغل العدو عنهم ، فأعلم السلطان ــ رحمه الله ــ العساكر بالعزم على الرحيل لمضايقة العدو ومقاربته ، وأصبح على المسير الى جهة العدو ، فسار حتى وقف على الخروبة ، ورتب العساكر ميمنة وميسرة وقلبا ، ثم أنفذ من كشف حال العدو وحال خنادقهم ، هل فيها كمين للعدو أم لا ، فعادوا وأخبروا بخلوها من الكمين ، فسار بنفسه ومعه نفر يسير من مماليكه حتى أتى خنادقهم ، وصعد تلا كان يعرف بتل الفضول ، هو قرب العدو ، مشرف على خيمه ، وشاهد المنجنيقات وما يعمل منها ، وما هو بطال. ثم عاد سائرا الى مخيمه . وأنا في خدمته ــ رحمه الله ــ وفي صبيحة هذه الليلة أتاه اللصوص برضيع له ثلاثة أشهر قد أخذوه من أمه وسرقوه .



ذكر قصة الرضيع

وذلك أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون الى خيام الغدو فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون ، وكان من قضيتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلا رضيعا له ثلاثة أشهر ، وساروا به حتى أتوا به الى خيمة السلطان ـ رحمه الله ـ وعرضوه عليه . وكان كل ما يأخذونه يعرضونه عليه ، فيخلع عليهم ويعطيهم ما أخذوه ، ولما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور في طول تلك الليلة حتى وصل خبرها الى ملوكهم ، فقالوا لها : « انه رحيم القلب ، وقد أذِنّا لك في الخروج اليه ، فاخرجي واطلبيه منه ، فانه يرده عليك » فخرجت تستغيث الى اليزك الاسلامي ، فأخبرتهم بواقعتها بترجمان كان يترجم عنها ، فأطلقوها وأنفذوها الى السلطان ، فأتته وهو راكب على تل الخروبة ، وأنا فيخدمته وفي خدمته خلق عظيم ، فبكت بكاء شديدا ، ومرغت وجهها في التراب ، فسأل عن قصتها ، فأخبروه ، فرق لها ، ودمعت عينه ، وأمر باحضار الرضيع ، فمضوا فوجدوه قد بيع في السوق ، فأمر بدفع ثمنه الى المشتري ، وأخذه منه ، ولم

يزل واقفا — رحمة الله عليه — حتى أحضر الطفل ، وسلم اليها . فأخذته وبكت بكاء شديدا وضمته الى صدرها . والناس ينظرون اليها ويبكون ، وأنا واقف في جملتهم . فأرضعته ساعة ثم أمر بها ، فحملت على فرس ، وألحقت بعسكرهم مع طفلها . فانظر الى هذه الرحمة الشاملةلجنس البشر ، اللهم انك خلقته رحيما فارحمه رحمة واسعة من عندك ، ياذا الجلال والاكرام ، فانظر الى شهادة الاعداء له بالرقة والكرم والرأفة والرحمة .

ومليحـــة شهـــدت لهـــا ضراتهـــا
والحسن ليس لحقـــه من ناكـــر

وفي ذلك اليوم وصل ظهير الدين بن البلنكري ، وكان مقدما عظيما من أمراء الموصل ، وصل مفارقا لهم طالبـــا خدمة السلطان — رحمة الله عليه — ولما عاد السلطان الى مخيمه لم يمكث الا ساعة حتى وصله الخبر بتجديد الزحف على عكا ، فعاد وركب من ساعته ، وسار نحو البلـــد ، فوصل وقد انفصل الحرب بدخول الليل بين الطائفتين .



ذكر انتقال السلطان ــ رحمه الله ــ
إلى تل العياضية

ولما كان صبيحة الثلاثاء تاسع جمادى الاولى بلـغ السلطان ــ رحمة الله عليه ــ أن الفرنج قد ضايقوا البلد ، وركبوا عليه المناجيق ، فأمر الجاوش أن صاح بالناس ، وركب لركوبه العسكر : راجلهم وفارسهم ، وسار حتى أتى الخروبة ، وقوّى اليزك بتسييره جماعة من العسكر المنصور اليه ، فلم يخرج العدو ، واشتد زحفهم على البلد، فضايقهم ــ رحمه الله ــ مضايقة عظيمة حتى قاتلهم قتالا شديدا ، وهجم عليهم في خنادقهم ، ولم يزل كذلك حتى عادوا عن الزحف ظهيرة نهار الثلاثاء المذكور ، وعاد العدو الى خيمه ليأسه من أمر البلد ، وعاد السلطان ــ رحمة الله عليه ــ الى خيمة لطيفة ضربت له هناك ، يستظل بها من الشمس ، فنزل لصلاة الظهر والاستراحة ساعة ، وقوّى اليزك ، وأمر الناس بالعود الى المخيم لاخذ جزء من الراحة. وكنت في خدمته ــ رحمه الله ــ فبينما هو كذلك اذ وصل من اليزك من أخبر أن القوم قد عادوا الى الزحف لـمـا

أحسوا بانصرافه عنهم أشد ما كانوا أولا ، فأمر من تبع
الناس وأمرهم بالعود ، فتراجعت العساكر الى جهة العدو
المخذول أطلابا أطلابا ، وأمرهم بالمبيت على أخذ لأمة الحرب،
وأقام هو هناك على عزم المبيت ، وفارقت خدمته آخر نهار
الثلاثاء ، وعدت الى الخيمة ، وبات هو — رحمه الله —
وجميع العسكر على تعبئة القتال طول الليل ، وأمر طائفة
منهم بمضايقة العدو . ثم سار العسكر أواخر ليلة الاربعاء
عاشر جمادى الاولى من سنة سبع وثمانين وخمسمائة الى
تل العياضية ، قبالة العدو ، وضربت له عليه خيمة لطيفة ،
وأمر الناس أن ينزلوا على التل حوله على العادة في منازلهم
العام الماضي ، لكن جرائد ، مع بقاء الثقل على الخروبة
ونازل العدو في ذلك اليوم أجمع بالقتال الشديد ، والضرب
المبرح المتواتر ، الذي لا يفتر ، شغلا لهم عن الزحف على
البلد من جميع جوانبهم ، وهو بنفسه — رحمه الله —
يدور بين الاطلاب ، ويحثهم على الجهاد ويرغبهم فيه ، كل
ذلك لشغل العدو عن مضايقة البلد . ولما رأى العدو تلك
المنازلة العظيمة ، والملازمة الهائلة ، خاف من الهجوم على
خيمهم ، فتراجعوا عن الزحف ، واشتغلوا بحفظ الخنادق ،

وحراسة الخيم . ولما رأى فتورهم عن الزحف ، عـاد الى خيمه في تل العياضية ، ورتب على خنادقهم من يخبره بحالهم ساعة فساعة ، اذا رجعوا الى الزحف كل ذلك والعدو على اصراره في مضايقة البلد والزحف عليه .



ذكر الشروع في مضايقة البلد

وقد بلغ من مضايقتهم البلد ، ومبالغتهم في طمّ خندقه أنهم كانوا يلقون فيه موتى دوابهم بأسرها ، وآل الامر حتى كان يلقون فيه موتاهم ، وقالوا : كان اذا جرح منهم واحد جراحة موئسة مثخنة ألقوه فيه ، بهذا جميعه تواصلت كتب أصحابنا من البلد . وأما أهل البلد فانهم انقسموا أقساما : قسم ينزلون الى الخندق ،ويقطعون الموتى والدواب التي يلقونها فيه قطعا ، ليسهل نقلها ، وقسم ينقلون ما يقطعه ذلك القسم ويلقونه في البحر ، وقسم يذبون عنهم ويدفعون حتى يتمكنوا من ذلك ، وقسم في المنجنيقات وحراسة الاسوار ، وأخذ منهم التعب والنصب ، وتواترت شكايتهم من ذلك ، وهذا ابتلاء لم يُبل بمثله أحد ، ولا يصبر عليه

جَلِد ، وكانوا يصبرون ، والله مع الصابرين . هــذا والسلطان ـ رحمة الله عليه ـ لا يقطع الزحف عنهم ، والمضايقة على خناقهم بنفسه وخواصه وأولاده ليلا ونهارا حتى يشغلهم عن البلد ، وصوبوا منجنيقــاتهم الى برج عين البقر ، وتواترت عليه أحجار المنجنيقات ليلا ونهارا حتى أثرت فيه الاثر البين ، وكلما ازدادوا في قتال البلد ازداد السلطان في قتالهم ، وكبس خنادقهم ، والهجوم عليهم ، حتى خرج منهم شخص يطلب من يتحدث معه ، فلما أخبر السلطان بذلك قال : « ان كان لكم حاجة فليخرج منكم واحد يحدثنا ، فأما نحن فليس لنا اليكم شغل ، ودام ذلك متصلا الليل مع النهار حتى وصل الانكتار » .



ذكر وصول ملك الانكتار

ولما كان يوم السبت ثالث عشر جمادى الاولى سنــة سبع وثمانين وخمسمائة قدم ملك الانكتار الملعون بعــد مصالحته لصاحب جزيرة قبرص والاستيلاء عليها ، وكان لقدومه روعة عظيمة ، وصل في خمسة وعشرين شانيا مملوءة

بالرجال والسلاح والعدد ، وأظهر الفرنج سرورا عظيما بقدومه وفرحا شديدا ، حتى انهم أوقدوا تلك الليلة نيرانا عظيمة في خيامهم فرحا به ، ولقد كانت تلك النيران مهولة عظيمة ، تدل على نجدة عظيمة كثيرة ، وكان ملوكهم يتواعدونا به ، وكان المستأمنون منهم يخبرون عنهم أنهم متوقفون بما يريدون يفعلونه من مضايقة البلد الى حين قدومه ، فانهذو رأي في الحرب مجرب ، وأثر قدومه في قلوب المسلمين خشية ورهبة ، هذا والسلطان ــ رحمة الله عليه ــ يتلقى ذلك كله بالصبر والاحتساب والاتكال على الله تعالى ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه .

★ ★ ★

ذكر غريق البطسة الإسلامية

وهي العلامة الثالثة على أخذ البلد . ولما كان السادس عشر من جمادى الاولى من شهور سنة سبع وثمانين وخمسمائة وصلت بطسة من بيروت ، عظيمة هائلة ، مشحونة بالآلات والاسلحة والمير والرجال الابطال المقاتلة. وكان السلطان ــ رحمه الله ــ قد أمر بتعبئتها في بيروت وتسييرها ، ووضع فيها من المقاتلة خلقا عظيما ، حتى تدخل الى البلد مراغمة للعدو ، وكان عدة رجالها المقاتلة ستمائة

وخمسين رجلا ، فاعترضها الانكتار الملعون في عدة شوان.
قيل كان في أربعين قلعا ، فاحتاطوا بها من جميع جوانبها .
واشتدوا في قتالها ، وجرى القضاء بأن وقف الهواء ، فقاتلوها
قتالا عظيما ، وقتل من العدو عليها خلق عظيم ، وأحرقوا
على العدو شانيا كبيرا فيه خلق ، فهلكوا عن آخرهم .
وتكاثروا على أهل البطسة ، وكان مقدمهم رجلا جيدا
شجاعا ، مجربا في الحرب ، فلما رأى أمارات الغلبة عليهم .
ورأى أنهم لا بد وأن يقتلوا ، قال : « والله لا نقتل الا
عن عز ، ولا نسلم اليهم من هذه البطسة شيئا » . فوقعوا
في البطسة من جوانبها بالمعاول يهدمونها ، ولم يزالوا كذلك
حتى فتحوها من كل جانب أبوابا ، فامتلأت ماء ، وغرق
جميع من فيها وما فيها من الآلات والمير وغير ذلك ، ولم
يظفر العدو منها بشيء أصلا ، وكان اسم المقدم يعقوب ،
من رجال حلب ــ رحمه الله ــ وتلقف العدو بعض من كان
فيها وأخذوه الى الشواني من البحر ، وخلصوه من الغرق،
ومثلوا به ، وأنفذوه الى البلد ليخبرهم بالوقعة ، وحزن
الناس لذلك حزنا شديدا ، والسلطان ــ رحمة الله عليه ــ
يتلقى ذلك بيد الاحتساب في سبيل الله تعالى ، والصبر على
بلائه ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

★ ★ ★

ذكر حريق الدبابة

وذلك أن العدو المخذول كان قد اصطنع دبابة عظيمة هائلة ، بأربع طبقات : الطبقة الاولى من الخشب ، والثانية من الرصاص . والثالثة من الحديد ، والرابعة من النحاس . وكانت تعلو على السور . وتركب فيها المقاتلة . وخاف أهل البلد منها خوفا عظيما . وحدثتهم نفوسهم بطلب الامان من العدو . وكانوا قد قربوها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور الا مقدار خمسة أذرع على ما يشاهد برأي العين . وأخذ أهل البلد في تواتر ضربها ليلا ونهارا بالنفط ، حتى قدر الله حريقها واشتعال النار فيها . وظهر لها ذؤابة نار نحو السماء ، واشتدت الاصوات بالتكبير والتهليل . ورأى الناس ذلك جبرا لذلك الوهن ، ومحواً لذلك الاثر . ونعمة بعد نقمة ، وايناسا بعد يأس ، وكان ذلك في يوم غريق البطسة ، فوقع من المسلمين موقعا وكان مسليا لحزنهم وكآبتهم .



ذكر وقعات عدة

ولما كان يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الاولى زحف العدو على البلد زحفا عظيما ، وضايقوه مضايقة شنيعة ، وكان قد استقر بيننا وبينهم أنه متى زحف العدو عليهم دقوا كوسهم ، فضربوا كوسهم ، فأجابه كوس السلطان ــ رحمه الله ــ وركبت العساكر وضايقهم السلطان ــ ــ رحمه الله ــ من خارج، وزحف عليهم حتى هجم المسلمون عليهم في خيامهم ، وتجاوزوا خنادقهم ، وأخذوا القدور من أثافيها ، وحضر من الغنيمة المأخوذة من خيامهم شيء عند السلطان ــ رحمة الله عليه ــ وأنا حاضر ، ولم يزل القتال يعمل حتى أيقن العدو أنه قد هجم عليه وأخذ ، فتراجعوا عن قتال البلد ، وشرعوا في قتال العسكر ، وانتشب الحرب بينهم ، ولم تزل ناشبة حتى قام قائم الظهيرة ، وغشي الناس من الحر أمر عظيم من الجانبين ، فتراجعت الطائفتان الى خيامهم ، وقد أخذ منهم التعب والحر ، وانفض القتال في ذلك اليوم .



وقعة اخرى

ولما كان يوم الاثنين ثالث عشرين جمادى الاولى سنة سبع وثمانين دق كوس البلد فجاوبه كوس السلطـان ـ رحمه الله ـ وثار القتال بين الطائفتين ، ولجّ العدو في مضايقة البلد ثقة منه أن الناس لا يهجمون على خيمهم ، وأنهم يهابونها ، فكذب العسكر ظنونهم وهجموا الخيم أيضا ونهبوا منها ، فتراجع العدو الى قتالهم ، ووقع الصائح فيهم فلحقوا جماعة من المسلمين عظيمة داخل خنادقهم وأسوارهم ، وجرى بينهم وقعة عظيمة قتل فيها اثنان من المسلمين وجرح جماعة ، وقتل جماعة من العدو . وأعجب ما في هذه الوقعة أنه كان وصل في ذلك اليوم رجل كبير مذكور من أهـل مازندران يريد الغزاة فوصل والحرب قائمة ، فلقي السلطان ، واستأذنه في الجهاد ، وحمل حملة عظيمة استشهد فيها ـ رحمه الله ـ في تلك الساعة ، ولمـا رأى العدو دخول المسلمين الى خنادقهم وتوغلهم الى داخل أسوارهم ، حركتهم الحميـة ، وبعثتهم النخوة ، فركب فارسهم صحبة راجلهم ، وخرجوا الى ظاهر أسوارهم ،

وحملوا على المسلمين حملة الرجل الواحد ، فثبت المسلمون لهم ثبوتا عظيما لم يتحركوا عن أماكنهم ، والتحم القتال من الجانبين ، واشتد الضرب من الطائفتين فصبر المسلمون صبر الكرام ، ودخلوا في الحرب باقتحام ، فلما رأى العدو ذلـك الصبر المعجز ، والإقدام المزعج ، أنفذ رسولا في غضون ذلك . فاستؤذن له في الوصول ، فأذن له فوصل الرسول أولا الى الملك العادل ــ رحمه الله ــ فاستصحبه ، ووصل به الى الخدمة السلطانية ومعه أيضا الملك الافضل ، فأدى الرسالة ، وكان حاصلها : أن ملك الانكتير يطلب الاجتماع بالسلطان ، فلما سمع السلطان ــ رحمة الله عليه ــ تلك الرسالة أجاب عنها في الحال من غير تفكر ولا تروٍّ ، بأن قال : « الملوك لا يجتمعون الا عن قاعدة ، وما يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة ، واذا أراد ذلك فلا بد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة ، ولا بد من ترجمان نثق فيه في الوسط ، يُفَهِّمُ كلٌّ واحدٍ منا ما يقول الآخر ، فليكن الرسول بيننا ذلك الترجمان ، فاذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك ان شاء الله تعالى ....

ولم تزل الاخبار تتواصل من أهل البلد باستفحال أمر العدو ، والشكوى من ملازمتهم قتالهم ليلا ونهارا ، وذكر ما ينالهم من التعب العظيم من تواتر الاعمال المختلفة عليهم من حين قدوم الانكتير الملعون . ثم مرض مرضا شديدا أشفى فيه على الهلاك . وجُرح الإفرنسيس ولا يزيدهم ذلك الا اصراراً وعُتُواً .



ذكر هرب خادمين للملك

وكان من حديثهما أنهما كانا لأخت ملك الانكتير ، وكانا مسلميْن في الباطن ، لأن اقامتهما كانت في صقلية في خدمة صاحبها . وكانت هي زوجة صاحب صقلية ، فلما مات ومر أخوها بالبلد أخذها وصحبها معه الى العسكر ، ولما وصل الخادمان الى العسكر ، وقاربا المسلمين هربا الى العسكر الإسلامي ، وقبلهما السلطان ــ رحمه الله ــ وأنعم عليهما انعاما عظيما .



ذكر هرب المركيس إلى صور

ولما كان يوم الثلاثاء سلخ جمادى الاولى قوي استشعار المركيس من أنه ان أقام قبضوا عليه ، وأعطوا صور للملك القديم ، الذي كان قد أسره السلطان ـ رحمه الله ـ لما عاناه من الأسر في نصرة دين المسيح ، فلما صحّ ذلك عنده هرب الى صور ، وأنفذوا خلفه قسوسا ليردوه ، وسار في البحر حتى أتى صور ، وشقّ ذلك عليهم وعظم لديهم فانه كان ذا رأي وشجاعة وخبرة .



ذكر قدوم بقية عساكر المسلمين

ولما كان يوم الثلاثاء سلخ جمادى الأولى قدم فيه عسكر سنجار يقدمه مجاهد الدين يرنقش ، فلقيه السلطان ـ رحمه الله ـ واحترمه وكان ديّنا عاقلا محبا للغزو . وأنزله السلطان ـ رحمه الله ـ في الميسرة ، بعد أن كرمه وأنزله في خيمته،وفرح بقدومه فرحا شديدا في ذلك الوقت. ثم قدم بعد ذلك قطعة عظيمة من عسكر مصر المحروسة كعلم الدين كرجي ، وسيف الدين سنقر الدوادار ، وجماعة كثيرة ، ثم قدم بعد ذلك علاء الدين ابن صاحب الموصل في

عسكره ، فلقيه السلطان ـ رحمة الله عليه ـ بالخروبة ، ونزلوا هنا الى بكرة الغد من اليوم الثاني من شهر جمادى الآخرة من شهور سنة سبع وثمانين وخمسمائة . وأصبح سائرا حتى أتى بجحفله قبالة العدو ، فعرض عسكره هناك ، وأنزله السلطان ـ رحمه الله ـ في خيمته . وحمل له من التحف . وقدم له من اللطائف ما يليق بكرمه . وأنزله في الميمنة . وفي يوم الجمعة ثالث جمادى قدمت طائفة من عسكر مصر أيضا.واشتد مرض الانكتير بحيث شغل الفرنج مرضه وشدته عن الزحف . وكان ذلك خيرة عظيمة من الله تعالى ، فان البلد كان قد ضعف من فيه ضعفا عظيما . واشتد بهم الخناق شدة عظيمة ، وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل . هذا واللصوص يدخلون عليهم الى خيامهم ، ويسرقون أقمشتهم ونفوسهم ، ويأخذون الرجال في عافية ، بأن يجيئوا الى الواحد وهو نائم فيضعوا السكين على حلقه ويوقظوه ، ويقولون له بالإشارة : ان تكلمت ذبحناك ويحملونه ويخرجون به الى عسكر المسلمين ، وجرى ذلك مرارا كثيرة ، وعساكر المسلمين تجتمع ويتواتر وصولها من كل جانب حتى تكامل وصولها .



ذكر خروج رسلهم إلى السلطان

رحمه الله

كنت قد ذكرت خروج رسول منهم يلتمس من جانب الانكتار أنه يجتمع بالسلطان ، وذكرت عذر السلطان عن ذلك ، وانقطع الرسول وعاد معاوداً في المعنى ، وكان حديثه مع الملك العادل ـ رحمه الله ـ ثم هو يلقيه الى السلطان ـ رحمه الله ـ ، فاستقرّ بالآخرة أنه رأى أن يأذن له في الخروج ، ويكون الاجتماع في المرج ، والعساكر محيطة بهما ، ومعهما ترجمان ، فلما أذن في ذلك تأخر الرسول أياماً عدة ، يحمل تأخره على مرضه ، واستفاض أن ملوكهم اجتمعوا اليه ، وأنكروا عليه ذلك ، وقالوا : « هذه مخاطرة بدين النصرانية » ، ثم بعد ذلك وصل رسوله يقول : « لا تَظُنَنَّ تأخري بسبب ما قيل ، فان زمام قيادي مفوض اليّ وأنا أحكم ولا يحكم عليّ ، غير أني في هذه الايام اعترى مزاجي التياث ، منعني من الحركة ، فهذا كان العذر في التأخير لا غير ، وعادة الملوك اذا تقاربت منازلهم أن يتهادوا ، وعندي ما يصلح للسلطان ، وأنا أستخرج الإذن في ايصاله اليه » : فقال له الملك العادل : « قد أذن لك في ذلك بشرط

قبول المجازاة على الهدية » : فرضي الرسول بذلك وقال : « الهدية شيء من الجوارح قد جُلبت من وراء البحر ، وقد ضعفت فيحسن أن يحمل الينا طير ودجاج حتى نُطعمها فتقوى ونحملها ، فداعبه الملك العادل ـ رحمه الله ـ وكان فقيها فيما يحدثهم به . وقال : « الملك قد احتاج الى فراريج ودجاج ويريد أن يأخذها منا بهذه الحجة » ثم انفصل حديث الرسالة بالآخرة على أن قال الرسول : « ما الذي أردتم منا ؟ ان كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع » فقيل له : « عن ذلك نحن ما طلبناكم ، أنتم طلبتمونا ، فان كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمعه » . وانقطع حديث المراسلة الى يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، فخرج رسول الانكتار الملعون الى السلطان ـ رحمة الله عليه ـ ، ومعه انسان مغربي قد أسروه من مدة طويلة ، وهو مسلم قد أهداه الى السلطان ـ رحمه الله ـ ، فقبله ، وأحسن اليه ، وأطلقه ، وأعاد الرسول مشرفا مكرما الى صاحبه ، وكان غرضهم بتكرار الرسائل تعرف قوة النفس وضعفها ، وكان غرضنا بقبول الرسائل تعرف ما عندهم من ذلك أيضا .



ذكر كتب وصلت من البلد

ولما كان يوم الاحد ثاني عشر جمادى الآخرة وصل من البلد كتب يقولون فيها : « انا قد تبايعنا على الموت . ونحن لا نزال نقاتل حتى نُقتل ، ولا نسلّم هذا البلد ونحن أحياء، فابصروا كيف تصنعون في شغل العدو عنا ، ودفعه عن قتالنا ، فهذه عزائمنا ، واياكم أن تخضعوا لهذا العدو أو تلينوا له ، فأما نحن فقد فات أمرنا » وذكر العوّام الواصل بهذه الكتب أنه لما وقع بالليل الصوت ظن الفرنج أن عسكرا عظيما قد عبر الى عكا وسلم ، وصار فيها ، قال : « وجاء انسان فرنجي فوقف تحت السور ، وصاح الى بعض من على السور ، وقال له : بحق دينك ألا أخبرتني كم عدد العسكر الذي دخل اليكم البارحة – يعني ليلة السبت – وكان قد وقع في الليل صوت" ، وانزعج الطائفتان ، ولم يكن له حقيقة ، فقال : « ألف فارس » . فقال : لا ، لكنه دون ذلك أنا رأيتهم وهم لابسون ثيابا خضرا » . ثم تتابعت العساكر الإسلامية وتواصلت ، واندفع كيد العدو عن القوم في تلك الأيام ، بعد أن كان قد أشفى البلد على الأخذ ، فقدم يوم الثلاثاء رابع عشره سابقُ الدين صاحب شيزر ،

ويوم الأربعاء خامس عشره بدر الدين دلدرم ، ومعه تركمان كثير ، كان قد أنفذ اليه السلطان ـ رحمه الله ـ ذهباً أنفق فيهم ، ويوم الخميس سادس عشره أسد الدين شيركوه • واشتد ضعف البلد وكثرت ثغر سوره ، وجاهد المقيمون فيه ، وبنوا عوض الثلمة سورا من داخلها ، حتى اذا تم انهدامها قاتلوا عليه ••••



ذكر وقعة جرت في أثناء ذلك

ولما كان يوم الخميس سلخ جمادى الآخرة خرج الفرنج من جانب البحر شمالي البلد ، ومن جانب القبة ، وانتشروا انتشارا عظيما ، راجلهم وفارسهم ، وضربوا أطلابا للقتال ، فأخبر اليَزَك بذلك السلطان ـ رحمة الله عليه ـ ، فدق الكوس وركب ، وأنفذ الى اليزك ، وقوّاه برجال كثيرة ، وتوقف حتى ركبت العساكر الإسلامية واجتمعوا ، فوقع بين اليزك وبين العدو وقعة عظيمة وقتال شديد قبل اتصال العسكر باليزك ، وكان اليزك قد قوي بمن أنفذ اليه ، فحملوا على العدو حملة عظيمة ، فانكسر العدو من بين

أيديهم ، وانهزمت الخيّالة ، وأسلمت الرجّالة ، وظنوا أن وراء اليزك كمينا ، فاشتدوا نحو خيامهم ، فوقع اليزك في الرجالة ، فقتل منهم زهاء خمسين نفراً ، وجرح خلق عظيم ، ولم يزل السيف فيهم حتى دخلوا خنادقهم . وفي ذلك اليوم وصل رسل الفرنج الذين بُعثوا الى دمشق لتفقد حال أسرائهم ، ووصل معهم من مميزي أسرائهم أربعة نفر ، ووصل منهم في عشيته أيضا رسل الى السلطان في تحرير أمر الأسارى والمسلمين الذين كانوا بعكا ، ولم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين ، حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب سنة سبع وثمانين وخمسمائة .



ذكر انتقال العدو إلى طرف البحر
من جانب الغرب

ولما كان يوم الخميس تاسع عشرين من رجب ركبت الفرنجية بأسرها ، وقلعت خيامهم ، وحملوها على دوابهم ، وساروا حتى قطعوا النهر الى الجانب الغربي ، وضربوا الخيام على طريق عسقلان ، وأظهروا العزم على المسير على

شاطىء البحر ، وأمر الانكتار بباقي الناس أن يدخلوا الى البلد ، وكانوا قد سدوا ثغره وثلمه ، وأصلحوا ما استرم منه . وكان مقدم العسكر الخارج السائر الانكتار ـ لعنه الله ـ وجمع عظيم من الخيالة والرجالة .



ذكر مسيرهم إلى جهة عسقلان

ولما كان يوم الأحد مستهل شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة اشتعلت نيران العدو في سحرة ذلك اليوم وعادتهم أنهم اذا أرادوا الرحيل أشعلوا نيرانهم ، وأخبروا اليزك بحركتهم ، فأمر السلطان الثقل أن يرفع حتى يبقى الناس على ظهر ، ففعل الناس ذلك ، وهلك من الناس قماش كثير ، وحوائج كثيرة من السوقة ، لم يكن معهم ظهر يحمل جميع ما عندهم ، لأن كل انسان كان يحصل ما يحتاج اليه في أشهر ، وكل واحد من السوقة عنده ما ينقله من منزل الى منزل في مرار متعددة ، لكن هذا المنزل لم يمكن أن يتخلف فيه أحد لقربه من الفرنج الذين بعكا ، والخوف منهم . ولما أن علا النهار شرع العدو في السير على جانب البحر ، وتفرقوا قطعا ثلاثة كل قطعة تحمل نفسها ، وقوّى السلطان

ـ رحمة الله عليه ـ اليزك ، وأنفذ معظم العساكر تسير
قبالتهم ، فمضوا وقاتلوهم قتالا شديدا ، وأنفذ ولده الملك
الأفضل يخبره أنه انقطع طائفة منهم عن الرفقة ، وقد لززناهم
بالقتال حتى قد عادوا يطلبون خيامهم ، فلو قوينا لأخذناهم.
فسيَّر السلطان ـ رحمه الله ـ خلقا عظيما من العسكر ،
وسار هو بنفسه حتى أتى أوائل الرمل وأمر الثقل أن
يسير على الطريق الى القيمون ، وسار هو ـ وأنا في خدمته ـ
حتى أتينا أوائل الرمل ، فلقينا الملك العادل ، وأخبر السلطان
أن تلك الطائفة قد التحقت بالطائفة الأولى ، ومعظم القوم
قد عبروا نهر حيفا ، ونزلوا ، والباقون قد لحقوهم ، وليس
للمسير خلفهم حاصل الا اتعاب الخيل وضياع النشاب لاغير،
فتراجع السلطان ـ رحمه الله ـ عن القوم لما تحقّق ذلك ،
وأمر طائفة من العسكر تسير وراء الثقل ، تُلحق ضعيفَهم
بقويهم ، وتكفّ عنهم من يلتحق بهم من العدو من الطماعة.
وسار هو حتى وصل الى القيمون ـ وأنا في خدمته ـ حتى
أتى القيمون عصر ذلك النهار ، فنزل وقد ضرب له الدهليز ،
وشقة دائرة حوله لا غير ، واستحضر الجماعة ، وأكلوا
شيئا ، واستشارهم فيما يفعل .

المنزلُ الثاني :

فاتفق رأي الجماعة على أنهم يرحلون بكرة غد هذا ، وقد رتب حول الفرنج يزكا يبيتون حوله يرقبون أمره • ولما كان صباح الاثنين ثاني شعبان المذكور رحّل السلطان ــ رحمة الله عليه ــ الثقل ، وأقام هو يترصد أخبار العدو ، فلم يصله منها شيء الى أن علا النهار فسار في أثر الثقل حتى أتى قرية يقال لها الصباغين ، فجلس ساعة يترقب أخبار العدو ، فلم يصله خبر وكان قد نزل علم الدين سليمان بن جندر في منزلته بالأمس ، وخلف جورديك قريب العدو ، وبعث خلقا عظيما باتوا قريب العدو ، فلم يصله خبر أصلا ، فسار حتى أتى الثقل وهو في منزلة يقال لها عيون الأساود • ولما بلغنا المنزل رأى ــ رحمة الله عليه ــ خيما فسأل عنها ، فقيل انها خيم الملك العادل ، فعدل لينزل عنده ، وسرنا نحن ونزلنا في خيمنا ، فأقام عنده ساعة ، ثم أتى خيمته ، وفُقد الخبز في هذه المنزلة بالكلية ، وغلا الشعير حتى بلغ الربع درهما ، وبلغ البقسماط رطل بدرهمين • ثم أقام السلطان ــ رحمه الله ــ حتى عبر وقت الظهر ، ثم ركب وسار الى موضع يسمى الملاحة ، يكون منزلا للعدو اذا رحل من

حيفا ، وكان قد سبق لتفقد المكان ، وأنه هل يصلح للمصاف أم لا ، وتفقد أراضي قيسارية بأسرها الى الشعرا ، وعاد الى المنزل بعد دخول وقت العشاء الآخرة . وقد أخذ منه التعب ، وكنتُ في خدمته ، وسألته عما بلغه من خبر العدو فقال : « وصل الينا من أخبرنا مِنْ أصحابنا أنه ما رحل العدو من حيفا الى عصر يومنا هذا ــ يعني يوم الاثنين ثاني شعبان ــ ؛ وها نحن مرتقبون أخبارهم ؛ ويكون العمل بمقتضاها » . وبات تلك الليلة ، وأصبح مقيما بتل الزلزلة ينتظر العدو ، ونادى الجاووش بالعسكر للعرض ، فركب الناس على ترتيب المصاف وأهبته ؛ وخرجوا عن الخيم . واصطفوا ميمنة وميسرة وقلبا ، وكان ــ بحمدالله ــ على ما يؤثر أولياء الاسلام ، ثم عاد الى خيمه ، وعاد الناس وقد علا النهار ، ونزل السلطان ــ رحمة الله عليه ــ في خيمته . وأخذ نصيبا من الراحة بعد الغداء ومثول جماعة من الأمراء بخدمته ، وأخذ رأيهم فيما يصنعون ، ثم صلى الظهر وجلس يطلق أثمان الخيول المجروحة وغيرها الى عشاء الاخيرة من مائة دينار الى مائة وخمسين وزائدا وناقصا ، فما رأيت أفسح صدرا منه ولا أبسط وجها في العطاء . واتفق الرأي على رحيل الثقل في عصر ذلك اليوم الى مجدل يابا .

المنزل الثالث :

وكان نزول الثقل بمجدل يابا بكرة ، وأقام هو بالمنزل جريدة الى الصباح ، ورحلوا الى جهة العدو ، فرحل الثقل من وقت العشاء ، ولم يبق من الناس المقيمين مع السلطان الا خِف" من الأقمشة ، وبات في منزلته الى الصباح يوم الأربعاء رابع شعبان سنة سبع وثمانين ، وركب وسار الى رأس النهر الجاري الى قيسارية ، ونزل جريدة هناك ، وبلغ البقسماط الى رطل بأربعة دراهم في تلك المنزلة ، والشعير الربع بدرهمين ونصف ، والخبز لم بوجد أصلا ، ونزل في خيمته قريب صلاة الظهر ، وأكل خبزا وصلى الظهر ، وركب الى طريق العدو لتجديد ارتياده في ضرب المصاف ، ولم يعد الى أن دخل وقت العصر ، فجلس ساعة ، وأخذ جزءاً من الراحة ، ثم عاد وركب وأمر الناس بالرحيل ، ورمى خيمته ، ورمى الناس خيامهم في أواخر نهار الأربعاء رابع شعبان سنة سبع •

المنزل الرابع :

وكان الرحيل الى رابية متأخرة عن تلك الرابية لكنها في المنزل أيضا ، فنزل هناك الثقل ، وعاد هو من ركوبه ــ رحمه الله ــ بعيدالمغرب••• ثم بات هناك، وأصبح مقيما

بالمنزلة لأنه لم يصح عن العدو رحيل ، وأنفذ الى الثقل حتى يعود اليه في تلك الليلة مما طرأ على الناس من الضيق في المأكـل والقضيم ، وركب ــ رحمة الله عليه ــ في وقت عادته ، وساروا الى جهة العدو ، وأشرف على قيسارية ، وعاد الى الثقل قريب الظهر ، وقد وصله الخبر أن العدو لم يرحل بعدُ من المَلاّحة ، وأُحضر عنده اثنان أيضا قد أخذا من أطراف العدو ، فقُتلا أيضا شر قتلة ، وكان في حدة الغيظة لما جرى على أسرى عكا ثم أخذ جزءاً مـن الراحة ، وجلس بعد صلاة الظهر ، وحضرتُ عنده وقـد أحضر بين يديه من العدو فارس مذكور قد أُخذ ، وهيئته تخبر عن أنه متقدم فيهم ، فأُحضر ترجمان ، وبحث منه عن أحوال القوم ، وسأله : « كيف يسوى الطعام عندكم ؟ » فقال : « أول يوم رحلنا من عكا كان الانسان يشبع بستة قراطيس ، ثم لم يزل السعر يغلو حتى صار يشبع بثماني قراطيس » . وسئل عن سبب تأخرهم في المنازل فقال : « لانتظار وصول المراكب بالرجال والميرة » . فسئل عـن القتلى والجرحى في يوم رحيلهم ، فقال : « كثير » . فسئل عن الخيل التي هلكت في ذلك اليوم فقال : « مقدار أربعمائة فرس » فأمر بضرب عنقه ، ونهى عن التمثيل بـه فسأل

الترجمان عما قال السلطان ـــ رحمه الله ـــ فأخبره بما قال ، فتغير تغيراً عظيما . وقال : «أنا أخلص لكم أسيراً من عكا» . فقال له ـــ رحمه الله ـــ « بل أميراً » . فقال : « لا أقدر على خلاص أمير » فشفع الطمع فيه وحسن خلقته ، فاني ما رأيت أتم خلقة مع ترف في الأطراف ورفاهية ؛ فأمر أن يترك الآن ويؤخر ، فصُفِّد ، وعاتبه على ما بدا منهم من الغدر بقتل الأسرى ، فاعترف بأنه قبيح ، وأنه لم يجر الا برضا الملك وحده . ثم ركب السلطان ـــ رحمة الله عليه ـــ بعد صلاة العصر على عادته . هذا كله في يوم الخميس خامس شعبان . وبعد أن نزل السلطان ـــ رحمه الله ـــ أمر بقتل الفارس المذكور فقتل ، وأُتي بعده باثنين فأمر بقتلهما، فقتلا ، وبات في ذلك المنزل تلك الليلة ، وذكر له في السحر أن العدو قد تحرك نحو قيسارية ، وقارب أوائلهم البلد ، فرأى أن يتأخر من طريق العدو منزلا آخر .

المنزل الخامس :

فرحل ، ورحل الناس الى تل قريب من التل الذي كنا عليه ، فنزل الناس ، وضُربت الخيام ، ومضى ـــ رحمه الله ـــ يرتاد الأراضي الكائنة في طريق العدو ، لينظر أيها

أصلح للمصاف ، ونزل قريب الظهر ، واستدعى أخاه الملك العادل ، وعلم الدين سليمان بن جندر ، وأخذ رأيهما فيما يصنع ، وأخذ جزءاً من الراحة ، وأذن الظهر ، فصلى وركب للتشوف على العدو ، وتنسم أخباره ، وأتاه اثنان من الفرنج قد نهبا ، فأمر بقتلهما ، فقتلا ، ثم أُتي باثنين آخرين، فقتلا أيضا ، وذلك في يوم الجمعة سادس شعبان المذكور ، وجيء في أواخر النهار باثنين فقتلا أيضا ، وعاد من الركوب آخر النهار صلاة المغرب ، فصلى وجلس على عادته ، واستدعى أخاه الملك العادل — رحمه الله — وصرف الناس وخلا به الى هَدْي من الليل ، ثم بات ، وأصبح ونادى الجاوش لعرض الحلقة لا غير ، وركب الى جهة العدو ، ووقف على تلول مشرفة على قيسارية ، وكان العدو قد وصل اليها نهار الجمعة ولم يزل بعرض هناك الى أن علا النهار ، ثم نزل وأكل الطعام ، وركب الى أخيه ، وعاد بعد صلاة الظهر ، وأخذ جزءاً من الراحة ، وجلس فتوضأ وصلى، وأُتي بأربعة عشر من الفرنج وامرأة فرنجية بينهم أسيرة ، وهي بنت فارس مذكور ، ومعها أسيرة مسلمة قد أخذتها ، فأطلقت المسلمة ، ودفع الباقون الى الزردخاناه ، وهؤلاء

آتي بهم من بيروت ، أخذوا في ركب من جملة عدد كثير قتلوا ، كل ذلك في نهار السبت سابع شعبان وهو في المنزلة ينتظر رحيل العدو المخذول ، مجمعاً على لقائه اذا رحل .

المنزل السادس :

ولما كان صبيحة يوم الأحد الثامن من شعبان سنة سبع ركب السلطان — رحمة الله عليه — على عادته ، ثم نزل فوصل من أخبر أن العدو على حركة . وكانت الأطلاب قد باتت حول قيسارية في مواضعها ، فأمر بسد الطعام ، وأطعم الناس ، فوصل ثانٍ وأخبر أن القوم قد ساروا ، فأمر بالكوس فدق ، وركب — رحمه الله — وركب الناس معه ، وسار وسرتُ في خدمته حتى أتى عسكر العدو ، فصف الأطلاب حوله وأمر بقتالهم ، وأخرج الجاليش ، فكان النشاب بينهم كالمطر . وكان عسكر العدو المخذول قد ترتب ، فكانت الرجالة حوله كالسور وعليهم الكبورة الثخينة ، والزرديات السابغة المحكمة . بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون،وهم يرمون بالزنبورك[1]فيجرح خيول

(1) الزنبورك : المدفع الصغير .

المسلمين وخيّالتهم ورجّالتهم،ولقد شاهدتهم وينغرز في ظهر الواحد منهم النشابة والعشرة ، وهو يسير على هيئته من غير انزعاج ، وثم قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم فاذا تعب هؤلاء المقاتلة أو أثخنتهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح ، واستراح القسم العمّال هذا والخيالة في وسطهم لا يخرجون عن الرجالة الا في وقت الحملة لا غير ، وقد انقسموا أيضا ثلاثة أقسام : الاول الملك العتيق جفري وجماعة الساحلية معه في المقدمة ، والانكتار والفرنسيسية معه في الوسط . وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة أخرى في الساقة . وفي وسط القوم برج على عجلة، وعلمهم على ما وصفته من قبل يسير أيضا في وسطهم على عجلة كالمنارة العظيمة .

هذا ترتيب القوم على ما شاهدته وأخبر به من خرج منهم من الاسرى والمستأمنين . وساروا على هذا المثـال وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين ، والمسلمون يرمونهم من جوانبهم بالنشاب ، ويحركون عزائمهم حتى يخرجوا . وهم يحفظون أنفسهم حفظا عظيما ، ويقطعون الطريق على هذا الوضع ، ويسيرون سيرا رفقا ، ومراكبهم تسير في مقابلتهم

في البحر الى أن أتوا المنزل ، ونزلوا ، وكانت منازلهم قريبة لاجل الرجالة . فان المستريحين منهم كانوا يحملون أثقالهم وخيامهم . لقلة الظهر عندهم ؛ فانظر الى صبر هؤلاء القوم على الاعمال الشاقة من غير دين[1] ولا نفع . وكان منزلهم قاطعا نهر قيسارية . يسر الله فتحها .

المنزل السابع :

ولما كانت صبيحة الاثنين التاسع من شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة وصل من أخبر أن العدو قد ركب سائرا ، فركب السلطان ــ رحمة الله عليه ــ أول الصبح ؛ وطلب الاطلاب ،وأخرج من كل طلب جاليشا ،وسار يطلب القوم ، فأتيناهم وهم سائرون على عادتهم ثلاثة أقسام ، فطاف الجاليش حولهم من كل جانب ولزوهم بالنشاب وهم سائرون على المثال الذي حكيته ، وكلما ضعف قسم عاونه الذي يليه وهم يحفظ بعضهم بعضا ؛ والمسلمون محدقون بهم من ثلاثة جوانب ، والقتال عليهم شديد ، والسلطان ــ رحمه

(1) في الاصل : من غير ديوان . وقد اعتمدنا الكلمة الواردة في نسخة القاهرة .

الله ـ يقرّب الاطلاب ، ورأيته يسير بنفسه بين الجاليش ونشاب القوم يتجاوزه ، وليس معه الا صبيان بجنيبين لا غير ، وهو يسير من طلب الى طلب ، يحثهم على التقـدم ويأمرهم بمضايقة القوم ومقاتلتهم ، والكوسات تخفق ، والبوقات تنعر ، والصياح بالتهليل والتكبير يرتفع ، هـذا والقوم على أتم ثبات على ترتيبهم لا يتغيرون ولا ينزعجون ؛ وجرت حملات كثيرة ، ورجالتهم تجرح المسلمين وخيولهم بالزنبورك والنشاب ، ولم يزل الناس حولهم يقاتلونهم من كل جانب ، ويحملون عليهم وهم ينكرّون بين أيديهم ثم يعكرون عليهم ، الى أن أتوا الى نهر يقال له نهر القصب ، فنزلوا عليه، وقد قام قائم الظهيرة، وضربوا خيامهم، وتراجع الناس عنهم ، فانهم كانوا اذا نزلوا أيس الناس من أمر يتم معهم ، ورجعوا عن قتالهم .

وفي ذلك اليوم قتل من فرسان الاسلام وشجعانه إياز الطويل بعض مماليك السلطان ـ رحمة الله عليه ـ وكان قد قتل فيهم ، وقتل خلقا من خيالتهم وشجعانهم ، وكانت قد استفاضت شجاعته بين العسكرين بحيث انه جرت له وقعات كثيرة صدقت أخبار الاوائل ، وصار بحيث اذا عرفه

الفرنج في موضع تجافوا عنه . تقنطر به فرسه ، فاستشهد في ذلك اليوم ، ودفن على تل مشرف على البركة ، وحزن المسلمون عليه حزنا عظيما ، وقتل عليه مملوك له ، ونزل السلطان بالثقل على البركة ، وهو موضع تجتمع فيه مياه كثيرة ، وأقام — رحمة الله عليه — في تلك المنزلة الى بعد صلاة العصر ، أطعم الناس خبزا ، واستراحوا ساعة ، ثم رحل بعد صلاة العصر ، وأتى نهر القصب ، فنزل عليه أيضا فكنا نشرب من أعلاه ، والعدو يشرب من أسفله ليس بيننا الا مسافة يسيرة . وبلغ الشعير في هذه المنزلة الربع بأربعة دراهم ، والخبز موجود كثيرا وسعره رطل بنصف درهم ، وأقام ينتظر رحيل الفرنج حتى يرحل في مقابلتهم ، وباتوا تلك الليلة هناك وبتنا أيضا .



ذكر وقعة جرت

وذلك أن جماعة من العسكر الاسلامي كانوا يتشرفون على العدو فصادفوا جماعة منهم غير مسلحين يتشرفون أيضا على العسكر الاسلامي ، فظفروا بهم ، وهجموا عليهم وجرى بينهم قتال عظيم ، فقتل من العدو جماعة ، وأحس بهم عسكر

العدو فثار اليهم منهم جماعة واتصل الحرب ، وقتل من المسلمين نفران ، وأسر من العدو ثلاثة ، ومثلوا بخدمته ــ رحمة الله عليه ــ فسألهم عن الاحوال ، فأخبروا أن ملك الانكتار كان قد حضر عنده بعكا اثنان بدويان ، وأنهما أخبراه بقلة عدد العسكر الاسلامي ، وتشذبه ، وأن ذلك هو الذي أطمعه حتى خرج ، وأنه لما كان بالامس ــ يعني يوم الاثنين ــ رأى من المسلمين قتالا عظيما ، واستكثر الاطلاب ، وأنه جرح أمس زهاء ألف نفس ، وقتل جماعة ، وأن ذلك هو الذي أوجب اقامته اليوم حتى يستريح عسكره ، وأنه لما رأى ما أصابهم بالامس من القتال العظيم ، ورأى كثرة المسلمين أحضر البدويين عنده ، وواقفهما ، وضرب أعناقهما وأقمنا في ذلك اليوم في تلك المنزلة ، لاقامة العدو بها ، وهو يوم الثلاثاء العاشر من شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

المنزل الثامن :

ولما كان ظهيرة نهار الثلاثاء المذكور ، ورأى السلطان ــ رحمه الله ــ الرحيل والتقدم الى قدام العدو ، فدق الكوس ، ورحل ورحل الناس ، ودخل في شعرا أرسوف

حتى توسطها الى تل عنده قرية تسمى دير الراهب فنـزل هناك ، ودهم الناس الليل ، فتقطعوا في الشعراء ، وأصبح مقيما ينتظر بقية العساكر الى صباح الاربعاء ، الحادي عشر من شعبان المذكور . وتلاحقت العساكر الاسلامية ، وركب يرتاد موضعا يصلح للقتال ولقاء العدو ، وأقام ذلك اليوم أجمع هناك • ومن أخبار العدو في ذلك اليوم أنه أقام على نهر القصب في ذلك اليوم أيضا ، وأنه لحقه نجدة من عكا في ثماني بطس كبار ، ويزك الاسلام حوله يواصلون بالاخبار المتجددة لهم . وجرى بين اليَزَك وبين حشّاشة العدو قتال ، وجرح من الطائفتين •



ذكر مراسلة جرت في ذلك اليوم

وذلك أن العدو المخذول طلب من اليزك من يتحدث معه ، وكان مقدم اليزك علم الدين سليمان بن جندر ، فانها كانت نوبته ، فلما مضى اليهم مَن يسمع كلامهم • كان كلامهم طلب الملك العادل حتى يتحدثوا معه ، فاستأذن ، ومضى ، وبات تلك الليلة في اليزك ــ أعني ليلة الخميس ــ ،

وتحدثوا معه ، وكان حاصل حديثهم : « انا قد طال بيننا القتال ، وأنه قتل من الجانبين الرجال الابطال ، وانا نحن جئنا في نصرة فرنج الساحل ، فاصْطَلِحوا أنتم وهم ، وكل منا يرجع الى مكانه » . وكتب السلطان ــ رحمة الله عليه ــ الى أخيه الملك العادل ــ رحمه الله ــ في صبيحة يوم الخميس الثاني عشر من شعبان من سنة سبع رقعة يقول له فيها : « ان قدرت أن تطاول الفرنج في الحديث . فلعلهم يقومون اليوم ، حتى يلحقنا التركمان ، فانهم قد قربوا منا » . وفي ذلك اليوم اجتمع الملك العادل بالانكتار الملعون ، فكان الترجمان بينهما ابن الهنفري .



ذكر اجتماع الملك العادل والانكتار

ولما طلبوا الملك العادل ــ رحمه الله ــ أذن له ــ رحمة الله عليه ــ في المضي اليهم ، فسار حتى أتى اليزك ، ولما عرف الانكتار وصوله الى اليزك طلب الاجتماع به ، فأجابه الى ذلك ، واجتمعا بنجوة من أصحابهما ، وكان يترجم بينهما ابن الهنفري ، وهو من فرنج الساحل من كبارهم ، ورأيته

يوم الصلح ، وهو شاب حسن الا أنه محلوق اللحية ــ على ما هو شعارهم ــ وكان الحديث الجاري بينهما أن الانكتار شرع في ذكر الصلح ، وأن الملك العادل قال له : « أنتم تطلبون الصلح ولا تذكرون مطلوبكم فيه حتى أتوسط أنا الحال مع السلطان » . فقال الانكتار له : « القاعدة أن تعود البلاد كلها الينا ، وتنصرفون الى بلادكم » . فأخشن لـه الجواب ، وجرت منافرة اقتضت أنهم رحلوا بعد انفصالهما . ولما أحس السلطان ــ رحمه الله ــ برحيلهم ، أمر الثقل بالرحيل .... وعبأ الناس تعبئة القتال ، ووقف يتنسم ما يرد اليه من أخبار العدو ، وسار الثقل الصغير أيضا حتى قارب الثقل الكبير ، ثم ورد أمر السلطان ــ رحمه الله ــ بعودهم اليه ، فعادوا ، ووصلوا وقد دخل الليل ، وتخبط الناس في تلك الليلة تخبطا عظيما ، واستدعى أخاه الملك العادل لتعريفه ما جرى بينه وبين الملك،وخلا به لذلك،وذلك في ليلة الجمعة ثالث عشر شعبان من سنة سبع وثمانين وخمسمائة . وأمـا العدو فانه سار ونزل على موضع يسمى البركة أيضا ، مشرف على البحر ، وأصبح السلطان ــ رحمه الله ــ في يوم الجمعة . فأمر الثقل فسار الى قرية تسمى بركـة . فأقام

السلطان ـ رحمه الله ـ فطلب الاطلاب في مكانه • متطلعا الى أخبار العدو • فأحضر عنده اثنان من الفرنج قد تخطفهما اليزك • فأمر بضرب أعناقهما فقتلا ووصل من أخبر أن العدو لم يرحل اليوم من منزلته تلك • فنزل السلطان ـ رحمة الله عليه ـ في تلك المنزلة أيضا • واجتمع بأخيه الملك العادل ـ رحمه الله ـ يتحدثان في هذا الامر • وما يصنع من العدو المخذول • وبات تلك الليلة في تلك المنزلة •



ذكر رحيله إلى الرملة

وأصبح في يوم الاربعاء ثالث رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة راحلا الى جهة الرملة ، فسار حتى أتاها ضاحي نهار ، ونزل بالثقل الكبير هناك نزول اقامة ، ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا ، وأطعم الناس الطعام ، ثم أخذ جزءا من الراحة،وركب بين صلاتي الظهر والعصر،فسار الى لدّ، فرآها ورأى بِيْعَتَهَا وعِظَم بنائها،فأمر بخرابها وخراب قلعة الرملة أيضا ، ووقع الخراب في الموضعين في ذلك اليوم

وفرق الناس فرقا لتخريب المكانين ، وأباح ما فيهما من التبن والشعير في الأهراء السلطانية ، وأمر من كان فيهما من المقيمين بهما الى الانتقال الى المواضع العامرة ، وما كان بقي في المكانين الا نفر يسير ، وظل الناس يخربون الى أن أمسى المساء . ثم عاد الى خيمته .

وأصبح يوم الخميس رابع رمضان ، وأقام الحجارين في المكانين ورتب عليهم من يستخدمهم في ذلك ، وهو يتردد اليهم في الاصائل حتى جاء وقت المغرب ، فمد الطعام وأفطر الناس ، وانفصلوا الى خيامهم ، ووقع له أن يسير خفية في نفر يسير يشاهد أحوال القدس الشريف ــ يسر الله خلاصه ــ فسار من أول الليل حتى أتى بيت نوبة ؛ فبات فيها حتى أتى الصباح وصلى ، وسار حتى أتى القدس الشريف ــ خلصه الله تعالى ــ في يوم الجمعة خامس رمضان المذكور ، وخلف أخاه الملك العادل ــ رحمه الله ــ في العسكر يحث الناس على الخراب ، فصلى الجمعة ، وأقام ذلك اليوم يتصفح أحوال القدس في عمارته وميرته وعدته ورجاله وغير ذلك . وظفر في ذلك اليوم غلمان الطواشي قايماز بنفر من النصارى ،

ومعهم كتب قد كتبها الوالي الى السلطان قريبة التاريخ . يذكر فيها اعواز البلد للغلة والعدة والرجال ، وأرادوا حملها الى العدو ، فوقف على الكتب . وضربت رقاب من كانت معهم ، وما زال يتصفح أحوال المكان . ويأمر بسد خلله الى يوم الاثنين ثامن رمضان . ولما كان الاثنين خرج سائر العسكر بعد صلاة الظهر فبات في نوبة . وفي هذا اليوم وصل معز الدين قيسر شاه ــ صاحب ملطية ــ ابن قليج أرسلان . وافدا عليه مستنصرا به على إخوته وأبيه . فانهم كانوا يقصدون أخذ بلده منه فلقيه الملك العادل ــ رحمه الله ــ قاطع لد،واحترمه وأكرمه،ثم لقيه بعده ولد السلطان الملك الافضل ، وضربت خيسته قريبا من لد ، وفي ذلك اليوم خرج من العدو جشاشة فحمل عليهم اليزك ، ووصل الخبر الى عسكرهم ، فخرج في نصرتهم خيالة . وجرى بينهم وبين اليزك قتال ، وذكر بعض الاسرى أنه كان معهم الانكتار . وأن مسلما قصد طعنه ، فحال بينه وبينه فرنجي ، فقتل الفرنجي وجرح هو ، هكذا ذكر والله أعلم .



ذكر عوده إلى العسكر

رحمه الله

ولما كان يوم الثلاثاء تاسع رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة وصل ـ رحمه الله ـ الى العسكر ولقيه الناس مستبشرين بقدومه ، ولقيه ابن قليج أرسلان ، فنزل لـه واحترمه وأكرمه . ونزل في خيمته ـ رحمة الله عليه ـ وأقام يحث على الخراب . وتتواصل أخبار العدو اليه ، ويقع بينهم وبين اليزك وقعات . وتسرق العرب مـن خيولهم وبغالهم ورجالهم .



ذكر وصول رسول المركيس

وفي غضون ذلك وصل رسول من المركيس يذكر أنـه يصالح الإسلام بشرط أن يعطى صيدا وبيروت على أن يجاهر الفرنج بالعداوة ، ويقصد عكا ويحاصرها ويأخذها منهم ، واشترط أن يبذل له السلطان ـ رحمة الله عليه ـ اليمين على ذلك ابتداءً ، فسيَّر اليه العَدل النجيب ، وحمل الإجابة

الى ملتمسه لقصد فصله عن الفرنج . فانه كان خبيثا ملعونا . وكان قد استشعر منهم أخذ بلده . وهي صور ، منه . فانحاز عنهم ، واستعصم بصور وهي منيعة . فقبل ذلك القول منه بهذا السبب .

وسار النجيب العدل مع رسوله في يوم الجمعة ثاني عشر رمضان من السنة المذكورة . واشترط عليه أن يبدأ بمحاصرة القوم وحصار عكا وأخذها . واطلاق من بها ومن بصور من الأسارى ، وعند ذلك يسلم اليه الموضعان . وفي عشية ذلك اليوم خرج رسول الانكتار الى الملك العادل في تحريك سلسلة الحديث في الصلح .



ذكر رحيل السلطان من الرملة

رحمه الله

ولما كان يوم السبت الثالث عشر من رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة رأى السلطان ــ رحمة الله عليه ــ أن يتأخر بالعسكر الى الجبل ، ليتمكن الناس من انفاذ دوابهم الى العلوفة ، فانا كنا على الرملة قريبين من العدو ، وما يسكن

التفريط في الدواب خشية المهاجمة ، فرحل ـ رحمة الله عليه ـ ونزل على تل متصل بجبل النطرون بالثقل الكبير وجميع العسكر ما عدا اليزك على العادة ، وذلك بعد خراب الرملة ولدّ ، ولما نزل هناك في ذلك اليوم دار حول النطرون ، وأمر بتخريبها،وكانت قلعة منيعة حصينة من القلاع المذكورة، فشرع في خرابه ، وترددت الرسل بين الملك العادل والانكتار يذكرون عنه أنه قد سلّم أمر الصلح الى الملك العادل ، وأخلد اليه ، وخرج منه عشرة أنفس اليه الى اليزك ، فأخبروه بأخبار طيبة ، كتب بها الى السلطان ـ رحمة الله عليه ـ في عشية الأربعاء سابع عشر رمضان من سنة سبع وثمانين وخمسمائة .



ذكر موت الافرنسيس

فكان مما أخبر به الملك العادل أن ملك الافرنسيس مات، وكان موته في أنطاكية عن مرض عرض له ، وأن الانكتار عاد الى عكا ، وكان سبب عوده الى عكا أنه صح عنده مراسلة المركيس للسلطان ـ رحمة الله عليه ـ وبلغه أن

المركيس قد انتظم الحال بيننا وبينه ، وأنه قـد استقرت القاعدة على عكا ، فعاد هو الى عكا لفسخ هذه المصالحة ، واسترجاع المركيس اليه ، وأقام الملـك العادل في اليزك ، وركب السلطان ـ رحمه الله ـ يوم الخميس الثامن عشر من الشهر ، وسار السلطان ـ رحمة الله عليه ـ الى اليزك ، واجتمع بأخيه الملك العادل في لدّ ، وسأل منه الأخبار ، وعاد الى المخيم وقت العصر ، وأتي باثنين من الفرنج قد تخطفهما اليزك ، فأخبرا بصحـة موت الافرنسيس وعود الانكتار الى عكا .



ذكر اخبار يزك كان على عكا
وقضية لصوص دخلوا في خيام العدو

ولما كان يوم الاثنين الثاني والعشرين من رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة أحضر اللصوص فرسا وبغلة قـد دخلوا الى خيم العدو وسرقوهما منهم ، وكان قد دَيْون ـ رحمة الله عليه ـ ثلاثمائة لص من شلوح العرب يدخلون ويسرقون منهم أموالهم وخيولهم ، ويسرقون الرجال أحياء ،

وذلك أنه يكون الواحد منهم نائما ، فيوضع على حلقه الخنجر ، ثم يوقظ فيرى الشلح والخنجر في يده ، وقد وضعه في نحره ، فيسكت ولا يتجاسر أن يتكلم ، فيُحمل وهو على هذا الوضع الى أن يخرج من الخيمة ، ويؤخذ أسيرا ، وتكلّم منهم جماعة فنحروا ، فصار من أصابه ذلك سكت واختار الأسر على القتل ، وداموا على ذلك مدة طويلة الى انتظام الصلح . وفي تاريخ ذلك اليوم وصل من اليزك المرتب على عكا في موضع يقال له الزيب خبر أسارى مع رسول من اليزك أخبر أنهم خرجوا من عكا وتفسحوا ، وأن اليزك حمل عليهم فأسر منهم أحداً وعشرين نفسا وأن الأسارى أخبروهم بصحة عود الانكتار الى عكا ، وأنه مريض بها ، وأخبروا عن ضعف أهل عكا وفقرهم وقلة الميرة عندهم . وفي هذا التاريخ وصلت للعدو مراكب عدة قيل انها وصلت من عكا ، وان فيها الانكتار قد عاد بجماعة عظيمة ليقصد عسقلان ويعمرها، وقيل ليقصد القدس ، والله أعلم .



ذكر خبر وصول الأسارى المذكورين

ولما كان يوم الأربعاء الرابع والعشرون من رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة وصل الأسارى من الزيب ، وكان وصولهم مفرجا للمسلمين مبشرا بكل خير . وفيه وصل رسول قزل كان قد سيّره قبل وفاته ، ورسول ابن أخيه اينانج . وفي عشيته وصل رسول من الانكتار ومعه حصان الى الملك العادل في مقابلة هدية كان أنفذها اليه .



ذكر وفاة حسام الدين بن لاجين

فيه وصل خبر وفاته بمحروسة دمشق لمرضٍ كان اعتراه، وصعب على السلطان ــ رحمة الله عليه ــ موته وشقّ عليه . وفيه وصل كتاب من سَامه يذكر فيه أن البرنس ــ لعنه الله ــ أغار على جبلة واللاذقية ، وأنه كُسر كسرةً عظيمة ، قتل منه جماعةً ، وعاد الى أنطاكية مخذولا .



ذكر دخول رسول الملك العادل

إلى الانكتار

ولما كان يوم الجمعة سادس عشري رمضان سنة سبع وثمانين كان اليزك للعادل ، فطلب الانكتار رسوله ، فأنفذ اليه الصنيعة ، وهو كاتبه ، كان شابا حسنا ، فوصل اليه وهو في يازور ، وصل اليه وقد خرج جمع كثير من الرجالة ، وانبثوا في تلك الأرض ، فاجتمع به وسيّر معه زمانا طويلا ، وحدثه في معنى الصلح ، وقال : «لا أرجع عن كلام تحدثت به مع أخي وصديقي ــ يعني الملك العادل رحمه الله ــ وذكر له كلاما عاد الى الملك العادل وأخبره به ، وكتبه في رقعة ، وأنفذها الى السلطان ــ رحمه الله ــ ، فوصلت قبيل العصر من اليوم المذكور وكان يتضمن : « انك تسلم عليه ، وتقول له : ان المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد ، وخرجت من يد الفريقين بالكلية،وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين ، وقد أخذ هذا الأمر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب ، والبلاد ، والقدس فمتعبدنا مـا نتزل عنه ، ولو لم يبق منا واحد ، وأما البلاد فيعاد الينا منها

ما هو قاطع الأردن ، وأما الصليب فهو خشبة لا مقدار له عندكم ، وهو عندنـا عظيم ، فيمنُّ بـه السلطان علينا ، ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم » . ولمـا وقف السلطان ـ رحمة الله عليه ـ على هـذه الرسالة استدعى أرباب المشورة من دولته ، واستشارهم في جواب ذلـك ، والذي رآه السلطان ـ رحمه الله ـ في جواب ذلك أن قال : « القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فانه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة ، فلا يتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين ، وأما البلاد فهي أيضا لنا في الأصل ، واستيلاؤكم كان طارئا عليها ، لضعف مَنْ كان بها من المسلمين في ذلك الوقت ، وما أقدركم الله على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائما ، وما في أيدينا نحن منها نأكل بحمد الله مغله وننتفع به ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قُرْبَةٌ عظيمة ، ولا يجوز لنا أن نفرط فيها الا لمصلحة راجعة الى الإسلام هي أوفى منها » . وسار هذا الجواب اليه من الواصل منه .



ذكر هرب شيركوه بن باخل الكردي من عكا

وكان فيها اسيراً

ولما كان أواخر نهار الجمعة سادس عشري رمضان المذكور وصل شيركوه بن باخل الزرزاري ، وهو من جملة الأمراء المأسورين بعكا ـ يسّر الله فتحها ـ ، وكان من قصته أنه هرب ليلة الأحد الحادي والعشرين من شهر رمضان، وذلك أنه كان ادخر له حبلا في مخدته ، وكان الأمير حسين ابن باريك ـ رحمه الله ـ ادخر له حبلا في بيت الطهارة ، فاتفقا على الهرب ، ونزلا من طاقة كانت في بيت الطهارة ، وانحدرا من السور الأول ، وعبر شيركوه من الباشورة أيضا ، وكان ابن باريك حالة نزوله انقطع به الحبل ، ونزل شيركوه سليما ، فرآه وقد تغير من الوقعة ، فكلمه فلم يجبه، وحركه فلم يتحرك ، فهزه عساه ينشط ويسير معه فلم يقدر ، فعلم أنه ان أقام عنده أخذا جميعا ، فتركه وانصرف ، واشتد هربا في قيوده ، حتى أتى تل العياضية وقد طلع الصبح ، فاكمن في الجبل حتى علا النهار ، وكسر قيوده ، وسار ، وستر الله تعالى عليه ، حتى أتى المعسكر المنصور في ذلك الوقت ، ومثل بخدمة السلطان ـ قدس الله روحه ـ وكان

من أخباره أن سيف الدين المشطوب ضيَّق عليه ، وأنه قطع عن نفسه قطيعة عظيمة من خيل وبغال وأنواع أموال ، وأن ملك الانكتار — خذله الله تعالى — أتى عكا ، وأخذ كل من كان له بها من خدمه ومماليكه وأقمشته ، ولم يُبق له فيها شيئا ....



ذكر رسالة سيّرني فيها الملك العادل

الى السلطان — قدس الله روحه — مع جماعة من الامراء

وذلك أنه لما كان يوم الاثنين التاسع والعشرون من شهر رمضان استدعاني الملك العادل في صبيحته ، وأحضر جماعة من الأمراء : علَم الدين سليمان ، وسابق الدين ، وعز الدين بن المقدم ، وحسام الدين بشارة ، وشرح لنا ما عاد به رسوله من الانكتار المخذول من الرسالة والكلام ، وذلك أنه ذكر أنه قد استقرت القاعدة على أن يزوج الملك العادل بأخت الانكتار — وكان قد استصحبها معه من صقلية — فانها كانت زوجة صاحبها وكان قد مات ، فأخذها أخوها لما اجتاز بصقلية ، فاستقرت القاعدة على أن يزوجها من

الملك العادل ، وأن مستقر ملكهما يكون بالقدس الشريف
وأن أخاها يعطيها بلاد الساحل التي في يده من عكا الى يافا
وعسقلان وغير ذلك ويجعلها ملكة الساحل ، وأن السلطان
ـ قدس الله روحه ـ يعطي الملك العادل جميع ما في يده من
بلاد الساحل ويجعله ملك الساحل ويكون ذلك مضافا الى
ما في يده من البلاد والإقطاع وأنه يسلم اليه صليب
الصلبوت ، وتكون القرايا للداوية والاسبتارية ، والحصون
لهما ، وأسرانا يفك أسرهم ، وكذلك أساراهم ، وأن الصلح
يستقر على هذه القاعدة ويرحل ملك الانكتار طالبا بلاده
في البحر وينفصل الأمر . هكذا ذكر رسول الملك العادل له
عن الملك،ولما عرف ذلك الملك العادل بنى عليه أنه استحضرنا
عنده ، وحملنا هذه الرسالة الى السلطان ـ قدّس الله
روحه ـ ، وجعلني المتكلم فيها والجماعة يسمعون ،
ويعرض عليه هذا الحديث فان استصوبه ورآه مصلحة له
وللمسلمين شهدنا عليه بالإذن في ذلك والرضى به ، وان أباه
شهدنا عليه أن الحال في الصلح قد انتهى الى هذه الغاية ،
وانه هو الذي رأى ابطاله ، فلما مثلنا بالخدمة السلطانية
عرضت عليه الحديث ، وتلوت عليه الرسالة بمحضر من
الجماعة المذكورين ، فبادر الى الرضا بهذه القاعدة ، معتقدا

أن ملك الانكتار لا يوافق على ذلك أصلا ، وأن هذا منه هزو" ومكر ، فكررت عليه الرضى بذلك ثلاث مرات ، وهو يصرح ويشهد على نفسه بالرضا به ، فلما تحققنا ذلك منه عدنا الى الملك العادل فعرفناه ما قال ، وعرفه الجماعة أني كررت عليه الحديث في تقييد الشهادة عليه ، وأنه أصرّ على الإذن في ذلك ، واستقرت القاعدة عليه .

★ ★ ★

ذكر عود الرسول إلى الانكتار

بالجواب عن هذه الرسالة

ولما كان يوم الأربعاء ثاني شوال سار ابن النحال رسولا من جانب السلطان ـ قدس الله روحه ـ ومن جانب الملك العادل ، فلما وصل الى مخيم العدو ، وأنفذ عرف الملك بقدومه أنفذ اليه أن الملكة عرض عليها أخوها حديث النكاح فتسخطت من ذلك ، وغضبت بسببه ، وأنكرت ذلـك ، انكارا عظيما ، وحلفت بدينها المغلظ من يمينها أن لا تفعل ذلك ، وكيف تمكن مسلما من غشيانها ، ثم قال أخوها : « ان كان الملك العادل يتنصر فأنا أتمم ذلك ، وان رضيت فأنا أفعل ذلك » . وترك باب الكلام مفتوحا فكتب الملك العادل الى السلطان ـ رحمة الله عليه ـ وعرفه ذلك .

★ ★ ★

ذكر اخذ مركب مشهور للفرنج

يسمى المسطح وكان عظيماً عندهم

ولما كان يوم السبت خامس شوال فيه وصل الخبر أن الأصطول الإسلامي استولى على مراكب الفرنج ، وفيهـا مركب يعرف بالمسطّح ، قيل : انه كان فيه خمسمائة نفر أو زائد على ذلك ، وانه قتل منهم خلق عظيم واستبقوا منهم أربعة نفر كبار مذكورين ، وسرّ المسلمون بذلك ، وضربت بشائر النصر ، ونعق بوق الظفر ، ولله الحمد والمنة .



ذكر اجتماع الراي من الامراء

بين يدي السلطان ـ قدس الله روحه ـ

ولما كان يوم الأحد سادس شوال جمع السلطانـ قدس الله روحهـ أكابر الأمراء وأرباب الآراء من دولته ، وشاورهم كيف يصنع ان خرج العدو ، وكان قد تواصلت الأخبار عنهم أنهم قد اتفقوا على الخروج الى العسكر الإسلامي فانفصل الرأي بين ذوي الآراء من المسلمين على أنهم يقيمون

في منزلتهم بعد تخفيف الأثقال ، فان خرج الفرنج كانوا على لقائهم . وفي عشية هذ اليوم استأمن من الفرنج اثنان على فرسين ، وأخبرا أن العدو على عزم الخروج في يوم الثلاثاء ، وأنهم زهاء عشرة آلاف فارس ، وذكر أنهم لا يعرفون قصدهم ، وهرب أسير مسلم من جانبهم وأخبر أنهم قد أظهروا الخروج الى الرملة ، ثم فيها يتفقون على موضع يقصدونه . ولما تحقق السلطان ــ قدس الله روحه ــ ذلك أمر الجاووش أن ينادي بالعسكر المنصور حتى يتجهز جريدة ، وشدت الرايات ، وحقق عزمه على أنه يقف قبالة القوم ان خرجوا ، وسار في يوم الاثنين مؤيدا منصورا حتى أتى قبلي كنيسة الرملة ليلا ، فخيم هناك وبات ليلته ....

★ ★ ★

ذكر وفاة الملك المظفر

رحمة الله عليه

ولما كان يوم الجمعة حادي عشر شوال ركب السلطان ــ قدس الله روحه ــ الى جهة العدو ، فأشرف عليهم ثم عاد . وأمرني بالإشارة الى أخيه الملك العادل بأن يحضر معه علم الدين سليمان بن جندر ، وسابق الدين بن الداية ، وعز

الدين بن المقدم ، فلما مثل الجماعة بخدمته أمر خادما أن أخلِ المكان عن سوى الحاضرين ، وكنت في جملتهم وأمره بابعاد الناس عن الخيمة ، ثم أخرج كتابا من قباه ، وفضه ووقف عليه ، وبدرت دموعه ـ رحمه الله ـ وغلبه البكاء والنحيب ، حتى وافقناه من غير أن نعلم السبب ما هو ، وفي أثناء ذلك ذكر أنه يتضمن وفاة الملك المظفر ـ رحمة الله عليه ـ فأخذ الجماعة في البكاء حتى أتوا بوظيفته . ثم أذكرته بالله تعالى وامضاء قضائه وقدره فقال : « استغفر الله وإنا لله وإنا اليه راجعون » . ثم قال : « المصلحة كتم ذلك واخفاؤه لئلا يتصل بالعدو ونحن منازلوه » . ثم أحضر الطعام وأكل الجماعة وانفصلوا . وكان الكتاب الواصل المتضمن نعيه هو غير الكتاب الواصل الى حماة بنعيه في طي كتاب وصل من النائب بها . وكانت وفاته في طريق خلاط عائدا الى ميافارقين ، فحمل ميتا حتى وصل الى ميافارقين ، ثم عملت له تربة عليها مدرسة مشهورة بأرض حماة ، وحمل اليها ودفن ، وزرتُ ضريحه ـ رحمة الله عليه ـ وكانت وفاته يوم الجمعة تاسع عشر رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، رحمة الله عليه .

★ ★ ★

ذكر كتاب وصل من بغداد

ولما كان يوم السبت الثاني عشر من شوال من السنة المذكورة وصل من دمشق كتاب من النواب بها في طيّه كتاب من بغداد من الديوان العزيز النبوي ــ مجّده الله تعالى ــ يتضمن فصولا ثلاثة : الأول : الإنكار على الملك المظفر في مسيره الى بكتمر ، وبولغ فيه حتى قيل ان الديوان العزيز لا يُسَلّمه . والفصل الثاني : يتضمن الإنكار على مظفر الدين في مَسْكُ حسن بن قفجاق ، والأمر باعادته الى الكرخاني ، وبولغ فيه حتى قيل فيه : ان الديوان العزيز لم يأذن لغيره في سكناها ، وكان من قصة حسن بن قفجاق أنه قصد أرميه الى السلطان طُغْريل ، فانه كان نزل به في بيوته لما هرب من ديار العجم ، واستنصر به ، وتزّوج أخته ، ووقع في ذهنه أنه يكون أتابكه ، ويملك به البلاد فقصدوا أرميه ، فقتل أهلها على ما قيل ، وسبى نساءهم وذراريهم ، وتعرض للقوافل، وكان معقله الكرخاني، فلما وجد السلطان طغرل قوته تركه وانصرف عنه ، وعاد هو الى بلاده ، وأظهر

الفساد في الأرض، والتعرض للقوافل على ما قيل، فاستعطفه مظفر الدين ــ صاحب اربل ــ حتى عاد اليه وانخرط في سلك أصحابه ، وقبض عليه ، فأنفذ الديوان العزيز ذلك في معناه ، لاستيلاء مظفر الدين على بلاده ، ولعله يشفع الى الديوان ، فاقتضت عاطفته ذلك في حقه . وأما الفصل الثالث: فكان يتضمن التقدم باحضار القاضي الفاضل الى الديوان العزيز رسولا ليقرر معه قواعد ، وتكشف اليه أسباب . هذا كان مضمون الكتاب . وأما الجواب عنه فان السلطان ــ قدّس الله روحه ــ أجاب : عن الفصل الأول : « بأنا لم نأمره بشيء من ذلك ، وانما عبر ليجمع العساكر ويعود الى الجهاد ، فاتفق أسباب اقتضت ذلك ، وقد أمرناه بالعود عنه » . وأما الفصل الثاني فأجاب عنه : بأن عرّفهم حال ابن قفجاق وما تصدى له من الفساد في الأرض ، وأنه قد تقدم الى مظفر الدين حتى يحضره معه الى الشام ، فيقطعه فيه ، ويكون ملازما للجهاد ، وأما الفصل الثالث : فانه اعتذر عن القاضي الفاضل بأنه كثير الأمراض ، وقوته تضعف عن الحركة الى العراق . فكان هذا حاصل الجواب .

★ ★ ★

ذكر وصول صاحب صيدا

رسولاً من جانب المركيس

ولما كان يوم الثلاثاء خامس عشر شوال من السنة المذكورة وصل مَنْ أخبر بوصول صاحب صيدا من جانب المركيس صاحب صور ، وكان قد جرى بيننا وبينهم أحاديث مترددة ، حاصلها أنهم ينقطعون عن الفرنج ونصرتهم ، ويصيرون منا عليهم بناء على فتنة كانت جرت للمركيس مع الملوك بسبب امرأة تزوجها كانت زوجة لأخي الملك جفري ، وفسخ نكاحها بأمر اقتضاه دينهم ، واضطربت آراؤهم فيه ، فخاف المركيس على نفسه ، فأخذ زوجته وهرب من تحت الليل الى صور ، وأخلد الى السلطان ـ قدس الله روحه ـ والاعتضاد به ، وكان في ذلك مصلحة للمسلمين ، لانقطاع المركيس عن الفرنج ، فانه كان من أشدهم بأسا وأعظمهم للحرب مراسا ، وأثبتهم في التدبير أساسا ، وحيث اتصل خبر وصول هذا الرسول بالسلطان ـ قدس الله روحه ـ أمر باجلاله واحترامه ، فضربت خيمة ، وضرب حولها شقة ، ووضع فيها من الطرح والفرش ما يليق بعظمائهم وملوكهم ، وأمر بانزاله في الثقل ليستريح ، ثم يجتمع به .



ذكر واقعة الكمين

التي استشهد فيها إياز المهراني

قدّس الله روحه

ولما كان سادس عشر شوال من السنة المذكورة أمر السلطان ــ قدّس الله روحه ــ الحلقة أن كمنت للعدو في بطون أوادٍ هناك ، واستصحبوا جمعا من العرب ، فلما استقر الكمين في موضعه ظهرت العرب على جاري عاداتها في مناوشتها للعدو ، فكان العدو يخرج منه جماعة للاحتشاش والاحتطاب قريبا من مخيمه ، فبصر العرب بهم فضربوا عليهم ، ووقع الحرب بينهم ، وثار الصياح ، فسمع الفرنج فركب منه جمع من الخيالة ، وطلبوا جهة الصوت ، وانهزم العرب من أيديهم الى جهة الكمين والعدو يتبعهم طمعا فيهم ، حتى قاربوا الكمين ، وخرج الكمين عليهم ، وصاحوا بهم صيحة الرجل الواحد ، فانهزموا بين أيديهم نحو خيامهم . واتصل الخبر بالعدو ، فركب منهم خلق عظيم ، وقصدوا نحو الوقعة ، والتحم القتال ، واشتد الأمر ، وقُتل جمع من الطائفتين وجُرح وأُسر جمع من العدو وأُخذ منهم خيلٌ كثيرة .

كان سبب انفصال الحرب أن السلطان — قدّس الله روحه — حسب مثل هذا الواقع ، فأنفذ أمير آخر أسلم . وسيف الدين يازكج ، ومن يجري مجراهم ، ردءاً للكمين ، وقال : « اذا رأيتم الغلبة على الكمين فاظهروا » . فلما رأوا الكثرة من جانب العدو خرجوا على العدو بخيلهم ورَجِلهم. ولما رأى العدو الأطلاب الإسلامية قد صوبت نحوه أعنة خيولها ولوا الأدبار نحو خيامهم ، والسيف يعمل في قفيهم ، حتى دخلوا الخيام ، وانفصل الحرب قبيل الظهر من نهار الأربعاء سادس عشر شوال . وكان السلطان — قدّس الله روحه — قد ركب متشوفا أخبار الكمين ، وكنت في خدمته ، فكان أول من وصل الوقعة جماعة من العرب ، ومعهم خمسة أرؤس من الخيل ، قد أخذوها من الوقعة ، وانفصلوا قبل انفصال الحرب . ثم ما زالت الطلائع[1] تتواتر ، والبشائر تتواصل ، وقتل في الوقعة من العدو على ما قيل زهاء ستين نفرا ، وجرح من المسلمين جماعة ، وقتل من المعروفين من المسلمين جماعة ، منهم اياز المهراني — رحمة الله عليه — وكان شجاعا معروفا ، وجاولي غلام الغيدي ، وسار مصرع اياز

(١) في الاصل : القلائع ، وقد اعتمدنا اللفظة الواردة في نسخة القاهرة.

المعظمي ، وجرح عدة جرائح ، وحمل الى المسلمين ، وأسر مـــن العدو فارسان معروفان ، واستأمن اثنان بخيولهمـــا وعدتهما . وعاد السلطان ــ رحمه الله ــ الى خيمته فرحا مسرورا مُعوضا من قتل فرسه ، متلطفا بالجريح ، مترحما على الشهيد . وفي بقية اليوم المذكور وصل رسول الانكتار الى الملك العادل يعتبه على الكمين ويطلب الاجتماع به ، فاستأذن ، فأذن له ، فسار اليه .



ذكر ما جرى للملك العادل والانكتار

واجتماعهما

ولما كان يوم الجمعة ثامن عشر شوال من السنة المذكورة سار الملك العادل الى اليزك ، وضربت له فيه نوبتية عظيمة ، وسار معه من الاطعمة والتجملات والتحف ما جرت العادة أن يحمل من الملك الى ملك . وهو اذا تجمل في ذلك لا يغلب . وسار الانكتار الى خيمته ، وحضر عنده على ما قيل ، واحترمه احتراما عظيما ، ووصل مع الانكتار شيء من طعامهم الذي يختصون به ، فأتحف به الملك العادل على وجه المطايبـــة ،

فتناول منه الملك العادل ، وتناول هو وأصحابه الواصلون معه من طعام الملك العادل . وقدم اليه ما كان حمل اليه . وتحادثا معظم ذلك النهار . وتفاصلا عن تواد ومطايبة . ومحبة أكيدة .

★ ★ ★

ذكر الرسالة التي انفذها الانكتار إلى السلطان

ـ قدّس الله روحه ـ في معنى الاجتماع به وجوابها

وفي ذلك اليوم سأل من الملك العادل أن يلتمس له من السلطان ـ قدس الله روحه ـ الاجتماع به . والمثول بين يديه . ولما وصلت هذه الرسالة شاور السلطان ـ قدس الله روحه ـ الجماعة في الجواب ، فما منهم من وقع له ما وقع له ـ رحمة الله عليه ـ وذلك أنه قال له : « الملوك اذا اجتمعوا يقبح منهم المخاصمة بعد ذلك ، فاذا انتظم أمر حسن الاجتماع . والاجتماع لا يكون الا لمفاوضة في مهم . وأنا لا أفهم بلسانك ، وأنت لا تفهم بلساني ، ولا بد من ترجمان بيننا ، تثق به وأثق به . فليكن ذلك الترجمان رسولا حتى يستقر أمر . وتستتب قاعدة ، وعند ذلك يكون

الاجتماع الذي يعقبه الوداد والمحبة » . قال الرســول : « ولما سمع الانكتار ذلك استعظم هذا الجواب ، وعلم أنه لا يقدر على بلــوغ غرض الا بالدخول تحت المــراضي السلطانية » .



ذكر حضور صاحب صيدا بين يدي السلطان
ـ قدّس الله روحه ـ
واداء الرسالة والحديث الذي وصل فيه

ولما كان يوم السبت تاسع عشر شوال من السنةالمذكورة جلس السلطان ـ قدس الله روحه ـ واستحضر صاحب صيدا لسماع رسالته وكلامه ، فحضر وحضر معه جماعة وصلوا معه ، وكنت حاضرا المجلس ، وأكرمه ـ رحمة الله عليه ـ اكراما عظيما ، وحادثهم وقدم بين أيديهم ما جرت به العادة ، ولما رفع الطعام خَلِيَ بهم ، وكان حديثه في أن السلطان يصالح المركيس صاحب صور ، وكان قد انضم اليه جماعة من أكابر الفرنجية ، منهم صاحب صيدا وغيره من المعروفين ، وقد سبقت قصته . وكان من شرط الصلح

معه اظهار عداوته للفرنج البحرية ، وكان سبب ذلك شدة خوفه منهم ، وواقعة وقعت له معهم بسبب الزوجة ؛ وبذل له السلطان — قدس الله روحه — الموافقة على شروط قصد بها — رحمة الله عليه — الايقاع بينهم ، وأن ينفل بعضهم ؛ فلما سمع السلطان — قدس الله روحه — رسالته ، وعـده بأن يرد عليه الجواب فيما بعد ، وانصرف عنه في ذلك اليـوم .



ذكر وصول رسول الانكتار

ولما كانت عشية ذلك اليوم وصل رسول ملك الانكتار وهو ابن الهنفري وهو من أكابرهم وملوكهم ومن أولاد ملوكهم ، وصل رسولا وفي صحبته شيخ كبير منهم ، ذكروا أن عمره مائة وعشرون سنة ، فأحضره السلطان — قـدس الله روحه — عنده وسمع كلامه . وكانت رسالته أن الملك يقول : « اني أحب صداقتك ومودتك ، وأنت قد ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد السلحلية لاخيك ، فأريد أن تكون حكما بيني وبينه ، وتقسم البلاد بيني وبينه ، ولا بد وأن

يكون لنا علقة بالقدس الشريف ، ومقصودي أن تقسم البلاد بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين ، ولا علي لوم من الافرنجية » . فأجابه في الحال بوعد جميل ، ثم أذن لهم في العود في الحال ، وتأثروا بذلك تأثرا عظيما ، وأنفذ وراءهم من سألهم عن حديث الاسارى ، وكان منفصلا عن حديث الصلح ، فقالوا : « ان كان الصلح فعلى الجسيع وان لم يكن صلح فلا يكون من حديث الاسارى شيء » . وكان غرضه ــ قدس الله روحه ــ أن يفسخ قاعدة الصلح ، فانه التفت الي في آخر المجلس بعد انفصالهم ، وقال لي : « متى صالحناهم لم تؤمن غائلتهم ، فاني لو حدث لي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر ، ويقوى الفرنج، والمصلحة ألا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل ، أو يأتينا الموت » . هذا كان رأيه ــ قدس الله روحه ــ وانما غلب على الصلح ــ قدس الله روحه .



ذكر مشورة ضربها في التخيير بين الصلحين

صلح الملك وصلح المركيس صاحب صور

ولما كان يوم الاثنين حادي عشرين شوال جمع السلطان الامراء والاكابر وأرباب المشورة . وذكر لهم القاعدة التي التمسها المركيس ، واستقر الامر من جانبه عليها . وهي أخذ صيدا ، وأن يكون معنا على الفرنج . ويقاتلهم ويجاهرهم بالعداوة ، وذكر لهم ما التمسه الملك من تقرير قاعدة الصلح ، وهي أن يكون له من القرايا الساحلية مواضع معينة ، ويكون لنا الجبليات بأسرها . أو تكون القرايا كلها مناصفة،وعلى هذين القسمين يكون لهم أقِسّاء[1] في بِيَع القدس الشريف وكنائسه . وكان الانكتار قد خيَّرنا بين هذين القسمين ، فشرح — قدس الله روحه — الحال في القاعدتين للامراء ، واستنبط آراءهم في ترجيح احدى الجانبين[2]:الانكتار والمركيس،وترجيح أحد القسمين المذكورين من جانب الملك ، فرأى أرباب الرأي أنه ان كان صلح فليكن مع الملك ، فان مصافاة الفرنج للمسلمين بحيث

---

(١) اي قسيسين .

(٢) اوردها بعاميته ، وصحيحها : احد الجانبين .

يخالطوهم بعيدة ، صحته غير مأمونة الغائلة . وانفض الناس وبقي الحديث مترددا في الصلح ، والرسل تتواصل في تقرير قواعد الصلح ، وأصل القاعدة : أن الملك قد بذل أخته للملك العادل بطريق التزويج وأن تكون البلادالساحلية الاسلامية والفرنجية لهما . فأما الفرنجية فلها من جانب أخيها والاسلامية للملك العادل من جانب السلطان . وكان آخر الرسائل من الملك في المعنى أن قال : « ان معاشر دين النصرانية أنكروا علي وضع أختي تحت مسلم بدون مشورة البابا ، وهو كبير دين النصرانية ومقدمه ، وها أنا أسيّر اليه رسولا يعود في ثلاثة أشهر ، فان أذن فيها ونعمت، والا زوجتك ابنة أختي ، وما أحتاج في اذنه في ذلك » . هذا كله وسوق الحرب قائم ، والقتال عليهم ضربة لازب ، وصاحب صيدا يركب مع الملك العادل في الاحيان ، ويشرف على الفرنج وقتال المسلمين لهم ، وهم كلما رأوه تحركوا لطلب الصلح خوفا من أن ينضاف المركيس الى المسلمين ، وعند ذلك تنكسر شوكتهم ، ولم يزل الحال كذلك الى يوم الجمعة خامس عشر شوال من السنة المذكورة .



ذكر انفصال رسول المركيس

وكان قد وصل يوسف غلام صاحب صيدا رسولا من جانب المركيس ، يلتمس الصلح مع المسلمين فاشترط — رحمة الله عليه — شروطا منها : أن يقاتل جنسه ويباينهم ومنها : أن كل ما أخذه من البلاد الفرنجية بعد الصلح بانفراده تكون له ، وما نأخذه نحن بانفرادنا يكون لنا ، وما تتفق نحن وهو على أخذه يكون له نفس البلد ، ويكون لنا ما فيه من أسارى المسلمين وغير ذلك من الاموال • ومنها : أن يطلق لنا كل أسير في مملكته • ومنها : أنه ان فوض اليه الانكتار أمر البلاد لامر يجري بينهم ، كان الصلح بيننا وبينه على ما استقر بيننا وبين الانكتار ، ما عدا عسقلان وما بعدها ،فانه لا يدخل في الصلح ، فتكون الساحليات له وما فيأيدينا لنا ، وما فيالوسط يكون مناصفة وسار رسوله على هذه القاعدة •



ذكر وصول العساكر الإسلامية

في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

فأول من وصل أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه ؛ وكان وصوله يوم الاثنين ثامن عشري ربيع الاول من السنة المذكورة ؛ وصل جريدة مقدما على عسكره .



ذكر خروج سيف الدين بن المشطوب من الأسر

وكان وصوله الى القدس الشريف يوم الخميس مستهل جمادى الآخرة ، ودخل على السلطان ــ قدس الله روحه ــ بغتة ، وعنده أخوه الملك العادل ــ رحمه الله ــ فنهض اليه واعتنقه ، وسر به سرورا عظيما ، وأخلي المكان ، وتحدث بطرف من أحاديث العدو ، وسئل عن حديث الصلح فذكر أن الانكتار سكت عنه .

وفي هذا اليوم كتب السلطان الى ولده الملك الافضل حتى يسير الى قاطع الفرات يتسلم البلاد من الملك المنصور

ابن الملك المظفر . وكان قد أظهر العصيان بسبب الخوف من السلطان على نفسه . وأظهر ذلك . ودخل في إمرة الملك العادل ، وسيَّر الى الملك العادل حتى يتحدث في أمره . وكان هو المتحدث له ، وكان ذلك قد شق على السلطان ــ رحمة الله عليه ــ وأثار عليه مغيظة عظيمة ، كيف فتح هذا الباب من أهله ، ولم يكن أحد من أهله خاف منــه ولا طلب يمينه . وهذا كان السبب في توقف الانكتار في الصلح ، وأنه ظن أن هذا خلاف يكدر على السلطان شرب الغزاة ، ويحرجه الى الموافقة على مالا يرضى ، فنفَّذ الى الملك الافضل أن يسير الى البلاد ، وكتب الى الملك الظاهر بحلب المحروسة « ان أخاه ان احتاج الى معونة عاونه » وجهزه بحملة كبيرة ، وسار باحترام عظيم حتى وصل حلب المحروسة ، وأكرمه أخوه الملك الظاهر اكراما عظيما ، وعمل له ضيافة تامة ، وقدم بين يديه تقدمة سنية . وعدنا الى حديث العدو .



ذكر عود رسول صور

ولما كان سادس ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وصل يوسف من جانب المركيس يجدد حديث الصلح ، ويقول : قد انفصل الحال على شيء بينه وبين الفرنجية ، فان نجز في هذه الايام سارت الفرنسيسية في البحر ، وان تأخر بطل الحديث في الصلح مع المركيس بالكلية ، فرأى السلطان ــ قدس الله روحه ــ الصلح مع المركيس مصلحة، لاشتغال قلبه من جانب الشرق ، وخاف أن يتصل ابن تقي الدين ببكتمر ، فيحدث من ذلك ما يشغل الخاطر عن الجهاد، فأجاب الى ما يلتمس المركيس ، وكتب مع صاحبه مواصفة على نعت ما تقدم ، وسار العدل في جواب يوسف الرسول، وذلك بعد صلاة الجمعة تاسع ربيع الآخر من سنة ثمان وثمانين .



ذكر قتل المركيس الملعون

ولما كان سادس عشر ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وصل من العدل الرسول المنفذ الى المركيس كتاب يذكر فيه أنه قتل ، وعجل الله بروحه الى النار ، وكان صورة

قتله أنه تغذى يوم الثلاثاء ثالث عشره عند الاسقف ، ثم خرج فقفز عليه اثنان من أصحابه بالسكاكين ، وكان خفيفا من الرجال ، فما زالا يضربان فيه حتى عجل الله بروحه الى النار ، ومسك الشخصان ، فسئلا عن هذا الامر ، ومن وضعهما عليه ، فقالا : « ان الانكتار وضعنا عليه » وقام بالامر اثنان فحفظا القلعة ، الى أن اتصل الخبر بالملوك واعتمدوا الامر وتدبير المكان .



ذكر تتمة خبر الملك المنصور

وما جرى له

وذلك أنه لما بلغه موجدة السلطان ـ قدس الله روحه ـ عليه أنفذ الى الملك العادل رسولا يستشفع به ليطيب قلب السلطان عليه، ويقترح أحد قسمين: إما حَرّان والرُّها وسُمَيْصات، وإما حماة ومَنْبِج وسَلَمية والمعرّة ، مع كفالة اخوته ، وراجع الملك العادل السلطان ـ رحمة الله عليه ـ مرارا فلم يفعل ذلك ، ولم يجب الى شيء منه ، فكثرت الشفاعة اليه من جميع الامراء ، وهزت شجرة كرمه ،

فرجع الى خلقه النبوي رضي الله عنه ، وحلف له على حران والرها وصميصات . على أنه اذا عبر الفرات أعطي المواضع التي اقترحها . ويكفل اخوته . ويتخلى عن تلك المواضع التي في يده . ودخل تحت ضمان ذلك . وكفله الملك العادل. ثم التمس الملك العادل خط السلطان رضي الله عنه فأبى . وألح عليه . فخرق نسخة اليمين في تاسع عشري ربيع الآخر. وانفصل الحال ، وانقطع الحديث . وقد كنت أتردد بينهما في ذلك . وأخذ من السلطان الغيظ كيف يخاطب مثـل ذلك من جانب بعض أولاد أولاده .



ذكر ما جرى للملك العادل في البلاد
التي هي قاطع الفرات

وذلك أنه لما سار الملك الافضل رقق الملك العادل قلب السلطان على ابن تقي الدين . وكثر الحديث في معنـاه ، وأنفذني السلطان لمشاورة الامراء في خدمة الملك العادل في أمره . فجمعتهم في خدمته . وذكرت لهم ما أرسلني فيه اليهم . فانتدب الامير حسام الدين أبو الهيجاء للجواب ،

وقال : « نحن عبيده ومماليكه ، وذاك صبي ، وربما حمله خوفه أن انضاف الى جانب آخر ، ونحن فما نقدر على الجمع بين قتال المسلمين والكفار ، فان أرادنا نقاتل المسلمين صالح الكفار وسرنا الى ذلك الجانب ، وقاتلناه بين يديه ، وان أراد منا ملازمة الغزاة صالح المسلمين وسامحهم » . وهذا كان جواب الجميع ، فرقٌ السلطان ــ قدس الله روحه ــ وجددت نسخة يمين لابن تقي الدين ــ رحمه الله ــ وحلف له بها ، وأعطاه خطه بما استقر من القاعدة . ثم ان الملك العادل ــ رحمه الله ــ التمس من السلطان ــ رحمة الله عليه ــ البلاد التي كانت بيد ابن تقي الدين بعد انتقاله ، وجرت مراجعات كثيرة في العوض عنها ، وكنت الرسول بينهما ، وكان آخر ما استقر أنه يتسلم تلك البلاد ، وينزل عن كل ما هو شامي الفرات ، وما قطعها ما عدا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء ، وخاصة بمصر بعد النزول عن خبزه ، وعليه في كل سنة ستة آلاف غِرارة غلة تحمل الى السلطان من الصلت والبلقاء الى القدس ، والمغلّ في السنة المذكورة في مواضعه له ، ومغل قاطع الفرات للسلطان في هذه السنة أيضا ، وأخذ خط السلطان ــ رحمة الله عليه ــ

بذلك ، وسار بنفسه ليصلح ابن تقي الدين ويطيب قلبه . وكان مسيره في ثامن جمادى الاولى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .



ذكر وقعة جرت في صور

ولما كان سادس عشر جمادى وصل كتاب من حسام الدين بشارة يذكر فيه أنه تخلّف في صور مائة راكب ، وانضم اليهم من عكا مقدار خمسين طمعوا فخرجوا لشن الغارة على البلاد الاسلامية ، فوقع عليهم العسكر المرصد لحفظ البلاد من ذلك الطرف ، وجرى بينهم قتال شديد ، قتل من العدو خمسة عشر نفرا ، ولم يقتل من المسلمين أحد وعادوا خائبين خاسرين ، ولله الحمد .



ذكر قدوم العساكر الإسلامية إلى الجهاد

ولما رأى السلطان ـ قدّس الله روحه ـ ما جرى من العدو من التبسط سيَّر الى العساكر من سائر الأطراف أن تسابق الى الحضور ، فكان أول قادم بدر الذين دلدرم مع خلق كثير من التركمان ، ولقيه السلطان ـ قدس الله روحه ـ واحترمه .



ذكر قدوم ابن المقدم

ووصل بعده عز الدين بن المقدم في سابع عشر جمادى الأولى بعسكر حسن وأطلاب جيدة ورحب بـه السلطان ـ رحمة الله عليه ـ واحترمه .



ذكر حركة العدو من الحَسْي

وأما العدو فانه رحل من الحَسْي ، ونزل على مفرق طرق ، منها طريق عسقلان ، وطريق الى بيت جبريل ، والى غير ذلك من الحصون الاسلامية.ولما بلغ السلطان ـ قدس

الله روحه ــ دلت أمر العساكر أن سارت نحوه ، فخرج أبو الهيجاء . وبدر الدين دلدرم ، وابن المقدم وتتابعت العساكر وتخلّف هو ــ رحمة الله عليه ــ في القدس لنوع التياث كان عرض له ، فلما أحسّ العدو المخذول بظهور العساكر الاسلامية اليه عاد خائبا خاسرا ناكصا على أعقابه ، ووصلت الكتب من الأمراء يخبرون برحيل العدو الى عسقلان خائبا خاسرا ، ولله الحمد والمنة .



ذكر تعبئة العدو لقصد القدس الشريف

ولما كان يوم السبت ثالث عشري جمادى الأولى وصل قاصد من العسكر يخبر أن العدو قد خرج في راجله وفارسه وسوادٍ عظيم ، وخيّم على تل الصافية ، فسيّر السلطان ــ قدس الله روحه ــ الى العساكر الاسلامية ينذرها ويحذرها ، ويستدعي الامراء جريدةً الى عنده ، ليعقدوا رأيا فيما يقع العمل بمقتضاه ، فوصل ورحل العدو من تل الصافية الى جانب النطرون ، فنزل شماليه ، وذلك في

سادس عشري جمادى الأولى ، وكان قد سار من عرب الاسلام جماعة للغارة على يافا ، فوصلوا عائدين من غير علم بحركة العدو ، فنزلوا في بعض الطريق يقتسمون ، فوقعت عليهم عساكر العدو ، وأخذوهم ، وهرب منهم ستة نفر ، فوصلوا الى السلطان ، وأخبروه الخبر ، ووصلت الجواسيس وأصحاب الاخبار من جانب العدو ، يخبرون أنه يقيم بالنطرون لنقل الأزواد والآلات التي تدعو الحاجة اليها في الحرب ، فاذا حصل عندهم ما يحتاجون اليه قصدوا القدس الشريف . وفي يوم الاربعاء وصل منهم رسول صحبة غلام كان للمشطوب عندهم ، تحدث في معنى قراقوش ، ويتحدثون في معنى الصلح .

★ ★ ★

ذكر نزولهم في بيت نوبة

وهو موضع وطاة بين جبال ، بينه وبين القدس مرحلة

فرحلوا من النطرون يوم الاربعاء سابع عشرين ربيع الأول ونزلوا ببيت نوبة ، ولما عرف السلطان ــ رحمة الله عليه ــ ذلك استحضر الأمراء وضرب مشوراً فيما يفعل ،

وكان خلاصة الرأي ان تقسم الأسوار على الأمراء ، ويخرج بقية العساكر جريدة الى جهة العدو ، فاذا عرف كل قوم موضعهم من السور واستعدوا له ، فان دعت الحاجة اليهم خرجوا ، وان دعت الحاجة الى ملازمة مواضعهم لازموها ، فكتبت الرقاع وسُيِّرت الى الأمراء .



ذكر وقعة جرت

وكان طريق يافا سابلة بمن ينقل الميرة الى العدو المخذول ، فأمر السلطان ــ قدس الله روحه ــ مَنْ في اليزك أن يعمل معهم ما يمكنه ، وكان في اليزك بدر الدين دُلدرم ، فكمن حول الطريق كمينا فيه جماعة جيدة ، فمرَّ بهم جمع من خيّالة العدو يحمون قافلة تحمل ميرة ، فاستضعفهم ، فحملوا عليهم ، وجرى قتال عظيم كانت الدائرة فيه على العدو ، وقتل ثلاثون نفرا ، وأسر جماعة . ووصل الأسارى يوم السبت تاسع عشري جمادى الأولى

الى القدس الشريف ، وكان لدخولهم وقع عظيم ، وجرى على العدو من ذلك وهن عظيم ، وقويت قلوب اليزكية ، وانبعثت هممهم حتى حملوا على العسكر ، ونزلوا الى أطراف الخيم ، ولله الحمد .



ذكر وقعة اخرى

ولما علم المسلمون كون القوافل لا تنقطع خرج جماعة وأخذوا معهم عربا كثيرة ، وكمنوا كمينا ، واجتازت القافلة ومعها جمع كثير ، فخرجت العرب على القافلة ، فتبعتهم الخيالة ، فاندرجوا بين أيديهم منهزمين نحو المسلمين ، فخرجت الاتراك عليهم فأخذوا منهم وقتلوا ، وجُرح من الاتراك جماعة ، وذلك في يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .



ذكر اخذ قافلة مصر

حرسها الله تعالى

وكان قد تقدم السلطان ـ قدس الله روحه ـ الى عسكر مصر بالمسير وأوصاهم بالاحتراز والاحتياط عند مقاربة العدو ، وأقاموا ببلبيس أياما ، حتى اجتمعت القوافل اليهم واتصل خبرهم بالعدو المخذول ، ثم ساروا طالبين البلاد ، والعدو يترقب أخبارهم ، ويتوصل اليهم بالعرب المفسودين.ولما تحقق العدو خبر القَفل أمر عسكره بالانحياز الى سفح الجبل ، وركب في ألف راكب مرافقين ألف راجل، وأمر العسكر بالاحتياط والتحفظ ، وسار حتى دنا من تل الصافية فبات ، ثم سار حتى أتى تل الصافية ثم علّف على خيله فيه ، وسار حتى أتى ماء يقال له الحَسْي ، واتصل خبر نهضة العدو فأنفذ وأخبر القافلة ، وكان المندوب لذلك أمير آخُر أسلم ، والطنبا العادلي وجماعة من الفرسان المذكورين ، وأمرهم أن يبعدوا بالثقل في البرية ، ويبعدوهم عن العدو مهما أمكن ، فاتفق أن العسكر وصل الحَسْي قبل وصول العدو اليه فلم يقيموا عليها ، وساروا حتى اتصلوا بالقفل والعسكر المصري ، فأتوا بالقفل على ذلك

الطريق ، ثقةً منهم بأنهم لم يجدوا في الطريق ذاعرا ، ولا أحسوا فيه بمخوف ، فرغبوا في قرب الطريق ، وسلكوا بالناس على هذا الطريق ، فوصل الناس الى ماء يقال له الخويلفة ، وتفرّق الناس لأجل الماء ، فأخبرت العرب العدو بذلك وهو نازل برأس الحَسْي ، فقام من وقته وسرى حتى أتاهم قبيل الصبح ، وكان مقدّم العسكر المصري فلك الدين أخو الملك العادل لأمه ، فأشار أسلم بالمسير ليلا ، قطعاً للطريق واستظهارا بالصعود الى الجبل ، فخاف فلك الدين أنه ان رحل في الليل جرى في الليل أمرٌ على القافلة لتبددها ، فنادى في الناس ألا يرحلوا الى الصباح .

وأما الانكتار الملعون ، فانه بلغنا أنه لما بلغه الخبر لم يصدق به ، فركب مع العرب بجمعٍ يسير ، وسار حتى أتى القفل وطاف حوله في صورة عربي ، ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاس ، فعاد واستركب عسكره وكانت الكبسة قريبة الصباح ، فبغت الناس ، ودفع بخيله ورَجِلِه ، فكان الشجاع الأيد القوي الذي ركب فرسه ونجا بنفسه ، وانهزم الناس الى جهة القفل ، والعدو يتلوهم ، فلما رأوا القفل أعرضوا عن قتال العسكر ، وطلبوا القفل ، فانقسم القفل ثلاثة أقسام : قسم قصدوا الكرك من جماعة من

العرب وعسكر الملك العادل ، وقسم أوغلوا في البرية مع جماعــة من العرب ، وقسم استولى عليهم العدو فساقهم بجمالهم وأحمالها وجميع ما معهم ، وكانت وقعة شنعاء لم يصب الإسلام بمثلها منْ مدة مديدة • وكان في العسكر المصري جماعة من المذكورين ، كحسين الجراحي ، وفلك الدين ، وبني الجاولي وغيرهم من المذكورين ، وقتل من العدو مائة فارس على رواية ، وعشرة أنفس على رواية ، ولم يقتل من المسلمين معروف سوى الحاجب يوسف ، وابن الجاولي الصغير فانهما استشهدا الى رحمة الله تعالى ، وكان السلطان ــ قدس الله روحه ــ حَمْل مع أيبك العزيزي فقاتل دونه وسلم ، وتقدم عند السلطان بسبب ذلك وتبدّد الناس في البرية ، ورموا أموالهم ، وكان السعيد منهم من نجا بنفسه ، وجمع العدو ما أمكنه جمعه من الخيل والجمال والأقمشة وسائر أنواع الأموال وكلّف الجمالين خدمــة الجمال ، والخربندية خدمة البغال ، والساسة خدمة الخيل، وســار في جحفل مــن غنيمة يطلب عسكره ، فنزل على الخويلفة ، وسقى منها ، ثم سار حتى أتى الحَسْي • ولقد كان حكى من كان أسيرا معهم أن في تلك الليلة وقع فيهم الصوت أن العسكر السلطاني قد قصدهم ، فتركوا الغنيمة

وانهزموا وبعدوا عنها زمانا ، فلما انكشف لهم أن العسكر لم يلحقهم ، عادوا الى الرحل ، وهرب في تلك الغيبة جمع مــن الأسارى المسلمين ، وكـــان الحاكي منهم فسألته : « بكم حزرتم الجمال والخيل ؟ » . فأخبر ان الجمال كانت تناهز ثلاثة آلاف جمل ، والأسارى خمسمائة ، وازنها عِدَّة الخيل ، أخبر بذلك جماعة ، وكانت هذه الوقعة صبيحة الثلاثاء حادي عشر جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين . ووصل الخبر الى السلطان ــ قدس الله روحه ــ في عشية ذلك اليوم بعد عشاء الآخرة وكنت جالسا في خدمته ، ووصل بالخبر شاب من الاصطبلية ، فما مرَّ بالسلطان خبر أنكى منه في قلبه ولا أكثر تشويشا منــه لباطنه ، وأخذتُ في تسكينه وتسليته وهو لا يكاد يقبل التسلية . وكان أصل القضية أن أمير آخُر أسلم أشار عليهم أنهم يصعدون الجبل وينزلون ، فلم يفعلوا ، فصعد هو الجبل وأصحابه ، فلما وقعت الكبسة كان هو على الجبل لم يصل اليه أحد من العدو ، ولم يشعروا به ، ولما انهزم المسلمون تبعهم خيالة الفرنج ، وأقام الرجّالة منهم يستولون على ما تخلَّف من المسلمين من الأقمشة ، فلما تحقق أمير آخُر أن الخيالة قد بعدت عن الرجالة نزل اليهم بمن معه من الخيل ، وكبسوهم

من حيث لم يشعروا ، وقتلوا منهم جماعة ، وغنموا منهم دوابا من جملتها بغل كان تحت هذا القاصد ، ثم سار العدو يطلب خيامهم ، وكان وصولهم الى مخيمهم في سادس عشر جمادى الآخرة . وكان يوما عندهم أظهر فيه من السرور وأسبابه مالا يمكن وصفه ، وأعادوا خيمهم الى الموطاة على بيت نوبة ، وصحّ عزمهم على القدس ، وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الأموال والجمال التي تقلّ الميرة والأزواد الواصلة من مصر مع عسكرها ، ورتبوا جماعة من لدّ يحفظون الطريق على من ينقل الميرة ، وأنفذوا الكندهري الى صور وطرابلس وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا الى القدس . ولما عرف السلطان ـ قدس الله روحه ـ ذلك منهم ، عمد الى الأسوار فقسمها على الأمراء، وتقدم اليهم بتهيئة أسباب الحصار ، وأخذ في افساد المياه ظاهر القدس ، فأخرب الصهاريج والجباب ، بحيث لم يبقَ حول القدس ما يُشرب أصلا ، وأطنب في ذلك اطنابا عظيما، وأرض القدس لا يطمع في حفر بئر فيها ما يعين في جمعها ، لأنها جبل عظيم وحجر صلب وسيَّر الى العساكر يطلبها من الجوانب والبلاد .

★ ★ ★

ذكر عود العدو إلى بلادهم
وسبب ذلك

ولما كانت ليلة الخميس تاسع عشر جمادى الآخرة أحضر السلطان ــ قدس الله روحه ــ الامراء عنده ، فحضر الامير أبو الهيجاء بمشقة عظيمة ، وجلس على كرسي في خدمة السلطان وحضر المشطوب والاسدية بأسرهم وجماعة الامراء ، ثم أمرني أن أكلمهم وأحثهم على الجهاد ، فذكرت ما يسر الله من ذلك ، وكان مما قلته : « ان النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الامر بايعه الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ على الموت في لقاء العدو ، ونحن أولى من تأسى به ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت ، فلعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو » فاستحسن الجماعة ذلك ، ووافقوا عليه ، ثم شرع السلطان ــ قدس الله روحه ــ بعد أن سكت زمانا في صورة مفكر ، والناس سكوت ، كأن على رؤوسهم الطير ، ثم شرع وقال : « الحمد لله ، والصلاة على رسول الله،اعلموا أنكم جند الاسلام اليوم ومَنَعَتُه، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة

في ذممكم ، فان هذا العدو أمن له من المسلمين من تلقاه الا أنتم ، فان لويتم أعنتكم ــ والعياذ بالله ــ طوى البلاد كطي السجل للكتاب ، وكان ذلك في ذمتكم فانكم أنتم الذين تصديتم لهذا ، وأكلتم مال بيت المال ، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام » .

فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب ، وقال : « يا مولانا : نحن مماليكك وعبيدك ، وأنت الذي أنعمت علينا وكبرتنا ، وعظمتنا وأعطيتنا ، وأغنيتنا ، وليس لنا الا رقابنا وهي بين يديك ، والله ما يرجع أحد منا عن نصرتك الى أن يموت » . فقال الجماعة مثل ما يقول . فانبسطت نفسه بذلك المجلس ، وطاب قلبه : وأطعمهم ثم انصرفوا . ثم انقضى يوم الخميس على أشد حال من التأهب والاهتمام، حتى كان العشاء الآخرة ، واجتمعوا في خدمة السلطان على العادة ، وسمرنا حتى مضى هزيع من الليل ، وهو غير منبسط على عادته ، ثم صلينا العشاء ، وكانت الصلاة هي الدستور العام ، فصلينا وأخذنا في الانصراف ، فاستدعاني ــ رحمة الله عليه ــ فلما جلست في خدمته قال لي : « علمت ما الذي تجدد ؟ » فقلت : « وما الذي

تجدد ؟ » قال : « ان أبا الهيجاء أنفذ الي اليوم وقال : انه اجتمع عندي جماعة المماليك والامراء ، وأنكروا علينا موافقتنا لك على الحصار والتأهب له ، وقالوا : لا مصلحة في ذلك ، فانا نخاف أن نحصر ويجري علينا ما جرى على أهل عكا ، وعند ذلك تؤخذ بلاد الاسلام أجمع ، والرأي أن نلقى مصافا ، فان قدر الله تعالى أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم ، وان تكن الاخرى سلم العسكر ، ومضى القدس، وقد انحفضت بلاد الاسلام بعساكرها مدة بغير القدس » وكان — رحمة الله عليه — عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال ، فشق عليه هذه الرسالة ، وأقمت تلك الليلة في خدمته حتى الصباح ، وهي من الليالي التي أحياها في سبيل الله — رحمه الله — وكان مما قالوه في الرسالة : « انك ان أردتنا فتكون معنا أو بعض أهلك ، حتى نجتمع عنده والا فالاكراد لا يدينون للاتراك ، والاتراك لا يدينون للاكراد » . وانفصل الحال على أن يقيم من أهله مجد الدين بن فروخشاه — صاحب بعلبك — ، وكان — رحمه الله — تحدثه نفسه بالمقام ، ثم منعه رأيه عنه ، لما فيه من خطر الاسلام . فلما قارب الصبح أشفقت عليه وخاطبته

في أن يستريح ساعة لعل العين تأخذ حظها من النوم وانصرفت عنه الى داري ، فما وصلت الا والمؤذن قد أذن ، فأخذت في أسباب الوضوء ، فما فرغت الا والصبح قد طلع ، وكنت أصلي الصبح معه ــ رحمة الله عليه ــ في غالب الاحوال ، وقصدت الى خدمته وهو يجدد الوضوء . فصلينا ، ثم قلت له ــ رحمة الله عليه ــ : « قد وقع لي واقع أعرضه » فأذن فيه ، فقلت : « المولى في اهتمامه وما قد حمل نفسه من هذا الامر مجتهد فيما هو فيه ، وقد عجزت أسبابه الارضية ، فينبغي أن يرجع الى الله تعالى ، وهذا يوم جمعة ، وهو أبرك أيام الاسبوع ، وفيه دعوة مستجابة ــ في صحيح الاحاديث ــ ونحن في أبرك موضع نقدر أن نكون فيه في يومنا هذا ، فالسلطان يغتسل للجمعة ، ويتصدق بشيء خفية ، بحيث لا يشعر أنه منك ، وتصلي بين الاذان والاقامة ركعتين تناجي فيهما ربك ، وتفوض مقاليد أمرك اليه ، وتعترف بعجزك عما تصديت له . فلعل الله يرحمك ، ويستجيب دعاءك » .

وكان ــ رحمة الله عليه ــ حسن العقيدة ، تام الايمان ، يتلقى الامور الشرعية بأكمل انقياد وقبول ، ثم انفصلنا فلما

كان وقت الجمعة صليت الى جانبه في الاقصى ، وصلى ركعتين ، ورأيته ساجدا وهو يذكر كلمات ، ودموعه تتقاطر على مصلاه ـ رحمه الله ـ ثم انقضت الجمعة بخير ، فلما كان عشيتها ونحن في خدمته على العادة وصلت رقعة جورديك ، وكان في اليزك يقول فيها : « ان القوم ركبوا بأسرهم ، ووقفوا في البر على ظهر ، ثم عادوا الى خيامهم وقد سيرنا جواسيس تكشف أخبارهم » ولما كان صبيحة يوم السبت وصلت رقعة أخرى يخبر فيها أن الجواسيس رجعوا وأخبروا أن القوم اختلفوا في الصعود الى القدس ، والرحيل الى بلادهم ، فذهب الفرنسيسية الى الصعود الى القدس ، وقالوا : « نحن انما جئنا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه » وقال الانكتار : « ان هذا الموضع قد أفسدت مياهه ، ولم يبق حوله ماء أصلا فمن أين نشرب ؟ » فقالوا له : « نشرب من ماء نقوع » وبينه وبين القدس مقدار فرسخ . فقال : « كيف نذهب الى السقي ؟ » فقالوا : « ننقسم قسمين : قسم يركب الى السقي مع الدواب ، وقسم يبقى على البلد في المنزلة ، ويكون الشرب في اليوم مرة » . فقال الانكتار : « اذاً يأخذ العسكر البراني الذي

يذهب مع الدواب ويخرج عسكر البلد على الباقين ، ويذهب دين النصرانية » . فانفصل الحال على أنهم حكّموا ثلاثمائة من أعيانهم ، وحكّموا الثلاثمائة اثني عشر منهم ، وحكّم الاثنا عشر ثلاثة منهم ، وقد باتوا على حكم الثلاثة ، فما يأمرونهم به يفعل . فلما أصبحوا حكموا عليهم بالرحيل ، فلم يمكنهم المخالفة ، وأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة راحلين الى نحو الرملة : وعلى أعقابهم ــ ولله الحمد ــ ناكصين ، ووقف عسكرهم شاكا في السلاح الى أن لم يبق في المنزلة الا الآثار ، ثم نزلوا بالرملة وتواتر الخبر بذلك ، فركب السلطان ــ قدس الله روحه ــ وركب الناس ، وكان يوم سرور وفرح ولكن السلطان ــ قدس الله روحه ــ خاف على مصر المحروسة لما حصلوا عليه من الجمال والظهر ، وكان قد ذكر الانكتار مثل هذا الحديث مرارا .

★ ★ ★

وقعة جرت على عكا

وذلك أنه كان ــ رحمة الله عليه ــ قد جعل في مقابلة عكا عسكرا خشية خروج العدو الى تلك النواحي التي تليهم ، فلما كان يوم الاحد الثاني والعشرون من جمادى الآخرة خرج العدو المخذول من عكا غائرين على ما يليها من البلاد والرساتيق[1] فثارت عليهم الكمينات من جوانب، وكان قد شعر العسكر الاسلامي بخروجهم ، فكمن لهم فأخذوا منهم جماعة ، وقتلوا جماعة ، ولله الحمد .



ذكر تبـ..ره

ــ رحمة الله عليه ــ

ولما كان العاشر من رجب بلغ السلطان ــ رحمة الله عليه ــ أن الفرنج ــ خذلهم الله تعالى ــ قد رحلوا طالبين نحو بيروت ، فبرز من القدس الى منزلة يقال لها الجيب ، وكان قدوم الملك العادل من البلاد الفراتية في بكرة الجمعة الحادي عشر من رجب ، فدخل الصخرة ، وصلى عندها ،

(١) الرساتيق : مفردها رستاق ، كلمة فارسية تعني كل موضع فيه مزارع وقرى .

ثم توجه يتبع السلطان . ثم ان السلطان رحل من الجيب الى بيت نوبة ، وبعث الى العسكر في القدس ليحثهم على الخروج واللحوق به ، ولحقت السلطان في بيت نوبة فاني كنت قد تخلفت عنه ليلة الاستعداد ، ثم رحل في الاحد ثالث عشر الى الرملة ، فنزل بها ضاحي نهاره على تلال بين الرملة ولدّ ، وأقام بها بقية الاحد . ولما كان صبيحة الاثنين رابع عشر ركب جريدة حتى أتى يازور وبيت دجن ، وأشرف على يافا ، ثم عاد الى منزلته ، وأقام بها بقية يومه ، وجمع أرباب مشورته وشاورهم في النزول على يافا ، واتفق الرأي على ذلك .



ذكر حصار يافا

ولما كان صباح الثلاثاء خامس عشر رحل طالبا جهة يافا فخيم عليها ضاحي نهاره ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلباً ، وكان على البحر وطرف الميسرة أيضا على البحر والسلطان في الوسط ، وكان صاحب الميمنة ولده الملك الظاهر ، وصاحب الميسرة أخوه الملك العادل ، والعساكر

فيما بينهما . ولما كان سادس عشر من الشهر زحف الناس اليها واستحقروا أمرها استحقارا عظيما ، ثم رتب السلطان ــ رحمة الله عليه ــ الناس للقتال ، وأحضر المنجنيقات ، وركبها على أضعف موضع في السور مما يلي الباب الشرقي، وكان في ذلك اليوم على جذم من حائط قبالة المنجنيقات ، وأطلق النقابين في السور ، وارتفعت الاصوات وعظم الضجيج ، واشتد الزحف ، وأخذ النقابون النقب من شمالي الباب الشرقي الى الزاوية طول البدنة ، وكان قد هدم المسلمون ذلك المكان في الحصار الاول ، وبناه الفرنج ، وتمكن النقابون من النقب ، ودخلوا فيه ، ولم يشك الناس في أخذ البلد في ذلك اليوم ، هذا وأمر العدو في زيادة ، وكان الملك في عكا قد توجه الى نحو بيروت ، وهذا الذي حمل السلطان على نزوله على يافا . ثم انفصل ذلك اليوم عن قتال شديد قد ضرس العدو منه ، وظهر من العدو من الشدة والحماية والذب والمنعة ما أضعف قلوب الناس ، هذا والنقابون قد تمكنوا من النقب ، فلما قارب الفراغ أخذ العدو في خسف النقب عليهم ، فخسفوه في مواضع عدة ، فخاف النقابون ، وخرج منهم جماعة وتفاتر الناس

عن القتال ، وعلموا أن أمر البلد مشكل ، وأنه يحتاج الى زيادة عمل في أخذه . فعزم السلطان ــ قدس الله روحه ــ عزمة مثله . وأمر النقابين أن يأخذوا النقب في بقية البدنة من البرج الى الباب . وأمر المنجنيقات أن تضرب قبالة البدنة المنقوبة . ففعلوا ذلك ، وأقام السلطان تلك الليلة هناك الى أن مضى من الليل مقدار ثلثه . وعاد الى الثقل . وكان الثقل بعيدا عن البلد على تل قبالته ، وأصبحت المنجنيقات وقد أقيم منها اثنان ، وأقيم الثالث في بقية النهار وأصبح السلطان على القتال والزحف . فلم يجد من الناس غير فتور بسبب نصب المنجنيقات ظنا منهم أن المنجنيقات لا تعمل الا بعد أيام . فلما علم السلطان ــ قدس الله روحه ــ من الناس التفاتر والتواكل حملهم على الزحف ، والتحم القتال . واشتد الا[illegible] ، وأذاقوا العدو مر الأمر ، وأشرف البلد على الأخذ ، وأيقنت النفوس به وطمعت في ذلك [illegible]عا شديدا . وضعف العدو الا أنه جرح من المسلمين جماعة بالنشاب والزنبورك من البلد ، فمنهم الحاجب أبو بكر وختلخ ــ والي بعلبك ــ . وأصيب بعينه . وطغرل التاجي . وسراسنقر في وجهه . وهما من مقربي المماليك ،

واياز جركس في يده ، وهو من كبارهم ولما رأى العدو المخذول ما قد حل بهم أرسلوا رسولين نصرانيا وفرنجيا يطلبان الصلح ، ويتحدثان فيه ، فطلب السلطان منهم قاعدة القدس وقطيعته ، فأجابوا الى ذلك ، واشترطوا أن ينظروا الى يوم السبت الذي هو تاسع عشر رجب ، فان جاءتهم نجدة والا تمت القاعدة على مـــا استقر ، فأبى السلطان الانتظار ، فعاد الرسول ، ثم رجعوا يسألونه في الانظار ، فأبى ذلك ، وتفاتر الناس عن القتال بسبب تواصل الرسل • سكونا الى الدعة على جاري العادة ، فأمر السلطان النقابين بحشو النقوب بعد انتهابها ، ففُعل ذلك ، ووُضعت النار فيه ، فوقع بعض البدنة ، وكان العدو قد عرف وقوع النار في النقب ، وعلم أن ذلك المكان يقع ، فعمد الى أخشاب عظيمة ، وهيأها خلف ذلك المكان ، فلما وقع ذلك المكان ألهب النيران ، فمنعت من الدخول في الثلمة ، فأمر السلطان الناس فزحفوا وضايقوا مضايقة عظيمة ، ولله درهم من رجال قتال ، ما أشدهم وأعظم بأسهم ، فانهم مع هذا كله لم يغلقوا لها بابا ، وما زالوا يقاتلون خارج الأبواب ، ولم يزل الناس في أعظم قتال الى أن فصل الليل بين الطائفتين ،

ولم يقدر على البلد في ذلــك بعد حرق النقوب في باقي البدنة ، وضاق صدر السلطان لهذا الأمر ، وتقسم فكره ، وندم كيف لم يجبهم الى الصلح ، وبات تلك الليلة في المخيم، وقد عزم على أن يقيم تمام خمسة مناجيق ، يضرب بهــا البدنة الضعيفة بسبب النقوب والنيران والخسف من جانبهم.



ذكر فتح يافا وهي اول الفتح الثاني

وما جرى عليها من الوقائع

ولما كان يوم الجمعة ثامن عشر رجب سنة ثمان وثمانين أصبحت المنجنيقات وقد نصبت ، وحجارتها قد جمعت من الأوادي والأماكن البعيدة لعدم الحجر في ذلك المكان ، وظلت ترمي البدنة المنقوبة ، وزحف السلطان ــ قدس الله روحه ــ ، وزحف ولده الملك الظاهر زحفا شديدا ، وزحف عسكر الملك العادل من الميسرة ، فانه كان مريضا ، وارتفعت الأصوات ، وضربت الكوسات ، وخفقت البوقات ورمت المنجنيقات ، وأجابهم الويل من كل جانب ، واشتد عزم النقابين في ايقاد النار ، فما ارتفع من النهار ساعتان الا

ووقعت البدنة . وكان وقعها كوقع الواقعة ، ونادى الناس : « ألا وان البدنة قد وقعت . فلم يبق من له أدنى ايمان الا وزحف . ولا قلب من العدو الا رعد ورجف » . هذا وهم على القتل أشد وأحزم ، وعلى الموت أعز وأكرم . وذلك أن البدنة لما وقعت علا غبار مع دخان وأظلم الأفق . وعميت عين النهار ، وما تجاسر أحد على الولوج خوفا من اقتحام النار فلما انكشفت الظلمة ظهرت أسنة قد نابت مناب الأسوار ورماح قد سدت الثلمة حتى عن نفوذ الأبصار ، ورأى الناس هولا عظيما من صبر القوم وثباتهم ، وسداد حركاتهم وسكناتهم ، ولقد رأيت رجلين على ممشى السور يمنعان المتسلق فيه من جهة الثلمة ، وقد أتى أحدهما حجر المنجنيق فأخذه ونزل الى داخل ، وقام رفيقه مقامه متصديا لمثل ما لحقه أسرع من لمح البصر ، بحيث لم يفرق بينهما الا ناقد بصير . ولما رأى العدو ما قد آل الأمر اليه سيّر رسولين الى السلطان — قدس الله روحه — يلتمسان الأمان ، فقال — رحمه الله — : « الفارس بفارس ، والتركبلي بمثله ، والراجل بالراجل ، والعاجز فعلى قطيعة القدس » . فنظر الرسول ، ورأى القتال على الثلمة أشد

من اضرام النار ، فسأل السلطان أن يبطل القتال الى أن يعود . فقال : « ما أقدر على منع المسلمين من هذا الأمر . لكن ادخل الى أصحابك فقل لهم ينحازون الى القلعة ويتركون الناس يشتغلون بالبلد . فما بقي دونه مانع » . فعاد الرسول بهذه الرسالة ، فانحاز عدو الله الى قلعة يافا ، بعد أن قتل منهم جماعة عظيمة[1] ، ودخل الناس البلد عنوة ، ونهبوا منه أقمشة عظيمة وغلالا كثيرة ، وأثاثا وبقايا قماش مما نهب من القافلة المصرية . واستقرت القاعدة على الوجه الذي قرره السلطان . ولما كان عصر يوم الجمعة المبارك وصل السلطان ــ رحمة الله عليه ــ كتاب من قايماز النجمي ، وكان في طريق الغور لحمايته من عسكر العدو الذي في عكا ، يخبر فيه : أن الانكتار لما سمع خبر يافا أعرض عن قصد بيروت ، وعاد الى قصد يافا ، فاشتد عزم السلطان على تتمة الأمر وتسلم القلعة ، وكنت ممن لم يرَ الأمان ، لأنه قد لاح أخذهم ، وكان الناس لهم مدة لم يظفروا من العدو بمغنم بوثبهم عليه ، فكان أخذهم عنوة مما يبعث همم العسكر ، غير أن الأمان وقع واتفق الصلح ،

(١) في الاصل : غلطا ، وقد اعتمدنا العبارة الواردة في نسخة القاهرة.

فكنت بعد ذلك ممن يحث على اخراج العدو من القلعة وتسلمها خوفا من لحوق النجدة ، وكان السلطان ــ قدس الله روحه ــ يشتد حرصه ؛ غير أن الناس قد أقعدهم التعب عن امتثال الأمر ، وأخذ منهم الحديد وشدة الحر ودخان النار ، بحيث لم يبق لهم استطاعة على الحركة ، وأقام السلطان يحثهم الى هدي من الليل . فلما رأى ما قد نزل بالناس من التعب ركب وسار الى خيمته الى الثقل ، وسرنا في خدمته ، وعدتُ الى خيمتي وعندي من القلق ما أقلقني عن النوم . ولما كان سحرة تلك الليلة سمعنا بوق الفرنج وقد نعق فعلمنا بوصول النجدة ؛ فاستدعاني السلطان ــ رحمة الله عليه ــ من وقته وقال : « لا شك أن النجدة قد وصلت في البحر ، وعلى الساحل من عساكر الإسلام من يمنعهم النزول ، والمصلحة أن تسير الى الملك الظاهر وتقول له : يقف ظاهر الباب القبلي ، وتدخل أنت ومن تراه الى القلعة ، وتخرجوا القوم ، وتستولوا على ما فيها من الأموال والأسلحة ، وتكتبها بخطك الى الملك الظاهر وهو خارج البلد ، وهو يسيرها الى [illegible] » . وسيَّر معي لتقوية اليد على ذلك عز الدين جورديك ، وعلم الدين قيصر ،

ودرباس المهراني ، فسرتُ من ساعتي ومعي شمس الدين عدل الخزانة ، حتى أتيت منزلة ولده الملك الظاهر ، وهو نائم في شقته على تل قريب البحر في اليزك،وعليه كَراغُنْدة وهو بلأمة حربه ، فلا ضيع الله لهم صنيعهم في نصرة الإسلام ، فأيقظته ، وقام والنوم في عينيه ، وسرتُ في خدمته وهو يستفهم مني رسالة السلطان ـ رحمه الله ـ حتى وقف حيث أمر ، ودخلنا نحن الى يافا وأتينا القلعة وأمرنا الفرنج بالخروج منها ، فأجابوا الى ذلك . وتهيأوا للخروج .



ذكر كيفية بقاء القلعة في يد العدو

وكان ... في بكرة السبت تاسع عشر رجب سنة ثمان وثمانين ، ولما أجابوا الى الخروج قال عز الدين جرديك : « لا ينبغي أن يخرج منهم أحد حتى يخرج الناس من البلد خشية أن يتخطفوهم » . وكان الناس قد أدخلهم الطمع في البلد . وأخذ عز الدين يشتد في ضرب الناس واخراجهم، وهم غير مضبوطين بعدة ، ولا محصورين في مكان ، فكيف

يمكن اخراجهم ! وطال الأمر الى أن علا النهار وأنا ألومه وهو لايرجع عن ذلك ، والزمان يمضي ، فلما رأيت الوقت يفوت قلت له : « ان النجدة قد وصلت والمصلحة المسارعة في اخراجهم ، والسلطان فقد أوصاني بذلك » . فلما عرف السبب في حرصي أجاب الى اخراجهم ، ومضينا الى باب القلعة القريب من الباب الذي ولده الملك الظاهر قائم عنده ، فأخرجنا سبعة وأربعين نفرا بخيولهم ، وكتبناهم ، وسيرناهم، ولما خرج هذا النفر اشتد نفس الباقين، وحدثتهم أنفسهم بالعصيان ، وكان سبب خروج هؤلاء أنهم استقلوا بالمراكب التي جاءتهم ، وظنوا ألا نجدة لهم فيها ، ولم يعلموا أن الانكتار مع القوم ، ورأوهم وقد تأخروا عن النزول الى علو النهار فخافوا أن يمتنعوا فيؤخذوا ويقتلوا ، فخرج من خرج ، ثم بعد ذلك قويت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركبا ، فقويت نفوس الباقين في الحصن ، فظهرت منهم امارات العصيان ودلائله ، وخرج منهم من أخبرني بتشويش عزمهم وأخـذوا الطارقيات[1] والجنويات[2] ،

---

(١) الطارقيات : نوع من التراس جمع ترس .

(٢) الجنويات : مفردها جنوية ، وهي نوع من الاسلحة يتخذ لاعاقة مسير خيل العدو ورجاله حيث تثبت في الارض .

وعلوا على الأسوار وكانت القلعة جديدة لم تشرّف بعد ، فلما رأيت الأمر قد آل الى ذلك نزلتُ من التل الذي كنت واقفا عليه وهو ملاصق لباب القلعةُ ، وقلت لعز الدين وهو واقف مع عسكره في أسفل التل مع جمع من الأجناد : « خذوا حذركم ، فقد تغيرت عزائم القوم » . فما كانت الا ساعة بحيث صرت خارج البلد في خدمة ولده الملك الظاهر وقد ركب القوم خيولهم ، وحملوا من القلعة حملة الرجل الواحد ، وأخرجوا من كان في البلد من الأجناد ، ولقد ازدحم الناس في الباب حتى كاد أن يتلف منهم جماعة ، وبقي منهم جماعة في بعض الكنائس من رعاع العسكر ، مشتغلين بما لا يجوز ، فهجموا عليهم وقتلوا منهم ، وأسروا . وسيّرني السلطان الملك الظاهر الى والده السلطان ــ قدس الله روحه ــ فعرفته بالحال فأمر الجاووش ونادى في العسكر وضرب الكوس للقتال ونفر الناس من كل جانب للغزاة ، وهجموا البلد ، وحسروا العدو في القلعة وأيقن بالبوار ، واستبطأوا نزول النجدة اليهم ، وخافوا خوفا عظيما ، فأرسلوا بطركهم والقسطلان[1] ، وكان خلقة هائلة ،

(١) القسطلان : رجل من أصحاب الرتب عند الافرنج .

رسولين الى السلطان ــ رحمة الله عليه ــ يعتذران اليه مما جرى ، ويسألان القاعدة الأولى ، فخرج الرسل الى السلطان ــرحمة الله عليهــ والقتال يشتد عليهم . وكان سبب امتناع نزول النجدة أنهم رأوا البلد مشحونا ببيارق المسلمين ورجالهم ، فخافوا أن تكون القلعة قد أخذت ، وكان البحر يسنع من سماع الصوت من كل جانب ، وكثرة الضجيج والتهليل والتكبير ، فلما رأى من في القلعة شدة الزحف عليهم ، وامتناع النجدة من النزول مع كثرتها ، فانها بلغت نيفا وخمسين مركبا . منها خمسة عشر شانيا منها شاني الملك . علموا أن النجدة قد ظنوا أن البلد قد أخذ ، فوهب رجل منهم نفسه للمسيح وقفز من القلعة الى الميناء وكان رملا فلم يصبه شيء ، واشتد عدوا حتى أتى البحر . فخرج له شاني فأخذه الى شاني الملك فحدثه الحديث ، فلما تيقن الانكتار ذلك أن القلعة بعد مع أصحابه اندفع يطلب الساحل ، فكان أول شاني ألقى من فيه في البر شانيه ، وكان أحمر وقبته حمراء ، وبيرقه أحمر ، وكان رنكه[1] ، فما كان الا ساعة وقد نزل كل من في الشواني الى الميناء ، هذا

---

[1] الرنك : كلمة فارسية معناها السعار ، يريد أن البيرق الاحمر كان شعاره .

كله وأنا أشاهد ذلك ، ثم حملوا على المسلمين فاندرجوا بين أيديهم وأخرجوهم من الميناء ، وكـان تحتي فرس ، فسقت حتى أتيت السلطان . وأخبرته بالخبر ، وبين يديه الرسولان ، وقد أخذ القلم بيده حتى يكتب لهما الأمان ، فعرفته في أذنه مـا جرى ، فامتنع مـن الكتابة وأشغلهم بالحديث،فما كان الا ساعة حتى فر المسلمون نحو السلطان، فصاح في الناس ، فركبوا ، وقبض على الرسل ، وأمر بتأخر الثقل والأسواق الى يازور ، فرحل الناس ، وتخلف لهم ثقل عظيم مما كان قد نهبوا من يافا ، لم يقدروا على نقله ووصل الثقل وبقي السلطان جريدة في الليل ، وبات من ليلته هناك وخرج الانكتار الى موضع السلطان الذي كان فيه لمضايقة البلد . وأمر من في القلعة أن يخرجوا اليه ، فعظم سواده ، واجتمع به جماعة من المماليك وجرى بينهم أحاديث ومجانة كثيرة .



ذكر قدوم عسكر مصر المحروسة

وأقام السلطان ــ قدس الله روحه ــ بالنطرون . ولما كان يوم الخميس تاسع شعبان قدم عسكر مصر فخرج السلطان ــ رحمة الله عليه ــ الى لقائهم ، وكان فيهم مجد الدين هِلْدِري ، وسيف الدين يازكج ، وجماعة الأسدية . وكان في خدمته ولده الملك المؤيد مسعود ، وأظهر الزينة ونشروا الأعلام والبيارق ، فكان يوما مشهودا ثم أنزلهم عنده ومد الخوان ، ثم ساروا الى منازلهم .



ذكر قدوم الملك المنصور بن تقي الدين

رحمه الله

وكان قد تسلّم البلاد التي وُعد بها ، وتجهز . وكان وصل الى خدمة الملك العادل يوم السبت حادي عشر شعبان فنزل عنده بمار صمويل ، وافتقده ، وكتب الملك العادل الى السلطان ــ قدس الله روحه ــ يخبره بوصوله ، وسأله

في احترامه واكرامه واطلاق الوجه له . ولما تحقق ولده الملك الظاهر وصول الملك المنصور استأذن والده في لقائه وافتقاد الملك العادل ، فأذن له في ذلك ، فسار فوجد الملك المنصور مخيما ببيت نوبة ، فنزل عنده وفرح بلقائه ، وأقام عنده الى العصر ، وذلك في يوم الأحد ، ثم أخذه وسار به جريدة حتى أتى خيمة السلطان ، ونحن في خدمته ، فدخل عليه واحترمه ، ونهض واعتنقه وضمه الى صدره ، ثم غشيه البكاء ، فصبَّر نفسه حتى غلبه الأمر وغشيه من البكاء مالم يُرَ مثله ، فبكى الناس لبكائه ساعة زمانية ، ثم باسطه وسأله عن الطريق ، ثم انفصل وبات في خيمته ولده الملك الظاهر ــ رحمه الله ــ الى صبيحة الاثنين ، ثم ركب وعاد الى عسكره ، ونشروا الأعلام والبيارق ، وكان معه عسكر جميل ، فقرت عين السلطان ، وذلك في صبيحة الاثنين ثالث عشر شعبان ، ونزل في مقدمة العسكر مما يلي الرملة .



ذكر قدوم رسل من جهات متعددة

وفي ذلك اليوم الحادي والعشرين من شعبان وصل رسول سيف الدين بكتمر ـ صاحب خلاط ـ يبدي الطاعة والموافقة وتسيير العسكر ، وحضر رسول الكُرج ، وذكر فصلا في معنى الديارات التي لهم في القدس وعماراتها ، وشكوا مـن أنها أخذت مـن أيديهم ، ويسأل عواطف السلطان ـ رحمة الله عليه ـ بردها الى أيدي نوابهم ، ورسول صاحب أرْزن الروم يبذل الطاعة والعبودية .



ذكر رحيله

ـ رحمة الله عليه ـ

ولما أعطى الناس دستورا ، وعلم عَوْد العدو مدحورا الى ورائه رأى الدخول الى بيت المقدس الشريف لتهيئة أسباب عمارته ، والنظر في مصالحه ، والتأهب للمسير الى الحج ، فرحل من النطرون في يوم الأحد رابع شهر رمضان ، وسار حتى أتى مار صمويل يفتقد الملك العادل بها ، فوجده قـد سار الى القدس ، وكنتُ عنده رسولا مـن جانب

السلطان ، أنا والأمير بدر الدين دلدرم والعادل ، وكان قد انقطع عن أخيه مدةً بسبب المرض ، وكان قد تماثل فعرفناه مجيء السلطان الى مار صمويل لعيادته ، فحمل على نفسه ، وسار معنا حتى لقيه بذلك المكان ، وهو أول وصوله ، ولم ينزل بعد ، فلقيه ونزل وقبّل الأرض ، وعاد فركب ، فاستدناه ، وسأله عن مزاجه ، وسارا جميعا حتى أتيا القدس الشريف في بقية ذلك اليوم •



ذكر توجه ولده الملك الظاهر إلى بلاده

ووصية السلطان له

ولما كان بكرة يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك توجّه ولده الملك الظاهر بعد أن ودّعه ، ونزل الى الصخرة فصلى عندها ، وسأل الله تعالى ما شاء • ثم ركب — وكنتُ في خدمته — فقال لي : « قد تذكرت ما احتاج فيه الى مراجعة السلطان مشافهة » • فأنفذ من استأذن له في العوْد الى خدمته ، فأذن له في ذلك فحضر واستحضرْني وأخلى المكان ثم قال : « أوصيك بتقوى الله

تعالى ، فانها رأس كل خير . وآمرك بما أمرك الله به ، فانه سبب نجاتك . وأحذرك من الدماء ، والدخول فيها والتقلد لها ، فان الدم لا ينام ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم ، فأنت أميني وأمين الله عليهم ، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر ، فما بلغت ما بلغت الا بمداراة الناس . ولا تحقد على أحدٍ ، فان الموت لا يبقي أحدا ، واحذر ما بينك وبين الناس فانه لا يُغفر الا برضاهم، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك اليه فانه كريم » .

وكان ذلك بعد أن أفطرنا في خدمته ، ومضى من الليل ماشاء الله أن يمضي ، وأكثر من ذلك ، ولكن هذا ما أمكن حكايته وضبطه ، ولم يزل بين يديه الى قريب السحر ، ثم أذن له في الانصراف ، ونهض له وودّعه ، وقبل وجهه ومسح يده على رأسه ، وانصرف في دعة الله ، ونام في برج الخشب الذي للسلطان يجلس عنده في الأحيان الى بكرة ، وسرتُ في خدمته الى بعض الطريق وودعته ، وسار في حفظ الله ان شاء الله .



ذكر مسير الملك الأفضل

رحمه الله

ثم سيَّر الملك الأفضل ثقله ، وأقام يراجع السلطان على لساني في أشغالٍ كانت له ، حتى دخل في شوال أربعة أيام وسار في ليلة الخامس منه نصف الليل عن تعتب عليه جريدة على طريق الغوْر .



ذكر مسيره ـ قدّس الله روحه ـ

من القدس

وأقام السلطان ـ قدّس الله روحه ـ يُقطع الناس ، ويعطيهم دستورا ، ويتأهب للمسير الى الديار المصرية ، وانقطع شوقه الى الحج ، وكان من أكبر المصالح التي فاتته ، ولم يزل كذلك حتى صحّ عنده اقلاعُ مركب الانكتار المخذول ، متوجها الى بلاده مستهل شوال ، فعند ذلك حرّر السلطان عزمه على أن يدخل الساحل جريدةً ،

ويتفقد القــلاع البحرية الى بانياس ، ويدخــل محروسة دمشق،ويقيم بها أياما قلائل،ويعود الى القدس الشريف،سائرا الى الديار المصرية،لتفقد أحوالها،وتقرير قواعدها،والنظر في مصالحها ، وأمرني بالمقام بالقدس الشريف الى حين عَوْده لعمارة بامارستان أنشأه فيه ، وإدارة المدرسة التي أنشأها فيه ــ رحمة الله عليه ــ الى حين عوده ، وسار من القدس ضاحي نهار الخميس سادس شوال سنة ثمان وثمانين ، وودعته الى البيْرة ، ونزل بها ، وأكل فيها الطعام ، ثم رحل حتى أتى بعض طريق نابلس ، فبات ، ثم أتى نابلس ضاحي نهار الجمعة سابع شوال فلقيه خلق عظيم يستغيثون، على المشطوب ، ويتضورون اليه سوء رعايته لهم ، فأقام ــ رحمه الله ــ يكشف عن أحوالهم الى عصر يوم السبت ثامنه ، ثم رحل ونزل بسِفِسْطية يتفقد أحوالها ، ثم أتى في طريقه الى كوكب ، ونظر في أحوالها ، وأمر بسدّ خللها ، وذلك في يوم الاثنين عاشره .



ذكر خروج بهاء الدين قراقوش

من الأسر

وكان انفكاكه من ربقة الأسر يوم الثلاثاء حادي عشر شوال ومَثَلَ بالخدمة الشريفة السلطانية ، ففرح به فرحا شديدا ، وكان له حقوق كثيرة على السلطان والإسلام ، واستأذن السلطان ـ رحمة الله عليه ـ في المسير الى دمشق لتحصيل القطيعة[1] ، فأذن له في ذلك ، وكانت القطيعة ـ على ما بلغني ـ ثمانين ألفا .



ذكر عود السلطان ـ قدّس الله روحه ـ

إلى محروسة دمشق

وكان عوده اليها بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها والتقدم بسد خللها واصلاح أمور أجنادها، واشحانها بالرجال والأجناد ، فدخل الى دمشق بكرة الأربعاء سادس عشري شوال ، وفيها أولاده : الملك الأفضل والملك الظاهر ، والملك الظافر ، وأولاده الصغار ، وكان يحب

(١) اي ما يقطعه السلطان لاعوانه .

البلد ، ويؤثر الإقامة فيه على سائر البلاد ، وجلس للناس في بكرة الخميس سابع عشرين منه ، وحضر الناس عنده ، وبلوا شوقهم من رؤيته ـ رحمة الله عليه ـ وأنشده الشعراء ، وعمّ ذلك المجلس الخاص والعام ، وأقام ينشر جناح عدله ، ويهطل سحاب انعامه وفضله ، ويكشف مظالم الرعايا في الأوقات المعتادة ، حتى كان يوم الاثنين مستهل ذي القعدة اتخذ الملك الأفضل دعوة للملك الظاهر ، فانه لما وصل الى دمشق بلغه حركة السلطان اليها ، فأقام بها حتى يتملى بالنظر اليه ثانيا ، وكأن نفسه الشريفة كانت أحست بدنو أجل السلطان ، فودّعه في تلك الدفعة مرارا متعددة ، وهو يعود اليه ولما اتخذ الملك الأفضل له دعوةً أظهر فيها من بديع التجميل وغريبه ما يليق بهمته ، وكأنه أراد مجازاته عما خدمه به حين وصوله الى حلب المحروسة ، وحضرها أرباب الدنيا والآخرة ، وسأل السلطان ـ قدّس الله روحه ـ الحضور ، فحضر جبرا لقلبه ، وكان يوما مشهودا ، على ما بلغني .



ذكر قدوم الملك العادل اخيه

ولما تصفّح الملك العادل أحوال الكرك ، وأمر باصلاح ما قصد اصلاحه فيه ، عاد طالبا البلاد الفراتية ، فوصل أرض دمشق يوم الأربعاء سابع عشر ذي القعدة ، وكان السلطان قد خرج الى لقائه ، وأقام يتصيّد حول غباغب الى الكسوة ، حتى لقيه ، وساروا جميعا يتصيدان ، وكان دخولهما الى دمشق آخر نهار الأحد حادي عشري ذي القعدة سنة ثمان ، وأقام السلطان ــ رحمة الله عليه ــ بدمشق يتصيّد هو وأخوه ــ وأولاده يتفرجون في أراضي دمشق ومواطن الصبا ، وكأنه وجد راحة مما كان فيه من ملازمة التعب والنصب ، وسهر الليل ونصب النهار ، وما كان ذلك الا كالوداع لأولاده ومراتع تنزهه ، وهو لا يشعر ــ رحمة الله عليه ــ ونسي عزمه لمصر ، وعرض له أمور أخرى ، وعزمات غير ذلك . ووصلني كتابه ــ قدّس الله روحه ــ الى القدس يستدعيني الى خدمته ، وكان شتاء شديدا ، ووحلا عظيما ، فخرجت من القدس الشريف ــ حرسه الله تعالى ــ في يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة تسع وثمانين ، وكان الوصول الى محروسة

دمشق يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر سنة تسع ، وكان وصل أوائل الحاج على طريق دمشق ، وكان دخول السلطان اليها عصر الاثنين حادي عشر ، فلم يتفق المثول في خدمة السلطان الى ضاحي نهار يوم الوصول فانه اتفق حضوري ، وكان الملك الأفضل حاضرا في الإيوان الشمالي ، وفي خدمته خلقٌ من الأمراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان لخدمته ، فلما شعر بحضوري استحضرني وهو وحده ، قبل أن يدخل اليه أحد ، فدخلت عليه ـ رحمة الله عليه ـ فقام ولقيني ملقىً ما رأيتُ أشدَّ مِنْ بشره فيه ـ رحمه الله ـ ولقد ضمني اليه ، ودمعت عينه ، رحمة الله عليه .



ذكر لقائه للحاج

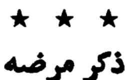
رحمة الله عليه

ولما كان يوم الاربعاء ثالث عشر صفر طلبني ، فحضرت عنده ، فسألني عمن في الايوان فأخبرته أن الملك الافضل جالس في الخدمة ، والامراء والناس في خدمته فاعتذر اليهم على لسان جمال الدولة اقبال . ولما كانت بكرة الخميس

استحضرني بكرة ، فحضرت عنده . وهو في صفّة البستان، وعنده أولاده الصغار . فسأل عن الحاضرين فقيل : « رسل الفرنج ، وجماعة الامراء والاكابر » . فاستحضر رسل الفرنج الى ذلك المكان ، فحضروا ، وكان له ولد صغير ، وكان كثير الميل اليه ، يسمى الامير أبا بكر ، وكان حاضرا وهو ــ رحمه الله ــ يداعبه فلما وقع بصره على الفرنج ورأى أشكالهم ، وحلق ذقونهم ، وقص شعورهم ، وما عليهم من الثياب غير المألوفة خاف منهم وبكى ، فاعتذر اليهم وصرفهم بعد أن حضروا ، ولم يسمع كلامهم ، وقال لي : « أكلت اليوم شيئا ؟ » وكانت عادته ــ رحمة الله عليه ــ هذه المباسطة . ثم قال : « أحضروا لنا ما تيسر » . فأحضروا أرزا بلبن وما يشبه ذلك من الاطعمة الخفيفة ، فأكل ــ رحمة الله عليه ــ وكنت أظن أن ما عنده شهوة وكان في هذه الايام يعتذر للناس لثقل الحركة عليه ، وكأن بدنه كان ممتلئا وعنده تكسل فلما فرغنا من الطعام قال : « ما الذي عندك من خبر الحاج ؟ » فقلت : « قد اجتمعت بجماعة منهم في الطريق ، ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليوم ، ولكنهم في غد يدخلون » . فقال : « نخرج ان شاء الله

الى لقائهم » . وتقدم بتنظيف طرقاتهم من المياه ، فانها كانت
سنة كثيرة الانداء ، وقد سالت المياه في الطرق كالانهار .
وانفصلت عن خدمته ولم أجد عنده من النشاط ما أعرفه
منه . ثم بكر في يوم الجمعة فركب وتأخرت عنه تأخرا
قريبا ، ثم لحقته وقد لقي الحاج ، وكان فيهم سابق الدين،
وقرالا الياروقي ، وكان كثير الاحترام للمشايخ ـ قدس
الله روحه ـ فلقيهم ، ثم لحقه الملك الافضل ولده ، ولقي
الجماعة ، وأخذني الملك الافضل يحدثني ، فنظرت الى
السلطان ـ رحمة الله عليه ـ فلم أجد عليه كزاغنده ،
وما كان له عادة يركب بدونه . وكان يوما عظيما قد
اجتمع فيه للقاء الحاج ، والتفرج على السلطان ، معظم من
في البلد ، فلم أجد الصبر دون أن سرت الى جانبه وحدثته
في اهمال هذا ، فكأنه استيقظ ، فطلب الكزاغند ، فلم
يوجد الزركش ، فوجدت لذلك أمرا عظيما وقلت في
نفسي : « سلطان يطلب ما لا بد منه في عادته ولا يجده » .
وأوقع الله في قلبي تطيرا بذلك ، فقلت له ـ رحمه الله ـ
« ما تم طريق يسلك ليس فيه خَلْق كثير ؟ » فقال :
« بلى » . ثم سار ـ رحمه الله ـ بين البساتين يطلب جهة
المنيبع ، وسرنا في خدمته ، وقلبي يرعد لما قد أوقع فيه من

الخوف عليه ، فسار حتى أتى القلعة ، فعبر على الجسر الى القلعة وهو طريقه المعتاد ، وكانت آخر ركباته ، رحمة الله عليه ، وقدس روحه .



ذكر مرضه

ـ رحمة الله عليه ـ

ولما كانت ليلة السبت وجد كسلا عظيما ، فما نصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية ، كانت في باطنه أكثر منها في ظاهره . وأصبح في يوم السبت سادس عشر صفر سنة تسع وثمانين متكسلا ، عليه أثر الحمى ، ولم يظهر ذلك للناس لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل ، ودخل ولده الملك الافضل ، وطال جلوسنا عنده ، وأخذ يشكو من قلقه بالليل وطاب له الحديث الى قريب الظهر . ثم انصرفنا والقلوب عنده ، فتقدم الينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الملك الافضل ، ولم يكن للقاضي عادة بذلك ، فانصرف . ودخلت الى الايوان القبلي ، وقد مُدَّ الطعام وولده الملك الافضل قد جلس في موضعه ، فانصرفت ولم يكن لي قوة للجلوس ، استيحاشا . وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلا بجلوس ولده موضعه ، ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ ،

ونحن نلازم التردد في طرفي النهار ، وندخل اليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مرارا ، ويعطي الطريق في بعض الايام التي يجد فيها خفة . وكان مرضه في رأسه ــ رحمة الله عليه ــ وكان من أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد ألف مزاجه سفرا وحضرا ، ورأى الاطباء فَصْدَه ففصدوه في الرابع فاشتد مرضه ، وقلت رطوبات بدنه ، وكان يغلبه اليبس غلبة عظيمة ، ولم يزل المرض في تزايد حتى انتهى الى غاية الضعف ، ولقد أجلسناه في السادس من مرضه وأسندنا ظهره الى مخدة ، وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شرب مليِّن للطبع ، فشربه فوجده شديد الحرارة ، فشكا من شدة حره ، فغير وعرض عليه ثانيا ، فشكا من برده ، ولم يغضب ولم يصخب ــ رحمة الله عليه ــ ولم يقل سوى هذه الكلمات : « سبحان الله ، لا يمكن أحد تعديل الماء » . فخرجنا أنا والقاضي الفاضل يقول لي : « أبصر هذه الاخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها ، والله لو أن هذا بعض الناس كان قد ضرب بالقدح رأس من أحضره » . واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن ، ولم يزل متزايدا وتغيّب ذهنه ــ رحمة الله عليه ــ . ولما كان التاسع حدثت به رعشة ، وامتنع من تناول المشروب ، واشتد الرجف في

البلد ، وخاف الناس ، ونقلوا الاقمشة من الاسواق ، وغشي الناس من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته . ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد في كل ليلة الى أن يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه ، ثم نحضر في باب الدار فان وجدنا طريقا دخلنا وشاهدناه وانصرفنا والا تعرفنا أحواله وانصرفنا . وكنا نجد الناس يرتقبون خروجنا الى بيوتنا حتى تقرأ أحواله من صفحات وجوهنا . ولما كان العاشر من مرضه حقن دفعتين ، وحصل من الحقنة راحة ، وحصل بعض الخف ، وتناول من ماء الشعير مقدارا صالحا، وفرح الناس فرحا شديدا ، فأقمنا على العادة الى أن مضى من الليل هزيع ، ثم أتينا باب الدار فوجدنا جمال الدولة اقبالا ، فالتمسنا منه تعريف الحال المتجددة ، فدخل ثم أنفذ الينا مع الملك المعظم تورانشاه ــ جبره الله تعالى ــ يقول : « ان العرق قد أخذ في ساقيه » . فشكرنا الله تعالى على ذلك ، والتمسنا منه أن يمس بقية بدنه ، ويخبرنا بحاله في العرق ، فافتقده ثم خرج الينا ، وذكر أن العرق سابغ ، فشكرنا الله تعالى على ذلك ، وانصرفنا طيبة قلوبنا . ثم أصبحنا في الحادي عشر من مرضه وهو يوم الثلاثاء السادس

والعشرين من صفر حضرنا بالباب ، وسألنا عن الاحوال ، فأخبرنا أن العرق أفرط حتى نفذ في الفرش ، ثم في الحصر، وتأثرت به الارض ، وأن اليبس قد تزايد تزايدا عظيما ، وخارت القوة واستشعر الاطباء .

★ ★ ★

ذكر تحليف الملك الأفضل الناس

ولما رأى الملك الافضل ما حل بوالده ، وتحقق اليأس منه ، شرع في تحليف الناس ، وجلس ، في دار رضوان المعروفة بسكنه ، واستحضر القضاة ، وعمل له نسخة يمين مختصرة محصلة للمقاصد ، تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته ، وله بعد وفاته ، واعتذر للناس بأن المرض قد اشتد ، وما نعلم ما يكون . وما نفعل هذا الا احتياطا على جاري عادة الملوك . فأول من استحضر للحلف سعد الدين مسعود أخو بدر الدين مودود ــ الشحنة ــ فبادر الى اليمين من غير تشرط . ثم استحضر ناصر الدين ــ صاحب صهيون ــ فحلف ، وزاد أن الحصن الذي في يده له . وحضر سابق الدين ــ صاحب شيزر ــ فحلف ، ولم يذكر الطلاق ، واعتذر بأنه ما حلف به . ثم حضر خشترين

الهكاري ، وحلف . وحضر نوشروان الزرزاري وحلف ، واشترط أن يكون له خبز يرضيه . علكان ومنكلان وحلفا . ثم مد الخوان ، وحضر الجماعة وأكلوا . ولما كان العصر أعيد مجلس التحليف ، وأحضر ميمون القصري وشمس الدين سنقر الكبير وقالا : « نحن نحلف بشرط أن لا نسل في وجه أحد من إخوتك سيفا ، لكن رأسي دون بلادك » . ـ هذا قول ميمون ـ ...



ذكر وفاته ـ رحمة الله عليه ـ

وقدّس الله روحه واحسن خلفه للمسلمين

ولما كانت ليلة الاربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وهي الليلة الثانية عشرة من مرضه ـ رحمة الله عليه ـ اشتد مرضه ، وضعفت قوته ، ووقع في أوائل الامر من أول الليل ، وحال بيننا وبينه النساء ، واستحضرت أنا والقاضي الفاضل في تلك الليلة وابن الزكي ، ولم يكن عادته الحضور في ذلك الوقت ، وعرض علينا الملك الافضل أن نبيت عنده ، فلم ير القاضي

الفاضل ذلك رأيا ، فان الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة ، فخاف أن لا ننزل فيقع الصوت في البلد، وربما نهب الناس بعضهم بعضا ، فرأى المصلحة في نزولنا ، واستحضار الشيخ أبي جعفر امام الكلاسة ، وهو رجل صالح يبيت في القلعة ، حتى ان احتضر ــ رحمة الله عليه ــ بالليل حضر عنده ، وحال بينه وبين النساء ، وذكره بالشهادة وذكر الله تعالى ، ففعل ، ونزلنا وكل منا يود فداءه بنفسه ، وبات في تلك الليلة ــ رحمة الله عليه ــ على حال المنتقلين الى الله تعالى ، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ، ويذكره بالله تعالى ، وكان ذهنه غائبا من ليلة التاسع ، لا يكاد يفيق الا في الاحيان ، وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى الى قوله تعالى : « هو الله الذي لا اله الا هو عالمُ الغيب والشهادة » ، سمعه وهو يقول ــ رحمة الله عليه ــ « صحيح » ؛ وهذه يقظة في وقت الحاجة ، وعناية من الله تعالى به ، فلله الحمد على ذلك . وكانت وفاته ــ رحمة الله عليه ــ بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء سابع عشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وبادر القــاضي

الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر وفاته ــ رحمة الله عليه ــ ووصلت وقد مات ، وانتقل الى رضوان الله ومحل كرامته. ولقد حكي لي أنه لما بلغ الشيخ ابو جعفر الى قوله تعالى : « لا اله الا هو عليه توكلت » . تبسم وتهلل وجهه وسلمها الى ربه ، وكان يوما لم يصب المسلمون والاسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون ، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالا يعلمها الا الله تعالى . وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم ، وما سمعت هذا الحديث الا على ضرب من التجوزوالترخص الى ذلك اليوم ؛ فاني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل « الفداء » لفدي بالنفس . ثم جلس ولده الملك الافضل للعزاء في الايوان الشمالي ؛ وحفظ باب القلعة الا عن الخواص من الامراء والمعممين . وكان يوما عظيما قد شغل كل انسان ما عنده من الحزن والاسف والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر الى غيره . وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلم فيه فاضل أو واعظ . وكان أولاده يخرجون مستغيثين بين الناس . فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ودام الحال على ذلك الى بعد صلاة الظهر ، ثم اشتغل

بتغسيله وتكفينه ، فما مكنا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة الا بالقرض ، حتى في ثمن التبن الذي يُلتُّ به الطين وغسله الدولعي الفقيه ، وندبت الى الوقوف على غسله ، فلم يكن لي قوة تحمل ذلك المنظر . وأخرج بعد صلاة الظهر — رحمة الله عليه — في تابوت مسجى بثوب فوط ، وكان ذلك وجميع ما احتاج اليه من الثياب فيتكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وجه حل عرفه وارتفعت الاصوات عند مشاهدته ، وعظم الضجيج ، حتى ان العاقل يتخيل أن الدنيا كلها تصيح صوتا واحدا ، وغشي الناس من البكاء والعويل مـا شغلهم عن الصلاة ، وصلى عليه الناس أرسالا ، وكان أول من أم بالناس القاضي محيي الدين ابن الزكي ثم أعيد — رحمة الله عليه — الى الدار التي في البستان ، وكان متمرضا بها — رحمة الله عليه — ودفن في الصفة الغربية منها ، وكان نزوله في حفرته — قدس الله روحه ونور ضريحه — قريبا من صلاة العصر ، ثم نزل في أثناء النهار ولده الملك الظافر ، وعزى الناس فيه وسكن قلوب الناس ، وكان الناس قد شغلهم البكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد ، فما يوجد قلب الا حزين ، ولا

عين الا باكية ، الا من شاء الله ، ثم رجع الناس الى بيوتهم أقبح رجوع ، ولم يعد منهم أحد في تلك الليلة الا أنا حضرنا، وقرأنا ، وجددنا حالا من الحزن ، واشتغل ذلك اليوم الملك الافضل بكتب الكتب الى عمه وإخوته يخبرهم بهذا الحادث . وفي اليوم الثاني جلس للعزاء جلوسا عاما . وأطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء ، وتكلم المتكلمون ، ولم ينشد شاعر ، ثم انفض المجلس في ظهيرة ذلك اليوم ، واستمر الحال في حضور الناس بكرة وعشية لقراءة القرآن، والدعاء له ـ رحمة الله عليه ـ واشتغل الملك الافضل بتدبير أمره ، ومراسلة إخوته وعمه .

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله . هذه أخبار الملك الناصر أبي المظفر يوسف بن أيوب ـ رحمة الله عليه ـ فرغت من جمعها يوم وفاته ـ رحمة الله عليه ـ ، وقصدت بذلك وجه الله تعالى في حث الناس على الترحم عليه ، وذكر محاسنه ، والله يحسن خلافته من بعده ، ويجزيه ما هو أهله ، بمحمد وآله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

★ ★ ★

قال مولانا الصاحب المصنف ، أدام الله علوه :

ذكر المدن والحصون التي يسَّر الله فتحها على يديه

ـ رحمة الله عليه ـ من ديار الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة ست وثمانين

طبرية على بحر الاردن بالسيف • عكا على البحر الكبير بالامان • حيفا على البحر بالامان • الناصرة التي تنسب اليها النصارى • الرملة • قيسارية بالسيف • أرسوف بالامان • يافا بالسيف « مدينتها » • عسقلان بالامان • غزة بالامان • الداروم • صيدا على البحر • بيروت بالامان • جبيل • هونين • جبلية • تبنين • أنطرسوس « دون أخذ برجها » بالسيف • جبلة « مدينتها بالسيف ، وقلعتها بالامان » اللاذقية ، مدينتها بالسيف ، وقلعتها بالامان • السرفند • مدينة القدس الشريف ، خَلَّصه الله تعالى • نابلس • البيرة بأرض القدس • صفورية • الطور • حصن دبورية • الفولة • حصن عفربلا • حصن جينين • سفسطية • كوكب • حصن عفري « شمالي القدس » • بيت لحم • حصن العازرية بأرض القدس • البرج الاحمر « قريبا منه » • حصن الخليل « عليه السلام » بيت جبرين • تل الصافية •

حصن مجدل يابا . قلعة الجيب الفوقاني . « الجيب »
التحتاني . النطرون . الحصن الاحمر . لُدّ بأرض الرملة ،
قلنوسة « قريبا منها » . يبنى . القاقون والقيمون . قلعة
الكرك « بعد حصار سنة ونصف » . قلعة الشوبك « بعد
حصار سنتين » . قلعة السلع . الوعيرة . قلعة الجمع .
قلعة الطفيلة . قلعة الهرمز . جميع ذلك في وادي موسى
والسراة . قلعة صفد . حصن يازور . شقيف أرنون .
حصن اسكندرونة « بين صور وعكا » . قلعة أبي الحسن
« بأرض صيدا » . صيدا أيضا حصن . بلدة بالساحل
الاعلى . المرقية « على البحر » . حصن يحمور بأرض عكا .
بلنياس بين جبلة والمرقب . صهيون . بلاطنس . حصن
الجماهرية . قلعة العيذد . بكاس . الشغر . بكسرائيل .
السرمانية . قلعة بَرْزَيَة . دَرْبساك . بَغْراس « قريبا من
أنطاكية » الدامور بأرض بيروت . السوفند قريبا من صيدا .

آخره والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا
محمد وآله وصحبه وسلامه . ووافق الفراغ منه ثاني عشر
رجب المبارك سنة ست وعشرين وستمائة ، على يد العبد
الفقير الى رحمة ربه . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

★ ★ ★

المحتويـات

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

	الصفحة

الصفحة



١٠٠٠٠ / ٤ / ١٩٧٩

مطبعة وزارة

دمشق -